

إنتشار الإسلام في آسيا

« الجزء الأول »

الفتوحات الإسلامية
دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية

دكتور

محمد نوري مهنا

أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية

جامعة أسيوط

٢٠٠١

المكتب الجامعي الحديث

الأزايطة - اسكندرية

إنتشار الإسلام في آسيا

إهداء

إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة
المحترمة
والتي تله من شرفه الله تعالى بالانتماء
إلى العرب

تمهيد

انعكس تأثير الإسلام فى عقلية العرب على مظهرين ، الأول : أن التعاليم الاسلامية جاءت مخالفة لعقائد العرب ، وأما المظهر الثانى فهو أن الإسلام قد مكن العرب من فتح بلاد فارس وبلاد الروم ، ومن الثابت أنهما أمتان عظيمتان حملتا مدنية راقية فى هذه الفترة . وقد قضت تعاليم الإسلام بأنه اذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولا ، الدعوة إلى الدخول فى الإسلام ، فان أسلموا كانوا وسائر المسلمين سواء ، وأن لم يسلموا فان عليهم أن يسلموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ، وبيقوا على دينهم - أن شاءوا - ويدفعوا الجزية - ضريبة على الرأس يدفعها الرجال غير العرب - وليس النساء - ، فاذا قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يدافعون عنهم ويتعهدونهم بالحماية .

ومظاهر الحضارة الاسلامية التى تركها العرب كانت بناءة بدليل أن الفتيوحات الاسلامية قد خلقت تأثيرا عظيما ، حيث ارتقى العرب بهذه الشعوب ، مثال ذلك عندما غزا محمد بن القاسم الثقفى شبه القارة الهندية سنة ٩٣هـ فقد أستأثر باهتمام وتقدير شعوبها ولدى مغادرته هناك ودعته شعوبها بالدموع والعواطف الجياشة وهو دليل على اندماج العرب المسلمين بهذه الشعوب رغم أنها غريبة عنها فى اللغة والتراث التاريخى والعادات فان العرب كانوا أهل عقيدة وحضارة عريقة معا ، مما جعل الشعوب الأخرى تندمج فى الحضارة الاسلامية ومن الثابت أن انتشار العقيدة الاسلامية فى السند والبنجاب ووسط آسيا وتغلغلها حتى الوقت الحاضر هو خير دليل - كما لمست بنفسى خلال فترة عملى بالباكستان - على قوة الحضارة

الاسلامية التى تم من خلالها بناء هذه البلاد

فى حين أنه فى الوقت الذى ابتليت فيه هذه الشعوب بالاستعمار الأوروبى بشتى أنواعه ، فقد فقدت حضارتها ، وتم استنزاف ثرواتها الى الدول الأوروبية ، ووصل الاستعمار الأوروبى الى مرحلة شرسة فى التمييز بين الأوروبى وغيره من الشعوب المستعمرة - بفتح العين - وحقوق الإنسان .. فما هو تفسير هذه الظاهرة ؟

الواقع أن الحضارة الاسلامية هى حضارة صادقة فى حين كانت الحضارة الأوروبية مجرد شعارات للرجل الأبيض فحسب ، وتاريخ العرب - وسيطه وحديثه - خير دليل على ذلك ، ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة التى نجيب من خلال ثناياها على التساؤلات الآتية :

- كيف اعتنقت هذه الشعوب الاسيوية الاسلام ودخلته قاعة راضية ؟

- هل صحيح أن العرب كانوا يمارسون حكما استبداديا - وخاصة فى العصر الأموى والعباسى - تجاه هذه الشعوب ؟ وكيف يمكن مقارنة ذلك ببناء الحضارة ماديا ومعنويا للشعوب التى اختلطت بالعرب فأحببهم وأحبوها واستفادت منهم وأفادوها ؟

- لماذا ينزلق البعض الى آراء المستشرقين ؟ وأليس المستشرقون أو جزاء كبيرا منهم على الاقل - قد أساءوا الى الإسلام أكثر مما أفادوه ؟

- لماذا لا يعيد العرب كتابة تاريخهم دون الانسياق وراء المستشرقين أو من يرددون آراءهم ويتأثرون بها ؟

- من واقع درستنا لحركة التاريخ الاسلامى فكيف يمكن تحليل ما رده البعض أن العرب ليسوا أهل حضارة ؟! أليست شواهد الحضارة الإسلامية فى آسيا تنفى ذلك ؟

والكتاب الذى بين أيدينا يوضح الحقائق الآتية :

أولا .

ان انتشار الاسلام فى العصور الوسطى يرجع الى اتفاق الحركة الاسلامية سلوكيا مع مبادئ وقيم ومعتقدات الاسلام ، لقد كانت الحركة الاسلامية فى ذلك الوقت حركة فعالة ، ذات هدف ، تحررية ، متسامحة ، رحيمة ويقظة وخاشعة لله سبحانه وتعالى .

وقد استتبع اعتبار الحركة الاسلامية كنظام سلوكى منذ انتشار الاسلام فى القرون المبكرة - أن تميزت على جميع النظم السلوكية بمعيار محدد فرض نفسه كشئ مقدس فى الوحي الذى نزل على الرسول ﷺ ، وكان الوحي فى نفس الوقت مصدر جميع المعرفة فى القرآن الكريم ... (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) ، وكان أسلوب تطبيقه فى سنة النبى ﷺ ، وكان النموذج هو حضارة المدينة التى أسسها النبى ﷺ ، وناضلت الحضارة الاسلامية عبر عصورها المختلفة - الوسيطة والحديثة والمعاصرة - فى بيئة دولية وفرضت نفسها بأفضل ما تستطيع لتصبح الحركة الاسلامية عالمية النطاق وحقيقة فعالة متفوقة فى الكيف والكم بمقارنتها بحصيلة عمل القوى المعادية لها ، وتمثلت هذه الحقيقة الفعالة فى تقديم الدين الاسلامى كنموذج لحل جميع مشاكل البشر .

لقد عاش الانسان على الأرض ملايين السنين ، غير أن أحداث التاريخ المسجلة لاتتعدى ثلاثة آلاف عام ، وحتى المئات الأولى منها تعد غامضة من وجهة نظر المؤرخين ، وإحياء القرآن الكريم واتمام رسالة الاسلام من خلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا ، وقد تغلب المسلمون من صحراء شبه الجزيرة العربية فى الطور الأول

من تاريخهم على المدنيات المتطورة فى بلاد فارس وروما ، ثم انتشروا بعد ذلك وأقاموا حضارة مزدهرة بسماتها الاسلامية المتميزة شملت الجزء الأعظم من العالم المعروف فى ذلك الوقت وظلت حضارة الإسلام سائدة حوالى ألف عام .

ثانيا : .

امتدت دولة الاسلام قوية مرهوبة الجانب حتى نهاية حكم الأمويين وبداية حكم العباسيين - لتشمل مساحات هائلة من الأرض وأعدادا ضخمة من البشر - ربما لم تتوفر لدولة قبلها أو حتى بعدها - ، وقامت الدولة الاسلامية بفتوحات رائعة ونشرت الاسلام والهداية والتعمير ، وشملت فى هذه الفترة اقليمى جرجان وطنجارستان فى بلاد ما وراء النهر، وقاربت حدود الصين ، ووصلت مدن هامة من نواحي بلاد ما وراء النهر فى حوزة المسلمين الأوائل مثل خوارزم وسمرقند وبلخ ومرد ، وفى جنوب شرقى آسيا بلغت حدود دولة المسلمين فى بلاد كشمير وبلاد السند ووصلت الى ما يلى الغرب جنوبا من الصحراء فى افريقيا ، أما من جهة الشمال الشرقى فقد بلغت الدولة الاسلامية جبال القوقاز وأرمينية تاخمت فى الشمال حدود الدولة البيزنطية ، وأصبح خط حدود الدولة الاسلامية مع بيزنطة يمتد من قليقلة فى الشرق ويحاذى الأطراف الجنوبية لآسيا الصغرى ضمن الأراضى الاسلامية حتى طرطوس فى الغرب جنوب بلاد غاله ودخلت الاندلس ضمن الأراضى الاسلامية التى اشتملت أيضا على كل أراضى الشمال الأفريقى من مصر الى بلاد السوس فى المغرب الأقصى .

ثالثا :

احتك العرب عند امتداد دولتهم الكبرى بثقافات متنوعة ونجحوا في التعامل معها ، ومن الثابت أن الغالبية العظمى من هذه الشعوب التي اعتنقت الاسلام بعد الفتح الاسلامي لبلادها قد شكلت جزءا من التيار الاسلامي ، وامتزج العرب مع الأجناس الأخرى ، كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، وتأثرت الحياة والنظم السياسية والاجتماعية بهذا الامتزاج ، وكان العرب هم العنصر القوى الفاعل فقاموا بتعديل هذه النظم بما يتواءم وعقليتهم ، ولكنهم تأثروا أيضا بالنظم الاجتماعية والحضارات الأقدم ، والواقع أن الامتزاج كان قويا ، فالموالي - كما سيتضح من الدراسة - كان لهم أثر في مرافق الحياة ، وأصبحت الدولة الاسلامية - بعد فتوحات أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم - مجالا فسيحا لأنواع أخرى من الحروب مثل حرب اللغة العربية واللغات الأخرى ، والاسلام والديانات الأخرى ، والنظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الفارسية والرومية ، والحياة العقلية هي الأخرى كان شأنها شأن هذه النظم ، وامتزج العقل العربي بالعقل الأجنبي ، وكما تضاربت النظم السياسية الفارسية والرومية مع النظم الاسلامية ، اختفت أيضا القوانين الفارسية والرومية ، كلها كانت في حروب مستمرة ، وكانت الدولة الاسلامية هي مسرح العمليات وموطن القتال .

رابعا :

من الثابت أن العرب انتصروا في نشر الدين الاسلامي لهذه الأقطار ، وظل الانتصار حليفهم حتى اليوم باعتناق الأقاليم المفتوحة للدين

الاسلامى ، كما انتصرت لغة العرب وسادت الممالك المفتوحة ، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للأقاليم المفتوحة ، وصارت اللغة العربية هى لغة السياسة والعلم معا حيث عنى المسلمون بالتفكير المنظم من تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسير ، ولما فتح المسلمون هذه الاقاليم كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم فتعلم وقرأ وكتب ، واضطر الداخلون فى الاسلام من غير العرب الى تعلم العربية ورفع الاسلام المستوى العقلى للعرب من خلال نشر تاريخ وأحوال الأمم الأخرى ، وفيما يتعلق بالحياة العقلية فقد تأثرت هى الأخرى بالاسلام ودعوته الى الايمان بالله وصفاته من وحدانية وعلم وقدرة والدعوة الى ما فى العالم من ظواهر ، وانتشر علماء المسلمين فى الدولة الاسلامية فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، بل أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى مدن جزيرة العرب ، فأرسل الى اليمن والى البحرين والى مكة بعد فتحها ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما توسعت فتوحاته عندما كتب الى أهل الكوفة قائلا : « أنى بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وأثرتكم به على نفسى ، فخذوا عنه » ، وأنشأ هؤلاء الصحابة والعلماء حركة علمية نشيطة ، واشترك العرب والعجم معا فى تلقى العلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من أبناء الموالى - أبناء البلاد المفتوحة - واشتهر كثير من علماء مكة ، والكوفة والشام ومصر .

خامسا :

انتشرت الحركة التاريخية - وليس المقصود بها تأليف كتب التاريخ - وانما ما انتشر فى الدولة الاسلامية من أخبار الأمم الماضية والأحداث فى

فترة النبوة والخلافة الراشدة ، وكانت حركة نشيطة ، فالرسول ﷺ قد كتب الى أمرائه وقادة سراياه من الصحابة وبلغ عدد كتابه ما يزيد على الثلاثين - حسب تقدير المصادر العربية - ومن أبرزهم الصديق والفاروق وعثمان بن عفان رضى الله عنهم ، كما كتب له على بن أبى طالب وخالد بن سعيد ، وشرحبيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم .

وأرسل النبي ﷺ جيرانه ، وتحفظ المصادر مراسلاته مع أهل نجران ، وكان معظمها بخط على بن أبى طالب كرم الله وجهه . كذلك كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الملوك والحكام والأمراء يدعوهم الى الاسلام وأرسل اليهم شعراء ومبعوثيه برسائل مكتوبة ، فأرسل عمر بن أمية الضمري الى نجاشى الحبشة ، وعبد الله بن حذافة الى كسرى فارس ، ودحية الكلبي الى هرقل امبراطور الروم ، كما أرسل حاطب ابن أبى بلتعة الى المقوقس حاكم مصر من قبل البيزنطيين ، وسليط بن عمر الى هوزة بن على ملك اليمامة ، والعلاء بن الحضري الى منذر بن ساوى ملك البحرين .

كما كتب رسول الله ﷺ اليهود ، ومنها عهده الى أهل اليمن الذى وجهه مع عمرو بن حزم ، وصلح الحديبية الذى أملاه على علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كما كتب لتميم الدارى وأخوته بالشام . وتذكر المصادر التاريخية ان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان لرسول الله ﷺ أموال الصدقات ، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخيل ، وان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان له المدانيات والمعاملات .

وفى عصر الخلفاء الراشدين كتب عثمان بن عفان ورير بن ثابت لأبي بكر الصديق ، وكتب للفراروق رضى الله عنه ريد بن ثابت وعبد الله ابن خلف ، كما كتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكتب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه عبد الله بن رافع ، وسعيد بن نجران الهمداني كما كتب للحسين بن على كاتب أبيه

وقد بعثت هذه الحركة من شعور الخلفاء بالحاجة الى تعرف أخبار الملوك فى الأمم الأخرى وسياستهم بعد اتساع الدولة الاسلامية وفتوحاتها ، ويروى المسعودى أن معاوية بن أبى سفيان كان يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتهما ، وبالتالي فقد ازدادت أهمية الكتابة بازدياد فتوحات الدولة الأموية ، وتعددت مراسلاتها ، وظهرت وظيفة الكتابة بشكل أوضح ، وكان ديوان الخليفة يتولى التوقيع على القصص ويصدر الأحكام ، وكان الكاتب ينقد ما يصدره الخليفة اليه .

تعاونت هذه الحركات واعتمد أصحاب المذاهب الدينية فى تعاليمهم فيما بعد على الفلسفة ، وتعاليم الكتب ، واستعان المفسرون والمحدثون والفقهاء بالشعر والأدب لتفهم معانى القرآن الكريم والحديث ، واستمد المؤرخون أهم معلوماتهم من القرآن الكريم والحديث . وفى عصر التابعين ومن بعدهم قويت الحركة العلمية بسبب الفتوحات الاسلامية المتعاقبة ودخول الأمم المتحضرة فى الاسلام والحاجة الى تسريع واسع يسائر الأحداث ، فكثر التدوين وتطور الكتاب بشكل واسع فى العصر العباسى وكان ديوان الرسائل يضاف الى الوراره أحيانا ، فكان الورير هو الذى يتولى

أحوال الديوان - الذى أطلق عليه ديوان الانشاء - ويصرف أموره بنفسه ، وأحيانا كانت ادارته توكل الى كاتب يختص به ويعتمد على ما يرد اليه من ديوان الوزارة ، وظلت الكتابة فى بغداد تستأثر باهتمام الخلفاء العباسيين الى أن بطل رسمها بسقوط العاصمة العباسية أمام جيوش المغول عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م .

ومن خلال الاعتبارات الساسية السابقة سارت حركة التاريخ الاسلامى فى فتوحاتها ونشر الاسلام كم تأثيره المتعظم فى قارة آسيا ، والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ؟

ماذا عن قوة التاريخ الاسلامى الحديث ؟

الواقع أن جهود المؤرخين والباحثين المسلمين المحدثين تجاه التاريخ الاسلامى الحديث قد اطردت منذ أول هذا القرن الذى أوشك على الانصرام . ولأن اتصال هذه الجهود قد استوفقت واشتدت على صعيد المنهج المتكامل فى العلوم الاجتماعية الذى ذاع صيته فى الفترة الأخيرة حيث اجتهد الباحثون فى التخصصات المتعددة فى العلوم الانسانية - Multidisciplinary - فى تفسير ظاهرة هذه الاشراق الاسلامية التى امتدت لتشمل ، ليس العالم الاسلامى فقط ، وانما قوة الاسلام المتدفقة قد أثرت فى القوى العظمى والسياسات العالمية حيث تعمق الباحثون الغربيون - هم الآخرون - فى مناهج بحث الدراسات الاسلامية ودراسة حركة التاريخ الاسلامى دراسة صحيحة مستقيمة المنهج .

على هذا النحو من الاستعداد أقبلت - خلال السنوات الماضية خلال فترة ابتعائى الى بريطانيا ثم عملى بالمملكة العربية السعودية وجمهورية

باكستان ، أقبلت على دراسة تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين حيث اشتركت فى المساهمة فى العديد من المؤتمرات وحلقات البحث فى الجامعات البريطانية والسعودية والباكستانية ولدى الأوساط العلمية للمجاهدين الأفغان فى باكستان فى محاولة للكتابة فى العلاقات السياسية الاسلامية منذ العصور الوسطى بروح جديدة ، وجادة ومخلصة رغم صعوبة الخوض فى هذه التجربة ومشقاتها وعقباتها حيث سبقنى كثير من علماء الأمة الاسلامية ومؤرخيها المخلصين . ولعل فى مواجهة هذه الصعوبات ومحاولة تأليلها والقدرة على اجتيازها لذة دفعتنى الى العمل وحثتنى على المضى فيه من خلال تشجيع زملاء لى فى أقسام التاريخ والعلوم السياسية بالجامعات العربية والأوروبية وكان تشجيعهم لى حافزا من مفهوم مفادة أن العلم لايعرف الكلمة الأخيرة ، وانما حقائقه لها معناها ، وقيمها خاصة اذا كان الانسان لاينغى الا الحق بهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية واضحة جلية والتي كانت دائما هدفا للباحثين والمؤرخين فى عصور التاريخ المختلفة .

كانت القاعدة التى اعتمدت عليها فى منهجية هذا الكتاب هو أن يلم دارسو العلوم السياسية والعلاقات الدولية بتطور تاريخ العلاقات السياسية الاسلامية والى أى مدى انعكست أحوال المسلمين الداخلية على العلاقات الخارجية ، وهذا بالطبع الى جانب ما وجدته من استعداد طلاب أقسام التاريخ فى الجامعات العربية وتفتح نفوسهم لهذا النوع من الدراسة ، ومع ذلك فقد تم عرض المادة العلمية بأسلوب يكون فى متناول القارئ العربى من خلال تحليل وتطور العلاقات السياسية الاسلامية ومحاولة ارجاعها الى

عناصرها المكونة له رغم تداخل وامتزاج هذه العناصر ببعضها البعض حيث قوة الاسلام المؤثرة فى العناصر المختلفة التى اعتنقت هذا الدين الحنيف ، وما صاحب واعقب ذلك من ظهور الفرق الاسلامية وتأثيرها - أن سلبا أو ايجابا - على علاقات المسلمين بكافة عناصرهم المتشعبة والمتشابهة .

ولايزال هذا النوع من الدراسة فى حاجة الى العناية والتحليل الدقيق من جانب الباحثين المحدثين ، وان الأمانة العلمية تقتضى القول أن مؤرخى المسلمين الأول قد نهضوا بهذا العبء الضخم وقاموا به على أحسن ما يكون ، بالمثل فعل أساتذتنا وزملائنا المحدثون والمعاصرون . جزاهم الله جميعا خير الجزاء لجهودهم الرائدة فى اعادة كتابة التاريخ الاسلامى وتخليصه وتنقيته من الشوائب التى علق بها .

وأيا كان الأمر فأتنى أقدم الى أبنائنا الطلاب هذا الكتاب الذى لايقصد الا العلم وحيث يصبح حاضرا غدا تاريخا لأبنائنا وبما يستلزمه ذلك من تلقينهم أن لايقعوا ضحايا الحاقدين على الاسلام ويفسر هذه الصعوبات والجهود المبذولة لخدمة أهداف الدراسة ، لكن سعة هذه الدراسة قد فرضت - على حد القول المأثور - أن أسرع الخطأ وفى القلب حسرة ، وفى النفس حرقة واشتياق لمزيد من التعمق ومزيد أطول من المعاشة لقضايا العلاقات السياسية الاسلامية المعاصرة .

وقد تم تقسيم هذه الدراسة الى ثلاثة أبواب . تناول الباب الأول عصر النبوة والخلافة الراشدة وكيف شكلت الفتوحات الاسلامية نصرا مؤزرا للاسلام ، وعالج الباب الثانى الفتوحات الاسلامية فى عصر الدولة الأموية وما نتج عنها - بصفة خاصة - من فتح بلاد السند والبنجاب ودور الفاتح

العربي محمد بن القاسم الثقفي ، وتناول الباب الثالث عصر الدولة العباسية بما شمله من أسس هذه الدولة وكيف انعكست الفتن الداخلية على أوضاعها الخارجية وصولا الى عصرى الانحلال الأول والثانى ثم سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة والغزو الصليبي .

وفى الختام تجب الإشارة الى ما يمكن أن تؤول اليه هذه الدراسة من تأصيل مستلزمات تطور العلاقات السياسية الاسلامية وصولا الى عصرنا الحاضر لمواصلة الجهود الرائدة من علماء المسلمين لتحقيق عناصر الالتزام بالاسلام المتكامل فى العلاقات السياسية الدولية المعاصرة ، وتأسيسا على ذلك يدعو الباحث الى وقفة للتأمل المنشود ، لحظة عمل اسلامية للمرحلة القادمة آملا أن يسد الكتاب نقصا فى المكتبة العربية ويفيد قطاع المثقفين من طلاب ودارسين وباحثين مستشهدا بالحديث النبوى الشريف :

« من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أجتهد فأخطأ فله أجر واحد » .

دكتور / محمد نصر مهنا

الباب الأول

عصر النبوة والخلافة الراشدة

- الفصل الأول : عصر النبوة : من العهد المكي الى العهد المدني
- الفصل الثاني : عصر أبي بكر الصديق ١٠ - ١٣ هـ
- الفصل الثالث : عصر عمر بن الخطاب ١٣ - ٢٣ هـ
- الفصل الرابع : عصر عثمان بن عفان ٢٣ - ٣٥ هـ
- الفصل الخامس : عصر علي بن أبي طالب ٣٥ - ٤٠ هـ

الفصل الأول عصر النبوة

- من العهد المكي الى العهد المدني
- أسس الدولة الإسلامية
- الردة وحروبها .

الفصل الأول

عصر النبوة

- من العهد المكى الى العهد المدنى :

جاءت الرسالة المحمدية تعميما لأهل الكون كله تحت راية واحدة هي راية الدين الاسلامى الحنيف ، الذى هو استكمال للنبوات السماوية ، وتقويم لما تم تحريفه من ديانات السماء التى أوحاها الله سبحانه وتعالى الى رسله ، قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » .

ان المبادئ التى جاء بها الرسول ﷺ هي ايجاد مجتمع فاضل ، منظم ، ليس فيه بدع يقوم على الدين الاسلامى الذى حددت أركانه الخمسة فى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وهناك قاعدة أساسية يقوم عليها بنيانه فى قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل أمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

ان الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى ، وحده ، لاشريك له ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، يحيى ويميت ، قادر ، قوى ، حكيم فى أفعاله ، عادل

فى قضائه .. هذا الاعتقاد هو أحد المبادئ الإسلامية العامة الى جانب وجوب تحكيم العقل ودراسة الكون والتفكر فى آثاره سبحانه وتعالى للوصول الى الايمان الصحيح واذا تعارض العقل والنقل^(١) أخذ بما يدل عليه العقل ، وأن لاسلطان على مسلم الا سلطان الله والعقل الصحيح والعلم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم عبد الله فقط ، حر من كل عبودية سوى العبودية لله سبحانه وتعالى ، وان العمل واجب لكل قادر عليه ، وان عبادات الاسلام كلها تتفق مع ما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى وسمو وجوده عن الأشباه والنظائر ، ويجب على المسلم تدارس القرآن الكريم وطلب العلم من دينى ودنيوى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعمل الخير والاحسان ، فالمسلم محاسب على أعماله كلها أن خيراً أو شراً ، وأنه مبعوث بعد موته لهذا الحساب ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الاسلام فيه قواعده ، وتعاليمه وهى قواعد تتعلق بالعبادات والمعاملات والتشريع والأخلاق والواجبات ، انها قواعد كلية وأصول أولية ، ويجب على المسلم اتباع ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أقرته الفطرة السليمة والعقل الصحيح والقلب السليم هو من الاسلام ، الذى يحث على القصد والاعتدال ، وما أجمع الناس على استحسانه وتعارفه عليه هو حسن عند الشرع ، وأنه لا اكراه فى الدين فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ ، وأن الجهاد واجب على المسلم وكذلك الاعداد لكل ما يحتاج اليه من عدد وعدة .. ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن

(١) عبد العزيز جابرش ، الاسلام دين الفطرة ، ص ٥٣ ، وراجع الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص ص ١٧٤ - ١٩٤ .

رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴿

لقد بدأ جهاد النبي ﷺ في سبيل الله منذ تبليغه بالرسالة ودعا الناس الى دين الله ، دين الاسلام ، ولم يزد معارضة المشركين له الا تمسكا بدينه ، وصمودا ، وأخذ ينشر هذا الدين الألهى بين أقرب الناس ^(٢) اليه . وكانت الدعوة فى بداية أمرها سرية ، ثم تطورت بعد ثلاثة أعوام من بدء الوحي حيث نزلت الآية الكريمة : ﴿ فأصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾ سورة الحجر آية ٩٤ ، ثم اتخذت مظهر الجهرية ، وبدأ ﷺ بعشيرته ، غير أن قريشا أخذت ترسل اليه - ﷺ - لاقناعه بالرجوع عن هذه الدعوة ، بل أن تعنت قريش ازداد للرسول ﷺ ، وكان موقفها من أتباعه وأصحابه أشد عنفا ، ومر المسلمون بفترة قاسية من المعاناة الشديدة وتعذيب هائل ، لكنهم تحملوا العذاب فى سبيل الله ، بل وازداد عددهم وزادوا تمسكا بدينهم .

وكن خروج الرسول الكريم الى الطائف ليجد مخرجا وأنصارا من قبيلة ثقيف - أهم قبائل العرب فى قريش - لكنه ﷺ تعرض لسب السفهاء وقذفه بالحجارة حتى لجأ الى حديقة ، وجلس ﷺ فى ظل شجرة واتجه الى الله سبحانه وتعالى - بعد أن اشتد به الكرب والبلاء - داعيا : • اللهم

(٢) كانت الشيلة خديجة رضى الله عنها أول من آمن بالله ، ومن الرجال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم من الصبيان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وزيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وابن عبيدة عامر بن الجراح ، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لنشر الدعوة الاسلامية ، راجع : أحمد بن يلىك المحمى (ت ٧٥٣) ، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين ، معهد المخطوطات ، القاهرة ص ٨ - ١١ .

اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، أنت أرحم
الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، أنت ربي ، الى من تكلنى ؟ الى
بغض يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك غضب على
فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت
به الظلمات ، واصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو
يحل على سخطك ، لك العتبى (الرضا) حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا
بك^(٣) .

عاد الرسول ﷺ الى مكة وقلبه مفعم بالخوف ، لكن الله سبحانه وتعالى
أراد أن يطمئنه بمشاهدة آياته ، فكان الاسراء الى بيت المقدس ثم العروج
الى السماوات العلا ، ولقى من لقى من الأنبياء ، وأعطت حادثة الاسراء
والمعراج للرسول قوة ، واستمر فى الدعوة الى الاسلام ، وأخذ يكرر
لقاءاته مع القبائل العربية فى مواسم الحج ويتلو عليهم القرآن الكريم ،
وفى أحد المواسم ، لقى الرسول ﷺ أفرادا من الخزرج فدعاهم الى
الاسلام ، فاستجابوا ، وعادوا الى المدينة ، وأخذوا يدعون الى الاسلام حتى
انتشر فيها ، ولم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر النبى عليه الصلاة
والسلام ، وفى العام التالى (هـ م) قدم رجال من الخزرج وبايعوا
الرسول ﷺ عند العقبة ، وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وبعث
معهم الرسول عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير ليعلم القرآن الكريم
لمسلمى الخزرج ، ولما ازداد عددهم اشتد أذى قريش لهم ، فأمر رسول الله
ﷺ اصحابه بالهجرة الى المدينة فلم يبق فى مكة من المسلمين مع رسول

(٣) ابن اسحق : أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى ت ١٥١ هـ ، سيرة النبى - هذبها ابن هشام
بن أيوب الحميرى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الاتحاد العربى للطباعة .

الله ﷺ الا أبو بكر وعلى بن أبي طالب ، وكان الرسول ينتظر أن يؤذن له
بالهجرة الى يثرب .

وكان اليهود يعيشون بجوار المسلمين فى يثرب وهم يهود بنو قريظة ،
وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، وكان هؤلاء اليهود أعداء للأوس والخزرج
(الانصار) قبل دخولهم الاسلام^(٤) ، وعندما وصل الرسول ﷺ المدينة ،
وانتشر الاسلام ، ازدادت عداوة اليهود للمسلمين ، وكان من سياسته ﷺ
أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمحبة والمودة ، ويبسط لهم يد الأخوة ، وكتب ﷺ
صحيفة أوضح فيها واجبات كل من المسلمين واليهود وحقوقهم ، وجاء
فى هذه الصحيفة : «أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ،
وللمسلمين دينهم الا من ظلم ، وأثم بينهم فانه لا يوتغ (لا يهلك) الا
نفسه وأهل بيته ، وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان
بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح
والنصيحة ، والبر دون الأثم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من
حدث أو اشتجار يخاف فساد ، فان مرده الى الله والى محمد رسول الله
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وان من خرج آمن ، ومن قعد آمن
بالمدينة ، الا من ظلم وأثم وان الله جار لمن بر واتقى^(٥) » .

ويسفاد من هذه الوثيقة أن الرسول ﷺ قد عامل اليهود معاملة حسنة ،

(٤) راجع : الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور : تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو

المغولى ، مطبعة الخالدى ، عمان ١٩٨٢ ، ص ص ٣٤ - ٤٧ .

(٥) ابن اسحق : أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى المتوفى سنة ١٥١ هـ ، سيرة النبى ، هذبها ابن

هشام بن أبوب الحميرى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الاتحاد العربى للطباعة

- الجزء الثانى ص ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

وحاول اقامة المودة بينهم وبين المسلمين .

- أسس الدولة الاسلامية :

وضع الرسول ﷺ أسس الدولة الاسلامية عندما هاجر الى المدينة ، وأخذ يعمل جاهدا على نشر الاسلام ، فقد أمر الله الرسول ﷺ المسلمين بقتال المشركين ، وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرون الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ^(٦) ... » .

لقد أذن الله تعالى للرسول ﷺ بمقاتلة الكفار للدفاع عن النفس ، وحماية الدين الاسلامي ، ونشره في الجزيرة العربية والبلاد المجاورة ، ومن أجل ذلك قام الرسول والمسلمون بغزوات عديدة لمواجهة قريش والقبائل العربية في شبه جزيرة العرب وأشتهر هذه الغزوات ^(٧) : غزوة بدر الكبرى (سنة ٢ هـ / ٦٢٤ م) ، وغزوة أحد (سنة ٢ هـ / ٦٢٥ م) ، وغزوة بني النضير وغزوة الأحزاب (الخنديق) (سنة ٥ هـ / ٦٢٧ م) التي أعقبها صلح الحديبية سنة ٦ هـ / ٦٢٨ م حيث كان الرسول ﷺ سياسيا ، بعيد النظر في عقد هذا الصلح مع قريش اذ أنه أمن جانبهم عشر سنوات أخذ في أثنائها ينشر الدعوة الاسلامية في بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية ، وكان ﷺ مدركا

(٦) سورة الحج (الآيات ٣٩ - ٤١) .

(٧) لمزيد من التفصيل ، راجع : الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق ، ص

تماما لمغزى هذا الصلح حيث اتجه لنشر الاسلام بين القبائل الأخرى تاركا قريش جانبا بعد ما أشعروا بقوة المسلمين ومقدرتهم العسكرية .

ولم تبدأ علاقات المسلمين السياسية مع الروم والفرس ومن تحتهم من الحبشة والغساسنة وأهل البحرين وعمان واليمن والبحرين ونجران وحضرموت وغيرها الا بعد صلح الحديبية حيث أرسل الرسول ﷺ وفودا الى ملوك العرب والعجم لدعوتهم الى الاسلام ، فبعث سليط بن عمرو بن عبد شمس بن ود الى هوذة بن على صاحب اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى جيفر بن جلندى صاحب عثمان ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية ، وبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم هرقل ، فوصل الى بصرى ، وبعثه صاحب بصرى الى هرقل ، فقرأ الكتاب وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين » ، فطلب هرقل من فى مملكته من قوم النبی علیه الصلاة والسلام ، فأحضروا من غزة ، وكان فيهم أبو سفيان فسأله ، فأجابته ، فعرف صحة أمره ، وعرض على الروم أتباعه ، ولكنه عندما رأى معارضتهم ، لاطفهم بالقول^(٨) .

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي الى الحرث بن شمر الغساني صاحب دمشق وكتب معه : « السلام على من اتبع الهدى ، وأمن

(٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، جـ ٢

به ، ادعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » ،
فلما قرأ صاحب دمشق الكتاب ، قال : « من ينزع ملكي ، أنا سائر اليه » ،
فقال النبي ﷺ : « باد ملكه » .

وكتب رسول الله ﷺ الى كسرى وبعث بالكتاب عبد الله بن حذافة
السهمي وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى
كسرى عظيم فارس سلام على من أتبع الهدى ، وآمن بالله ، ورسوله ، أما
بعد فأني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم ، فان
أبيت فعليك أثم المجوس » ، ويذكر الطبري أن كسرى مزق كتاب النبي ﷺ
استكبارا فمزق الله ملكه وأدير وهلك ، وقد ضمن أحد المؤرخين المسلمين
وثائق النبي ومعهادات الدعوة الاسلامية وتجديد المعاهدات القديمة وذكر
عهود تولية العمال وواجباتهم الحيدر آبادي ، الوثائق السياسية ص ص ٨
٩- نقلا عن مخطوط السيرة النبوية لمحمد بن جدير الطبري ((الطبري ،
تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ص ٦٥٤) ، وهكذا أخذ الرسول ﷺ ينشر
الاسلام في بقية أجزاء الجزيرة العربية .

وقد توالى غزوات الرسول ﷺ في الفترة (٦ - ٩ هـ) (٦٢٨ -
٦٣١ م) فكانت غزوة خيبر ، وغزوة مؤتة ، وتم فتح مكة سنة ٧ هـ -
٦٣٠ م والذي جاء أكبر انتصار في انتشار الاسلام حيث جذب استيلاء
الرسول على الكعبة كثيرا من القبائل العربية للاسلام ، وأخضع الرسول
ﷺ ما تبقى من بدو نجران وعمان وغيرهما ، ثم جاءت غزوة تبوك (٩ هـ -
٦٣١ م) حيث اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم
لقتال المسلمين ، فخرج اليهم رسول الله ﷺ بجيشه ، ولما وصل الى تبوك

أقام بها أياما ، فصالحه أهلها ، وجاءت الوفود من أيله وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية ، كما بعث خالد بن الوليد الى دومة الجندل ففتحها ، وعاد الرسول ﷺ بعد ذلك الى المدينة ، وقد وفدت الى المدينة وفود كثيرة ، وكانت غزوة تبوك هي آار الغزوات النبوية ، وقد وفدت الى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة العربية ، فسمى هذا العام بعام الوفود ، ونزلت الآية الكريمة : ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا ﴾ (سورة النصر) .

لقد وحد الاسلام بين القبائل العربية ، وجعلها أمة واحدة ، متجانسة ، قوية ، انطلقت تنشر الاسلام فى كل مكان ، حتى امتدت الدولة الاسلامية الى جميع البلاد المجاورة فى آسيا وأفريقيا ، واضعا قواعد للروابط البشرية فلم يحدث اكراه على دخول الاسلام ، وانما ترك للناس حرية العقيدة والمذاهب وخاصة النصارى واليهود والذين عرفوا بأهل الذمة حيث أوضح الاسلام معاملتهم وما عليهم من حقوق وواجبات وهو ما يستدل عليه من الوثيقة المدنية التى أذاعها الرسول ﷺ فى المدينة المنورة فور استقراره فيها والتى تعتبر بمثابة القانون الأساسى للدولة الاسلامية الجديدة ، وقد نصت هذه الوثيقة التى تعتبر من أقدم الوثائق السياسية العريقة ان لم تكن أقدمها ، نصت على أن لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، وان من تبع الاسلام من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ،

(٩) كما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى وكتب اليه كتابا كان من نتيجته

اسلامه ، راجع ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ٣٦ - ٣٧ .

لليهود دينهم ، للمسلمين دينهم ، وان لليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبهم .. لهم جميعا ما لليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته وان يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع أبر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الأثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه .

ويستدل من هذه الوثيقة بسلطانها وقصر جملها ، ولم تنص كسائر الوثائق النبوية أو أكثرها على اسم كاتبها أو شهودها ، كما أنها لم تنص على تاريخ كتابتها . وتذكر المصادر ^(١٠) أن الأمام أبا داود يرجح أن هذه الصحيفة قد كتبت بعد وقعة بدر الكبرى حيث قوة النبي ﷺ ومواقفة من اليهود الأقوياء ، وأن الرسول أراد أن يحول دونهم ودون نشاطهم ضده أو معاونتهم عدوه عليه ، وقد اعتبرهم الرسول ﷺ داخلون فيما دخل فيه اخلافهم من الأوس والخزرج ، فاليهود والمخالفون للأوس ومواليهم ، واليهود المخالفون لبنى عوف هم داخلون معهم ، وكذلك اليهود المخالفون لبنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وكذلك بنو الشظبية ، وكذلك اليهود خارج المدينة ، فانهم داخلون معهم ، وان كل هؤلاء اليهود ممن اتبع الاسلام دخل في حلفهم ، لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ^(١١) ، وأنهم ينفقون مع المؤمنين فيما يجب على المؤمن انفاقه ، ماداموا

(١٠) الدكتور محمد سعد طلس ، تاريخ العرب ج ١ ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت

ص ٧٧ - ٨٥ .

(١١) المادة (٥١) وراجع نصوص الوثيقة المدنية في : المرجع السابق ص ٧٧ - ٨٥ .

محاربين^(١٢) ، وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة وان بينهم النصر والبر دون الأثم^(١٣) .

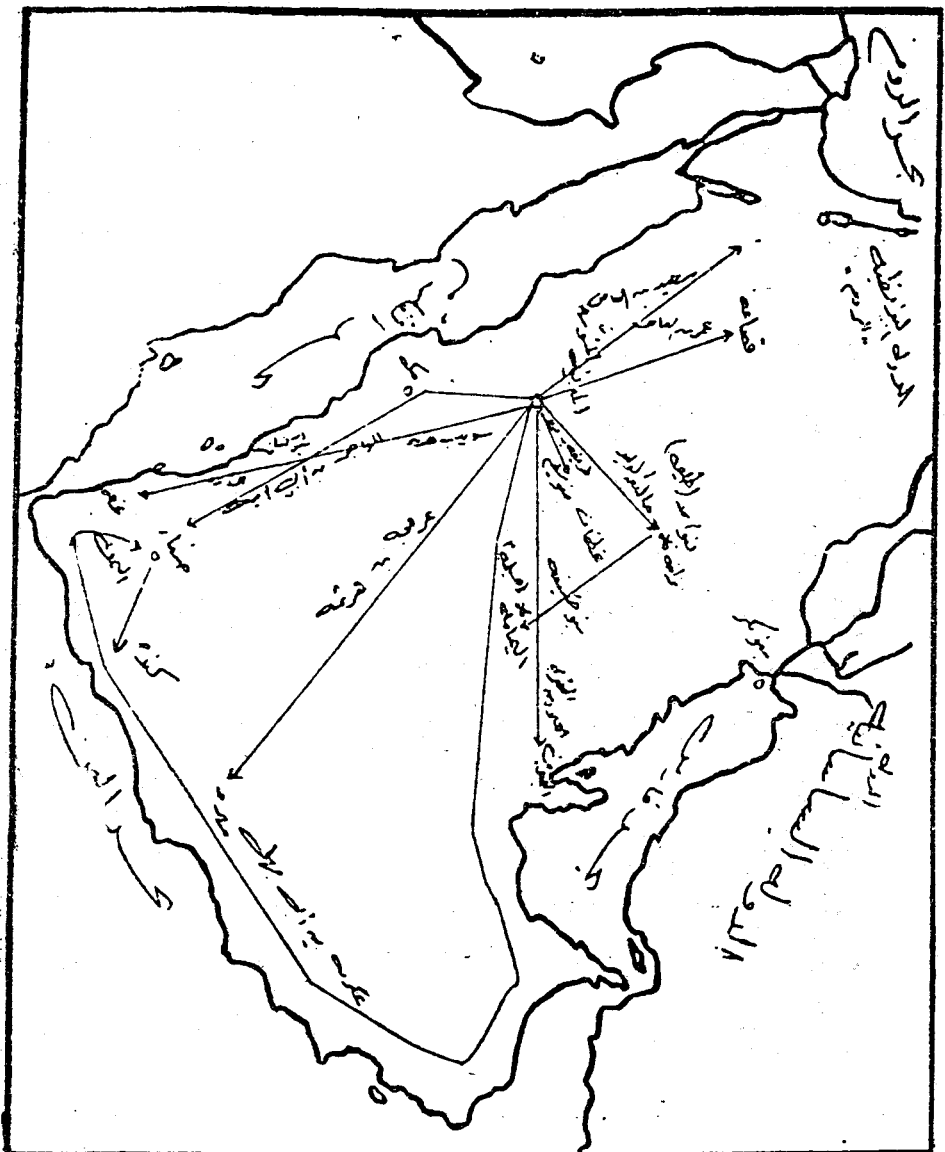
- الردة وحروبها :

منى الاسلام بفتنة عظمت بعد وفاة النبي ﷺ ، وكادت المصيبة تفتك بالاسلام لولا دور أبو بكر الصديق في زعامة المسلمين وتمكنه من اخماد فتنة الردة ، فقد كثر المرتدون عن الاسلام عندما بلغ الاعراب نبأ وفاة الرسول ﷺ وتحركت النزعات الفردية والعصبية الاقليمية التي كانت سمات بارزة وطابع العرب ، كما أن القبائل التي أعلنت اسلامها من قبل في اليمن ، واليمامة ، وعمان قد تهاونت في مسألة دفع الزكاة ، واعتبرتها أتاوة كانت تدفع للرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل الى جوار ربه صاروا في حل من دفعها الى خليفته ، غير أن هناك من يخالف هذا الرأي^(١٤) حيث انقسم المرتدون عن الاسلام الى قسمين ، قسما خرج عن الاسلام وهم بنو طي ، وغطفان ، وأسد جماعة المتنبي طلحة ابن خويلد الأسدي ، وحنيفة جماعة مسيلمة الكذاب ، وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسي ، أما

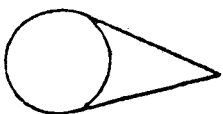
(١٢) المادة (٢٤) في المرجع نفسه ص ٨٤ .

(١٣) المادة (٣٨) في المرجع نفسه ص ٨٤ .

(١٤) قارن : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحاده الناطور ، مرجع سابق ص ٧٢ ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، الجزء الثالث ، ص ٢٠ . دكتور ابراهيم بيضون ، تكون الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول ، دار اقرأ ، بيروت ١٩٨٥ ص ٣٥ - ٨٢ .



17



١٠

877-761-118

في رواية ملايكة الجبل
وكانت القارة
مجاورة البر

1870

المصدر : الدكتور أحمد قانور ،
الدكتور شحاته النواطر ، تاريخ
الدولة العربية حتى نهاية الفزو
الغزلي ، مطبعة الخالد ، عمان
١٩٨٢ .

القسم الثانى من المرتدين فقد ظلوا على اسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة ، وقد اختلف بعض الصحابة مع أبى بكر فى وجوب قتال القسم الثانى كالقسم الأول ، فقال أبو بكر الصديق : « والله لأقاتلن هؤلاء كما أقاتلن أولئك ، لأن تعطيل الزكاة كتعطيل الصلاة وسائر شعائر الاسلام » ، قال عمر : وكيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا فى مالهم وأنفسهم . فقال أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عناقا أو عقال بعير كانوا ليؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم على مثلها ، وقال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت أن قد شرح الله صدرى لما قال أبو بكر فعلمت أنه الحق ، ثم أن أبا بكر شمر لقتال هؤلاء المرتدين والقضاء على هذه السلطة .

بل أن أبا بكر الصديق قد واجه مشكلة من ادعى النبوة ، حيث بدأت هذه الظاهرة فى أواخر حياة الرسول ﷺ ثم قويت بعد وفاته ، وكان من أشد أولئك المتبئين خطرا مسيلمة بن حبيب بن حنيفة الذى اسلم ثم ارتد وادعى النبوة ، وكتب الى النبى ﷺ يقول أنه قد أوحى اليه ، وأن جبريل نزل عليهم بخبره بأن الله قد قاسمه النبوة مع محمد ، وشاطره الملك والسيادة فى جزيرة العرب ، وقد أطلق عليه الرسول ﷺ اسم مسيلمة الكذاب وكتب اليه كتابا نصه : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الارض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . غير أن مسيلمة استمر فى ضلاله .

ومن الذين أدعوا النبوة أيضا خبر الأسود العنسي الملقب بذي الخمار ،
الذى أسلم ثم ارتد عن الاسلام فى زمن النبى ﷺ ، ثم ادعى النبوة
واستهوى بضلالاته نفرا من عوام العرب فتملك أكثر جنوبي بلاد العرب ،
وبلغت أخباره الى رسول الله ﷺ ، فكتب الى من بقى على الاسلام من
أهل اليمن يأمرهم بمحاربته .

كما ادعى النبوة أيضا خبر طليحة بن خويلد الأسدى وتبعه بعض العرب
واليهود فى حياة النبى ﷺ الذى بعث اليه بضرار ابن الأزور لمقاتلته والقضاء
على فتنه .

وقد استجاب المسلمون الى رأى أبى بكر الصديق بشأن مقاتلة هؤلاء
المرتدين ، وتكون أحد عشر جيشا قاد كل منها أبرز أبطال المسلمين مثل
خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وشرجيل بن
حسنة وغيرهم ^(١٥) .

أما المعركة الحاسمة التى أعادت الاستقرار فى شبه الجزيرة فكانت
معركة « عقرباء » فى طرف اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ، حيث كان
خالد ابن الوليد قائد هذه المعركة وخاض أعنف قتال أنهى به على أسطورة
مسيلمة وتراجعت القبائل المرتدة واستسلمت ، وقد أظهرت هذه المعركة
المهارة العسكرية لخالد بن الوليد والذى كان ثمة مهمة أخرى لاتزال
بانتصاره ، وهى القضاء على حركة البحرين ^(١٦) وانقاذ أحد القادة

(١٥) القلقشندي ، نهاية الأدب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الايبارى ص ٦٨ -

٧٠ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(١٦) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

المسلمين الذى حوصر فى حاضرتها هجر ، فلم يكذ خالد يصل الى البحرين حتى سقطت بالقليل من الجهد وكانت هذه المعركة آخر مهمات خالد بن الوليد فى شبه الجزيرة ، فى وقت كادت ثورة القبائل أن تنتهى ، فتوجه خالد صوب العراق ليعلن بدء الأعمال العسكرية الموسعة وراء الحدود استجابة لأوامر أبى بكر الصديق الذى نجح فى قمع حركة القبائل وهو ما كان بمثابة انتصار مؤزر للعقيدة الاسلامية التى شكلت أحد أهم الحوافز لاندفاع المسلمين بكل ثقة وراء حدود شبه الجزيرة .

الفصل الثاني
عن أبي بكر الصديق
١٠ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م

- فتح العراق وفارس
- الدروس المستفادة .
- فتح الشام .

الفصل الثانى

عصر أبو بكر الصديق

(١٠ - ١٣ هـ) (٦٣٢ - ٦٣٤ م)

فتح العراق وفارس :

عزم أبو بكر الصديق على تكملة ما بدأه النبى الكريم ﷺ بشأن نشر الاسلام وذلك بعد أن تم له القضاء على فتنة الردة وكانت مملكتا الفرس والروم أعظم الممالك المجاورة للعرب فى آسيا ، وقد سبقت الاشارة أن كسرى امبراطور الفرس عندما تلقى كتاب الرسول ﷺ قام بتمزيقه استكبارا ، وبعث الى عامله باليمن كى يرسل الى رسول الله ﷺ برجلين قوين يأتیان به ، فتوجهها اليه ، ولما دخلا المدينة ، وكلمهما رسول الله ﷺ ، دعاهما الى الاسلام وأوضح لهما العاقبة الوخيمة لظلم كسرى وطفغيانه فى الأرض وقد أسلم الرجلان من صدق ^(١) قول الرسول ﷺ ثم أسلم حاكم اليمن ، وكانت اليمن أول بلاد خاضعة للفرس دخلت تحت لواء الاسلام ، ثم تبعتها بلاد البحرين وبلاد عمان ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الفرس .

وقد كلف أبو بكر الصديق خالد بن الوليد ليضع نواة الحجر الأساسى للبناء الاسلامى فى بلاد العراق وديار فارس ويرفع راية الاسلام فى هذه

(١) حيث ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى قد انتقم من كسرى وسلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فلما تولى شيرويه حكم الفرس بعث الى عامله باليمن أن لا يتعرض بأذى للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد اسلم باذان فأبهاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى امارته .

الديار العريقة فى الحضارة والعلم والتى أمعنت فى الوثنية والجهالة فى نفس الوقت ، وكتب أبو بكر الصديق الى خالد بن الوليد فى شهر المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة أن يستعد وجيشه للتوجه من اليمامة الى بلاد العراق ، وقد نفذ خالد بن الوليد أوامر الخليفة أبى بكر الصديق ودخل بلاد العراق من أسفلها ، وفى نفس الوقت كتب الصديق الى عياض بن غنم أن يسير الى العراق فيدخلها من أعلاها ، وأيهما يسبق الى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، وكانت الحيرة عاصمة عرب الجزيرة ، لكنها كان يسودها النفوذ الأعجمى ، وكان هدف خالد بن الوليد أن يقضى على هذا النفوذ ، كما كتب الصديق الى حرملة والمثنى بن حارثة ومن معهما الانضمام تحت قيادة خالد ابن الوليد ، وكان عدد الجند ثمانية عشر ألفا ، وتمت المواجهة مع الفرس فى عدة معارك .

كانت معركة ذات السلاسل أهم المعارك^(٢) التى خاضها خالد بن الوليد، وسميت كذلك لأن الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة ، وكان النصر حليف المسلمين لاستبسالهم وثباتهم حيث استولوا على ميناء « الأبله » الذى يقع على الخليج العربى ، وتسلم المسلمون زمام

(٢) راجع تفصيل هذه المعارك فى : الطبرى حيث اجمل هذه المعارك فى معركة ذات السلاسل، ومعركة المدار (الثنى) ، ومعركة الولجة ، وفتح اليس وأهيشيا . وفتح الحيرة والقصور وفتح السواد وفتح الانبار ثم وقعة عين التمر ومعارك دومة الجندل والحصيد وختالس ، والمصيخ والثنى والفراض وسائر الجزيرة وهى تخوم الشام والعراق ، ولما أقم الله لخالد فوزه جعل على الجيش عاصم بن عمرو ، ومضى للحج حيث أتمه ورجع مسرعا الى الحيرة فلتقى كتابا من الصديق بأمره بالتوجه الى الشام . وقد أوردنا فى المتن تبسيطا لهذه المعارك على نحو يخدم أهداف هذه الدراسة .

الأمر في هذه النواحي ، ويذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ أن
الفلاحين المجوس قد عوملوا كالنصارى حيث فرضت عليهم الجزية .

ثم توجه خالد بن الوليد الى الشام تنفيذا لتعليمات الصديق بعد أن ترك
نصف جيشه بقيادة المثني وأخذ النصف الآخر لمساعدة جيوش المسلمين في
اليرموك على نحو ما سيتم تفصيله في موضع لاحق من الدراسة .

أما الموقعة الثانية فكانت موقعة الجسر التي وقعت في عهد الخليفة عمر
بن الخطاب الذي أرسل أبا عبيد بن عمر الثقفي ، وكان مع أبي عبيد
(سليط بن قيس الأنصاري) وكتب أمير المؤمنين عمر الى المثني بن حارثة
أن يكون في طاعة أبي عبيد ، وكان قائد جيش الفرس رستم وهو من أعظم
قادة الفرس ووقعت هذه المعركة في السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وسميت
بموقعة الجسر لأن المسلمين عبروا جسرا عند الحيرة والتفوا حول جيش^(٣)
الفرس :

وفي السنة الخامسة عشرة للهجرة تقابل جيش المسلمين بقيادة جرير ابن
عبد الله مع المثني بن حارثة مع جيش الفرس بقيادة مهران ، وانتصر
المسلمون في هذه المعركة ، وقتل مهران وكثير ممن معه .

ولعل معركة القادسية التي وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة أيضا
هي من أهم المعارك التي استأثرت باهتمام المؤرخين وهو ما يستدعي وقفة

(٣) وقد قتل في هذه المعركة كل من أبي عبيد بن عمر الثقفي ، وسليط بن قيس الأنصاري ،

راجع في تفصيل ذلك : البلذري - أحمد بن يحيى بن جابر - التوفى سنة ٢٧٩هـ ، فتوح

البلدان ، تحقيق عبد الله وعمر الطباطبائي ١٩٥٧م ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، دكتور أحمد قاعود ،

دكتور شحادة الناطور ص ٧٧ .

للتفسير . فقد كتب المسلمون فى العراق الى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمونه كثرة من تجمع لهم من أهل فارس ، ويسألونه المدد ، فوجه سعد ابن أبى وقاص الى العراق ، فأقام فى أماكن عديدة • الثعلبية - العذيب وغيرها) وكان المثنى مريضا ، فأشار عليه أن يحارب العدو بين القادسية والعذيب ، وترددت الرسل بين سعد وقائد الفرس رستم لعله يصل الى اتفاق يمنع قيام الحرب بينهما ، ولكن الجهود فشلت ونشبت المعركة بين الجيشين الاسلامى والفارسى ، وكان جيش المسلمين لايزيد عن ثمانية آلاف بقيادة سعد بن أبى وقاص ، فى حين تكون جيش الفرس من مائة وعشرين ألف بقيادة رستم ، واستمرت المعركة أياما ثلاثة ، وانتصر المسلمون وقتل رستم وفر عشرات الألوف من جنود الفرس وغنم المسلمون أموالا كثيرة .

ثم تبع سعد بن أبى وقاص الفرس الى جلواء فى السنة السادسة عشرة للهجرة ، وأوقع بهم وأسر وقتل عددا كبيرا من الفرس ، وأسلم الكثير من الفرس فأقرهم الخليفة عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ، وكتب سعد بن أبى وقاص الى الخليفة عمر يهثه بالنصر المؤزر للمسلمين ، ورد عليه عمر قائلا : « قف مكانك ، واقنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ، ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بينى وبينهم بحرا »^(٤) ، وقد نفذ سعد بن أبى وقاص أوامر الخليفة عمر واتخذ الكوفة مدينة للمسلمين وأسس بها المسجد الجامع .

وصل سعد بن أبى وقاص الى عاصمة العراق (طيفون) بعد أن توغل

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الرابع ص ١٨٨ - ١٩٠ .

داخل البلاد ، وقد أطلق العرب على العاصمة اسم « المدائن » وكانوا قد حاصروها شهرين ثم استولوا عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ، واتخذ سعد بن أبي وقاص من « المدائن » قاعدة للأعمال الحربية في العراق ^(٥) .

وأخيرا كانت معركة نهاوند بمثابة آخر محاولة للفرس في حروبهم مع المسلمين ، ويطلق المؤرخون على هذه المعركة « فتح الفتوح » ، حيث استعد الفرس بجيش قوامه مئة ألف مقاتل وقيدوا جنودهم بالسلاسل خوفا من الفرار ، أما قائد المسلمين النعمان بن مقرن فكان الخليفة عمر بن الخطاب قد ولاء سنة واحد وعشرين هجرية ، وقد استمات الفرس في القتال غير أن النصر كان حليف المسلمين ، وبعد الاستيلاء على نهاوند سار جيش المسلمين الى الأهواز وفتحها سنة اثنين وعشرين للهجرة ، ثم فتح قم وقاشان وأصبهان التي أدى أهلها الجزية ، وعقدت « حرجان » صلحا مع المسلمين ، وحذا حاكم طبرستان حذو « حرجان » . وكان غزو المغيرة ابن شعبة والى الكوفة لأذربيجان وفتحها وفرض الخراج عليها ، ثم قام المسلمون بغزو البلاد المحيطة بأرمينية وأرمينية وفتحوا معظمها ، ويذكر المؤرخون أن المسلمين غزوا بلاد الترك لكن اقدمهم لم تتوطد فيها . وزالت الدولة الفارسية ^(٦) سنة واحد وثلاثين للهجرة بعد مصرع امبراطورها يزيدجرد في عهد الخليفة عثمان بن عفان حيث توطدت اقدام المسلمين في بلاد فارس رغم أحداث التمرد من جانب الفرس والتي قضى عليها تماما والى البصرة عبد الله بن عامر سنة ثلاثين للهجرة ، كما أصدر الخليفة عثمان بن عفان

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الرابع ص ص ٢٩١ - ٢٩٤ .

أوامره الى معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام باستعادة اقليم أرمينية ،
وانتصرت جيوش المسلمين على جيوش الروم ، وصولا الى عهد الخليفة
على بن أبي طالب والذي لم تتم فتوح تذكر في عهده لانشغاله بالفتن
الداخلية ، وظلت البلاد المفتوحة على أوضاعها السابقة في عهد الخليفة
عثمان بن عفان .

– الدروس المستفادة :

الواقع أن هناك العديد من الدروس المستفادة والمستخلصة من معارك فتح
العراق والجهود الرائدة للخلفاء الراشدين والقادة العسكريين الذين رفعوا راية
الاسلام في هذا الجزء من قارة آسيا ، ويمكن أجمال هذه الدروس فيما
يأتى وفقا لرؤى العديد من الباحثين :

أولا :

ان أهمية الانتصارات الاسلامية فى العراق تأتى من كونها شقت الطريق
أمام العرب المسلمين لتثبيت أقدامهم فى العراق ، وكانت بلاد العراق
بذلك بداية تجارب المسلمين العسكرية العظيمة خارج نطاق شبه جزيرة
العرب .

ثانيا :

تعتبر فتوح العراق . فتوحا خاطفة ، فاز بها المسلمون بفضل العزيمة
القوية والارادة الصلبة لخالد بن الوليد ، فقد كان يقود الجيوش ، ويتقدمها
بنفسه ، ويبارز خصومه ، فيفتك بهم ، ويشتت جموعهم ، وتجدر الاشارة
أن كثيرا من العرب كانوا قد زاروا العراق فى الجاهلية بهدف التجارة ،

وكان العرب المقيمون فيه من بنى تغلب ، وبكر ، وربيعة ذوى صلات قوية بعرب نجد والحجاز ، ومع ذلك فلم يقف أهل العراق مع عرب الحجاز ونجد فى مواجهة الفرس لأن الفرس تمكنوا من اجتذاب سكان العراق الى جانبهم ، غير أن الحليفين قد انكسرا أمام الفتح الاسلامى الكبير .

ثالثا :

كانت الحيرة عاصمة البلاد السابقة تدور فى فلك التبعية الفارسية ، وقد كانت الهدف المباشر لخالد بن الوليد حيث بدأ المعركة فور وصوله ، ولعل ما أورده الطبرى وابن الأثير من صفات خالد بن الوليد وألمعيته العسكرية الفذة خير دليل على انطلق الاسلام فى هذه البلاد بدءا^(٧) من موقعة « اليس » - وهى قرية من قرى الأنبار فى أول العراق من ناحية البديّة - ومرورا بوقعة الولجة - فى أرض كسكر - التى شهدت قتالا عنيفا - حسب رؤية الطبرى ثم أمفيشيا وأخير « فرات بادقلى » - التى مهدت الطريق الى الحيرة ، حيث سارع زعمائها الى خالد فصالحوه على أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس ، وكان اتفاق « الحيرة » النموذج العام للعلاقات السياسية الاسلامية مع خصوم المسلمين ، بل أن هذا الاتفاق قد تحول الى وثيقة فى الاتفاقيات العسكرية وأسسها بشأن التعامل مع البلاد المفتوحة وشعوبها ، فقد نص كتاب الاتفاق بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة ، « ان خليفة رسول الله أمرنى أن أسير بعد منصرفى من أهل اليمامة الى أهل العراق من العرب والعجم ، بأن أدعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليه السلام ، وأبشرهم بالجنة ، وأنذرهم من النار ، فان

(٧) والواقع أنه قد سبق هذه المعركة معارك أخرى منها المنار - أى منعطف النهر - كما يسميه

الطبرى - أو معركة « الثنى » كما يسميها ابن الأثير .

أجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين . وانى أنهيت الى الحيرة ، فخرج الى أياس بن قبيصة الطائي في أناس من أهل الحيرة ، من رؤسائهم ، وانى دعوتهم الى الله ورسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا لحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه من غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية ... فصالحونى على ستين ألف ، وشرطت عليهم عهد الله مثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والانجيل ، أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم ، لا من العرب ، ولا من العجم ، فان هم خالفوا ، فلا ذمة لهم ، ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ورعوه ، وأدوه الى المسلمين ، فلهم ما للمعاهدة ، وعلينا المنع لهم ، فان فتح الله علينا ، فهم على دينهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق ... ^(٨) .

رابعاً :

انعكست التطورات السياسية فى الخلافة الراشدة ، وخاصة بعد وفاة أبى بكر وبيعة عمر بن الخطاب على القيادات العسكرية فى مختلف محاور القتال وخاصة فى العراق ، حيث أمر الخليفة عمر بن الخطاب بعزل القائدين الكبيرين ، المتنى وخالد ، تحت تأثير أسباب قيل الكثير ^(٩) فى

(٨) أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ ص ص ٨٤ - ٨٦ .

(٩) راجع فى تفصيل ذلك : الازدى ، محمد بن عبد الله الازدى البصرى ، المتوفى سنة ١٦٥ هـ ، تاريخ فتوح الشام - تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة . ولعل من أفضل الدراسات العربية الحديثة فى اطار المنهج التاريخى والمنهج التحليلى راجع : الدكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ص ٤٣ - ٥٨ .

تعليلها ، ومن الأرجح صحة رأى القائل ان العلاقة كانت غير ودية بين الخليفة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد قبل تولي الأول زمام الخلافة ، حيث يتوقف المؤرخون المحدثون عند قول خالد بن الوليد وقد أستاذ من قرار نقله الى الشام - « هذا عمل عمر نفس على أن يفتح الله على يدي العراق » - والمتبع لأسلوب الخليفة الجديد ونهجه في الحكم - كما لاحظ بيضون أن شخصيته القوية طغت على الدولة ، وأن ادارته عملت على تقوية « المؤسسة » على حساب الزعامات السياسية والقبلية ، فضلا عن القيادات العسكرية ، التي كانت عرضة للتغيير في عهده كونها تمتلك عناصر البروز والتألق من خلال ما صنعتته من الانتصارات الباهرة .

خامسا :

كان سعد بن أبي وقاص أحد القادة التاريخيين في الاسلام ، والصحابة المقربين من النبي صلى الله عليه وسلم ، والمشاركين في العمليات العسكرية الأولى بين المدينة ومكة ، وكانت كفاءته وراء اختياره قائدا للجبهة العراقية ، كما كان لذلك دلالة من الخلافة الراشدة على مدى الاهتمام بهذه الجبهة ، مقياسا الى الأسلحة المعروفة التي استخدمها المسلمون ، كان الفرس متفوقين بالأدوات الحربية المتطورة ، غير أن قناعة المسلمين بعقيدتهم القتالية الاسلامية قد مكنتهم من تحقيق النصر على أعدائهم من الفرس الذين انحدرت قيم مجتمعهم بما فيها عقيدتهم التي أفرغت من محتوياتها الاصلحية لتخدم فقط مصالح الفئة الحاكمة ، المرتبطة عضويا بمصالح كبار رجال الدين (الموابذة) .

سادسا :

قبل أن تزحف الجيوش الاسلامية الى العراق ، كانت الأزمات تأخذ في التفاقم في الامبراطورية الفارسية ، وبدأ الارتباك يسيطر على الموقف الفارسي في حين ارتفعت معنويات جيش المسلمين ، وفي « القادسية » التي عرفت بأنها « باب فارس » ، اتخذ سعد بن أبي وقاص مركز قيادته ، وسجل التاريخ نصرا جديدا لقوات المسلمين التي اندفعت بعد ذلك تجاه الشرق مستهدفة « المدائن » ومستفيدة من عنصر الوقت بعد أن حاذت شواطئ الخليج وذلك باقامة مراكز دائمة للاعاشة وتسهيل التحركات العسكرية وحماية الخطوط الخلفية ، وكان عزل سعد بن أبي وقاص واختيار النعمان بن مقرن المزني أحد القادة البارزين في العراق بمثابة تأكيد جديد لموقف الخليفة عمر بن الخطاب من القيادات العسكرية بشأن التوجس من فرص التألق والشهرة التي تجنيها طبيعة دور هذه القيادات ، مما كان يدفعه الى معالجة هذا بالتغيير ، والحيولة دون تحقيق انتصارات متكررة لقائد واحد .

سابعا :

بعد انتصار المسلمين في « نهاوند » استمرت قوات الزحف الإسلامي المظفر في التوغل في عمق الامبراطورية الفارسية المتهالكة ، حيث سقطت الاقاليم والمدن الهامة التي أصبحت جزءا من الدولة الاسلامية مثل أصبهان وهمذان والري وخراسان وغيرها ، وقد ظل « يزدجرد » آخر أكاسرة الفرس يعيش سنوات متخفيا على حدود مملكته الضائعة ، وسعى سرا الى ملك الترك المعروف بالخابقان من أجل مده بالمساعدة لمقاومة المسلمين ، غير أن هذا الأخير لم يشجعه ، فلجأ الى سمرقند ليواجه مؤامرة على يد خلفائه

انتهت بقتله .

فتوح الشام :

كانت بلاد الشام تحت سيطرة الدولة البيزنطية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية ، وكان الربع الأول من القرن السابع الميلادي فترة مشثومة على بلاد الشام ، لأنها أصبحت ميدانا للحروب بين الفرس والروم ، وفي سنة ٦٢٨م عقد (شيرويه) امبراطور الفرس صلحا مع (هرقل) امبراطور الروم الذي دخل القدس وطرد جميع من فيها من اليهود وأعاد للبلاد بعض هدوئها ، غير أنه انغمس في اللهو والعسف ، وعاد الناس يقاصون من حكمه ، وفي هذه الفترة توالى أنباء الزحف الاسلامي في جنوب بلاد الشام منذ أواخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان أول من فكر في فتح الشام ، وقد سبقت الإشارة الى ما كتبه صلى الله عليه وسلم الى امراء عرب الشام يدعوهم الى الاسلام ^(١٠) .

وكانت « مؤته » - أول مدينة سورية متاخمة لجزيرة العرب - وقد بعث الرسول ﷺ زيد بن حارثة الى « مؤته » لمواجهة جيش « هرقل » ، ورغم تفوق جيش الروم ، الا أن المسلمين أظهروا جرأة وشجاعة فائقتين ، وقتل زيد وهو يحمل الراية التي عقدها رسول الله ﷺ ، فتناولها جعفر بن أبي طالب ، وقاتل عنها حتى قتل هو الآخر ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة وقاتل عنها حتى قتل ، فأخذ الراية ثابت بن أرقم العجلاني قائلا ^(١١) : «يامعشر الناس ، اصطلحوا على رجل منكم ، قال : ما أنا بفاعل ،

(١٠) الطبري ، الجزء الثالث ، ص ٩٥ - ١١٥ .

(١١) نقلا عن دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الأول ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

فأصطلح الناس على خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ، فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ، ثم انحاز ، وتحيز عنه ، حتى انصرف الناس ، وانكفأ راجعا ، وكانت براعته هذه سببا فى انقاذ جيش المسلمين ، ولكن الله سلم ، ولما رجع الجيش الى المدينة تلقاه الرسول ﷺ ، وأنشد الصبيان ، فقال الرسول ﷺ خذوا الصبيان ، وأعطوني ابن جعفر (رضى الله عنه) ، فأتوا بعبد الله بن جعفر ، فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون التراب على الجيش ، ويقولون : يافرار... يافرار . فقال رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار فى سبيل الله أن شاء الله .

وتذكر المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب يستقر بعد فتح مكة والطائف ، حتى أخذ يعد العدة من جديد لغزو الشام ، فاستنفر الناس لقتال الروم ، فلبوا دعوته ^(١٢) ، وانفق كبار أغنياء الصحابة أموالا جساما ، فلم ينفق أحد أعظم مما أنفقته عثمان بن عفان ، وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وسار الرسول ﷺ فى ثلاثين ألف مقاتل ، فلما أراح الجند فى « تبوك » ، توافدت عليه أمراء النواحي العربية ، وأولهم « يحته بن رؤبة » صاحب « أيلة » فصالح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، ثم جاء أهل « جرباء » ، و « أذرح » فأعطوه الجزية .

(١٢) يقول الطبرى ان ذلك حدث فى « زمن عسرة من الناس » . وشدة من الحر ، وجذب من البلاد موحين طابت الثمار ، وأحببت الظلال ، فالتاس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم . ولكن ذلك كله لم يمتق الناس عن تلبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الطبرى الجزء الثالث ، ص ٢٤٣ .

بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد الى أكيدر بن عبد الله الكندي أمير «دومة الجندل» ، فلما قدم عليه صالحه ، وجاء به الى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه وخلقى سبيله ، ولم يقم الرسول ﷺ فى تبوك الا بضعة عشر ليلة ، قفل بعدها الى المدينة ، وبعث بأسامة بن زيد الى الشام ، ولما انتقل الرسول ﷺ الى الرقيق الأعلى ، واستخلف أبو بكر ، وأنقذ جيش أسامة ، فدخل الشام ، ونفذ ما كان أمره به الرسول ﷺ ، ثم رجع منتصرا ، وغانما .

أبو بكر فى الشام :

يذكر المؤرخون أن أبا بكر أعد أربعة جيوش لفتح الشام فى أول^(١٣) السنة الثالثة عشرة للهجرة وذلك بعد أن انتهى من حروب الردة حيث جمع المقاتلين من جميع أجزاء الجزيرة العربية ، وعقد الألوية الأربعة من الأمراء هم : أبو عبيدة بن عامر بن الجراح ويتجه الى حمص وله القيادة العامة ، ويزيد بن أبى سفيان ويتجه الى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ويتجه الى الأردن ، ثم عمرو بن العاص ويتجه الى فلسطين .

سارت جيوش المسلمين نحو سورية ، وكان أول فتح تم على أيديهم هو فتح يزيد لتبوك ، ثم خلفها وراءه وسار حتى التلال التى تشرف على «وادي عربة» ، فعلم بمقدمه قائد فلسطين «البطريق سرجيوس» ، فاستعد للقاءه ، والتقى الجيشان عند «وادي عربة» ، وانتصر يزيد ، واضطر «سرجيوس» الى الانسحاب الى غزة ، فلاحق به المسلمون ، وجرت بين الطرفين معركة

(١٣) يرى فريق من المستشرقين أن فتوح الشام بدأت فى أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة ، راجع

دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ٦٠ .

كبرى^(١٤) ، قتل فيها سرجيوس ، وكان المسلمون يقضون على الجيش البيزنطى الذى بلغت هزائمه الى «هرقل» ، فأمر أخاه أمير حمص ، كما أمر بعض القادة بحماية القدس ، ومن الأرجح أن عدم وجود خطة معينة للعرب فى فتوح الشام - كما يرى^(١٥) البعض - قد جعل البيزنطيين يضطربون فى الاستعداد لهم .

ودارت أكبر المعارك بين الطرفين «معركة أجنادين» ، فقد حشد البيزنطيون جيشهم لمواجهة المسلمين الذين أخذوا يهاجمون جنوبى فلسطين ، وتذكر المصادر أن عمرو بن العاص كتب الى الصديق يستنجده ، فأجابه بأن يترك القيادة العراقية للمثنى بن حارثة ويتوجه الى الشام ، وتختلف المصادر حول موعد سفر خالد بن الوليد أو عدد الجيش الذى سار به من العراق الى الشام ، أو الطريق التى سلكها خالد ، ولما وصل خالد الى الشام التقى بيزيد وشرحبيل ، وأبى عبيدة فعاونهم على فتح «بصرى» ، وكانت أول مدن الشام التى فتحت فى عهد أبى بكر ، ثم اتجه الجميع الى الجنوب لمساعدة عمرو بن العاص فى «وادي عربة» ، فلما علم البيزنطيون بقدوم جيش المسلمين ، قصدوا «أجنادين» ، وتقع بين «الرملة» و«جيرين» ، وكان البيزنطيون قد جمعوا فيها قواتهم بقيادة «تيودوس» شقيق الامبراطور «هرقل» ، وكانت المواجهة العسكرية فى جمادى الأولى من السنة الثالثة عشرة للهجرة (يوليو ٦٣٤م) ، وانتصر المسلمون على قوات بيزنطة ، التى اضطرت الى التراجع الى القوس ، وأخذت تعيد جمع

(١٤) وذلك فى شهر فبراير سنة ٦٣٤ م .

(١٥) فذلك للمرونة التى اتبعها قادة الجيوش الاسلامية حيث ارتاد كل قائد المنطقة التى وجدها

صالحة لغزوه ، المرجع السابق ص ٦١

شتاتها استعدادا لقتال المسلمين . ويذكر الطبري ^(١٦) أن خالد بن الوليد خطب في الناس قائلا : « ان هذا يوم له ما بعده ، ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة ... واعملوا فيما لم تؤمروا به ، وبالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة » ، فقالوا له : وما الرأي ؟ قال : « الله ... الله » ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقص منه ، ان دان لأحد من أمرء الجنود ، ولا يزيد عليه ان دانوا منه ، ... هلموا فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم ، لم نزل نردهم ، وان هزمونا ، لم نفلح بعدها ، فهلموا ، فلنتعاون الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعوني اليكم اليوم .. » .

رتب خالد الجيش الاسلامي ، وكان عدده أربعة وعشرين ^(١٧) ألفا ، جيش الروم فبلغ عدده ثمانون ألفا بقيادة ماهان القائد الأرمني ، وجرى اتصال بين خالد وماهان في مكان يسمى الواقعة بهدف الصلح ، الا أن هذا الاتصال لم يصل الى نتيجة . وقد جعل خالد أبا عبيدة في القلب ، وعمر بن العاص على الميمنة ، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة ، وقد لحقت الهزائم بجيش الروم ، وكتب النصر للمسلمين ، ولما سمع هرقل ما حدث في اليرموك هرب الى القسطنطينية قائلا : « عليك السلام يا سورية ... ونعم البلد » (البلاذري - فتوح البلدان ص

(١٦) الطبري ، الجزء الرابع ص ٣٢ - ٣٥ .

(١٧) ابن الأثير . (عز الدين أبو الحسين على بن أبي الكرم الشيباني ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ) ،

الكامل في التاريخ ، الجزء الثاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت (١٣٨١هـ / ١٩٦٧م) ص ص

٤٠٨ - ٤١٠ .

وتجدر الإشارة الى أنه خلال نشوب المعارك واحتدامها جاء صاحب البريد من المدينة ، فلما سألوه عن الخبر ، لم يجد الا السلامة ، والحقيقة أنه جاء بنعى أبا بكر الصديق ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وعزل خالد ابن الوليد ، وتأمير أبي عبيدة بن الجراح ولما أبلغ صاحب البريد خالدا ذلك ، وأعطاه كتاب عمر ، فان خالدا لم يقرأ الكتاب حتى انتهت معركة اليرموك ، وفتحت دمشق ، وتختلف المصادر حول ذلك حيث تذكر رواية أخرى أن خالدا أخذ كتاب عمر بن الخطاب ، وجعله فى كفاته ، وخاف أن هو أظهره ، أن تنتشر الفوضى وتحدث الفتنة ، ثم أن خالدا قد استبسل فى القتال حتى تضعضع الروم ، وتولى خالد بنفسه قلب جيشه حتى اقتحم جند العدو وصفوفهم ، وصار بين خيلهم ، فهرب الخيالة الروم الى الصحراء ، أما الرجال « المشاة » فقد سقطوا بين أيدي المسلمين ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة .

الفصل الثالث

عمر وعمر بن الخطاب

١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م

- رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية .

- من فتوح العراق الى فتوح ايران .

- فتوح السند والبنجاب .

- تقويم .

الفصل الثالث

عصر عمر بن الخطاب

- رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية :

كان أول عمل دولي - على حد قول أحد المؤرخين ^(١) المحدثين - قام به عمر بن الخطاب أن كتب الى أبي عبيدة بن الجراح يوليه جند خالد بن الوليد في الشام قائلا : « أوصيك بتقوى الله ... وقد استعملتك على جند خالد ابن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لاتقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولاتنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولاتبث سرية الا في كشف من الناس ، وإياك والقاء المسلمين في الهلكة ... وأغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها .. » ^(٢) .

ثم كتب عمر بن الخطاب مرة ثانية الى أبي عبيدة بعد أن طلب الأخير استشارته عندما تحالف أهل دمشق مع أهل حمص لمواجهة جيش المسلمين ، فرد عمر قائلا : « أما بعد ، فأبدأوا بدمشق ، فانها حصن الشام ، واشغلوا عنكم أهل « فحل » ، بخيل تكون بازائهم ، وأهل فلسطين ، وأهل حمص ، فان فتحها الله قبل دمشق ، فذاك الذي تحب ، وأن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزله بدمشق من يمسك بها .. ودع شرحبيل وعمره ، وأخلهما بالأردن وفلسطين .. » .

وما قرأ أبو عبيدة هذا الكتاب حتى سار الى دمشق وحاصرها ، وضيق

(١) دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

(٢) نقلا عن الطبري ، الجزء الرابع ص ٢١٥١ .

الخناق على أهلها ، وكتب الله النصر للمسلمين على نحو ما سبقت الإشارة إليه . غير أن المصادر تختلف في كيفية وقوع فتح دمشق ، فهناك من المؤرخين من يروى أن نصف المدينة فتح صلحا على يد أبي عبيدة بن الجراح ، والنصف الآخر فتح حربا ، وأن خالد بن الوليد هو الذى دخل حربا ، فى حين يروى البلاذرى أن بعض الرهبان خابروا قومه ، واتفقوا مع خالد على أن يفتحوا له باب المدينة الشرقى ، وفتحوه ، ودخل المسلمون ، فى حين دخل أبو عبيدة قسرا من باب الجابية ، ويؤيد أسعد^(٣) طلس أن مدينة دمشق قد فتحت صلحا من جانب ، وأن جزءا منها قد أخذ حربا ، ويستدل على ذلك بأمر قسمة الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية) بين المسلمين وأهل المدينة من ثنايا نص الكتاب الذى كتبه أبو عبيدة على لسان أهل دمشق نقلا عن أبي القاسم بن عساكر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح من أمام دمشق ، وأرضها ، وأرض الشام عن الأعاجم ، أنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا ، وأهل ملتنا ، وأنا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا تحدث فى مدينة دمشق ، ولا فيما حولها كنيسة ، ولا ديرا ، ولا قلاية ، ولا صومعة راهب ، ولا تجدد ماتهدم من كنائسنا ولا شيئا مما كان فى خطط المسلمين ولا تمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار ... ولا تضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيا فى جوف كنائسنا ، ولا تظهر الصليب عليها ، ولا ترفع أصواتنا فى صلاتنا وقراءتنا فى كنائسنا ، ولا نخرج صليبا ولا كتابنا .. ولا نبيع الخمر .. ولا نرغب مسلما فى ديننا ، ولا ندعوا أحدا اليه .. ولا نمنع أحدا من قرابتنا أن

(٣) قارن : دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ١١٤ نقلا عن الطبرى ، الجزء الرابع ، ص ٥٩ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ص ص ١٣٥ - ١٤٣ . ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ص ص ٤١٠ - ٤٣٤ .

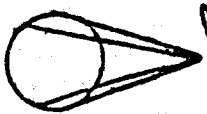
نرغب مسلما فى ديننا ، ولا ندعوا أحدا اليه ... ول نبيع أحدا من قرابتنا أن أراد الدخول فى الاسلام .. ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نجعله فى بيوتنا .. وان نوقر المسلمين فى مجالسهم .. وعلينا لانشتم مسلما ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده .. على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا ، وأهل ملتنا ، فأقرونا فى بلادكم التى ورثكم الله اياها ، شهد الله على ما شرطنا على أنفسنا ، وكفى بالله شهيدا^(٤) .

ولما أتم خالد فتح قنسرين وحلب فقد عزم على فتح سائر مدن الشمال ومنها أنطاكية التى كانت حصن المسيحية ، وتوجهت الجيوش نحو مدن الجزيرة ، ففتحت الرها ونصيبين وبلاد أرمينية وتم الاتصال بين فتوح الشام وفتوح العراق ، أما عمرو بن العاص قائد الجيش الجنوبى الى فلسطين ومعه شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان فقد سارا كلاهما معا عبر البلقاء والأردن ، على أن يتخذ شرحبيل معسكره الى الشرق من النهر ، بينما يتابع يزيد بن أبى سفيان مسيرته نحو دمشق . وقد استولى الجيش الجنوبى على بيسان والأردن ثم اتجه الى فلسطين وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب الى معاوية بن أبى سفيان قائلا : « أما بعد ، فأنى قد وليتك قيسارية ، فسر اليها واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا اله الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير » .

وتذكر المصادر أن معاوية بن أبى سفيان كان قد سار الى قيسارية - وكانت من أعظم الثغور - فحاصرها ، واشتد القتال حولها ، وأبلى

(٤) ابن عساکر . (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعى المتوفى سنة ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق شكرى فيصل وآخرين ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الجزء الأول ، ص ١٤٥ - ١٥٠ .

الشمال



خريطة

التي هي من الرسم
هذا المبنى، ويذكر رومية للملح

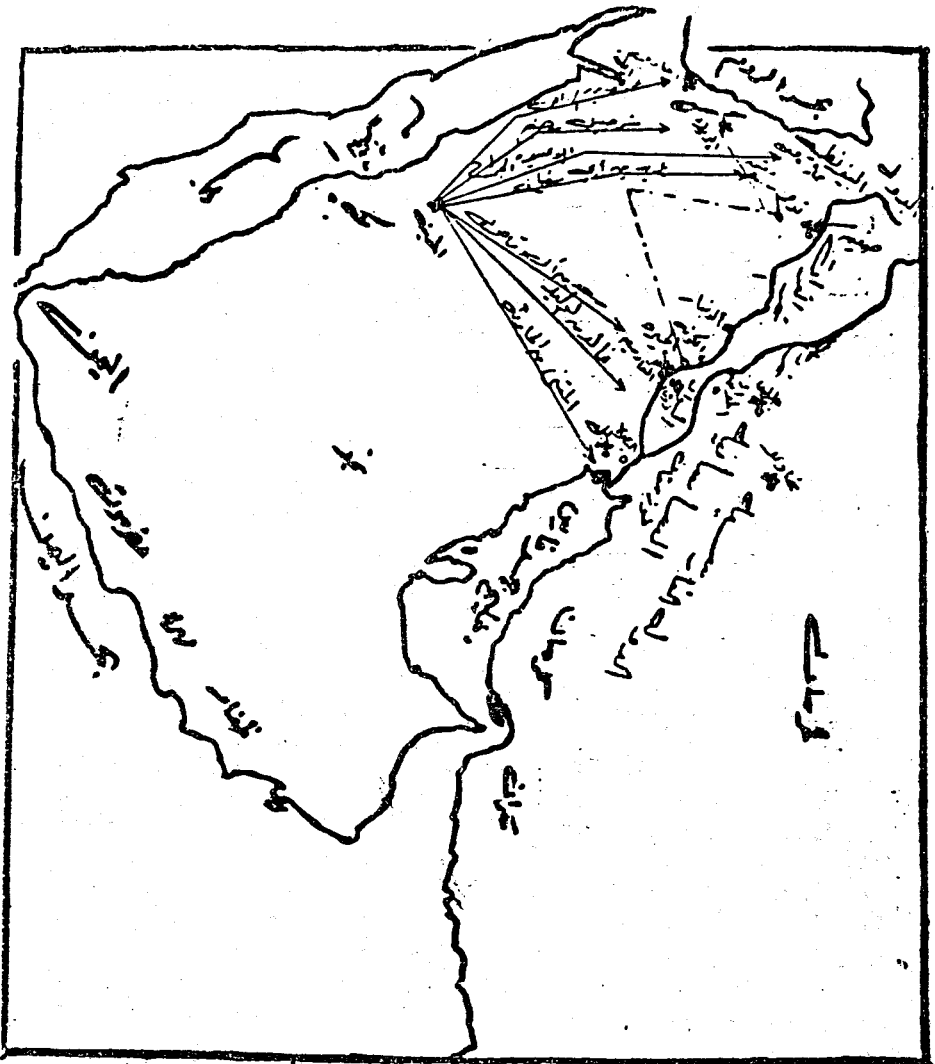
ساحة الحرم

بنتية بنت كعب

لا مكة

اعداد

شهادة الناطور



المسحور : دكتور احمد قانور ، دكتور شهادة الناطور ، تاريخ الدول السوية حتى نهاية القرن الاول ، مطبعة الخالدي ، عمان ١٩٨٢ .

المسلمون بلاءا حسنا ، وتم لهم فتحها ، ثم سار معاوية نحو عمرو بن العاص بعد أن فتح نابلس وعسقلان وغزة ، وتجمعت الجيوش الاسلامية حول القدس ، وحاصرتها لمدة أربعة أشهر لقي فيها الروم الجوع والعطش ، وتكاتب عمر بن العاص ويطريق القدس فى شروط الصلح ، وكان الروم يخافون على الكنيسة العظمى ، وطلب البطريق أن يياشر بنفسه عقد الصلح مع الخليفة عمر بن الخطاب ، فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر الذى قدم بالفعل الى القدس ودخلها ، وصالح أهلها ، ويرود الطبرى نص الكتاب الذى كتبه عمر اليهم قائلا : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمين المؤمنين أهل ايلياء الأمان ، اعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يكن بايلياء معه أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه ، وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مصل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم ، فانهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم ، وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل فضل خلان ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، اذا اعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد

على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ،
ومعاوية بن أبي سفيان ^(٥) .

ويتضح من هذه الوثيقة أن فتح القدس كان فى أواخر السنة الخامسة عشر للهجرة وهو ما كتب بالفعل فى نهايتها ، وفتح القدس (إيلياء) .
وقيسارية (قيصرية) ، ودمشق ، أفل نجم السلطان الرومى فى سورية ، وهرب
من هرب من الروم الى آسيا الصغرى ، وقضى على الدولة البيزنطية فى
الشام . وقد توج هذه الفتوحات حضور الخليفة عمر بم الخطاب وعقده
صلح القدس المشرف للإسلام وفى نفس الوقت فانه حافظ على كيان
المسيحية وتقاليدها ، وهو ما يعد نموذجا يحتذى به فى تاريخ العلاقات
السياسية الدولية بين الإسلام وخصومه حيث خليفة المسلمين يغادر بنفسه
الحجاز الى القدس ويعقد اتفاقا مع بطريق الروم ينص على حماية أرواح
وكنائس وممتلكات سكانها النصارى .

غير أن مجيء الخليفة عمر بن الخطاب الى الشام ، لم يكن من أجل
هذه المهمة فقط ، لأن مهمات أشد خطورة كانت فى انتظاره للبت فيها ،
ذلك أن المسلمين بعد انتصاراتهم الباهرة فى الشام والعراق ، وجدوا انفسهم
فى مأزق الاختيار - على حد قول ييضمون ^(٦) - بين التوقف عند هذا الحد

(٥) ونظرا لأهمية هذا الكتاب فى تاريخ العلاقات السياسية الإسلامية فقد أوردها برمته نقلا عن :
الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الرابع ص ١٥١ - ١٦١ .

(٦) الدكتور ابراهيم ييضمون ، مرجع سابق ص ٦٦ - ٦٧ حيث يصف الفتوحات الإسلامية فى
هذه الفترة بالذات أن لها لون خاص يختلف عن الأعمال التالية فى العصر الأموى الذى فقدت
فيه محتواها الجهادى ونضعت لقرارات سياسية تباينت دوافعها من خليفة لآخر - المرجع نفسه
ص ٤٣ وان كنا لانشاركه الرأى فى ما أسماه بالانحياز والتوسعى ، حيث طابع الفتوحات
الإسلامية طابع مختلف .

من المنجزات ، والاهتمام بشئون البلاد التي خضعت لهم ، وبين المضي في الاتجاه « التوسعي » الى مناطق جديدة ، ولعل النتيجة الأولى في هذا السبيل هي السيطرة على « الجزيرة » ، التي تقع ما بين النهرين (دجلة والفرات) ، وتشتمل على ديار مضر ، وبكر ، وربيعة ، أما أشهر مدنها فهي الرقة ، وحران ، والرها ، وسنجار ، ونصيبين ، وماردين ، والموصل التي افتتحت جميعها دون صعوبة كما وردت الإشارة الى ذلك .

وتجدر الإشارة انه أثناء وجوده في المدينة المقدسة ، وضع الخليفة عمر بن الخطاب حجر أساس مسجده في أواخر السنة الخامسة عشرة للهجرة ، ورجع الى المدينة المنورة بعد ذلك تم فتح العراق والشام وفلسطين ، أما مصر فكانت بظروفها السياسية والدينية امتداد للظروف السائدة في الشام ، وكانت مهياة هي الأخرى للفتح الاسلامي الذي تم بالفعل على نحو ما جاء في وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين (لقوقس) حاكم مصر - وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة ^(٧) .

- من فتوح العراق الى فتوح ايران :

ترتبط فتوح العراق بفتوح ايران في عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد سبقت الإشارة أن الفتوح الاسلامية في العراق في عهد الصديق قد انتهت في الجزيرة الفراتية على يد سيف الله خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، وقد كتب الصديق الى خالد بترك العراق ومساعدة الجيش

(٧) لمزيد من التفصيل حول الفتح الاسلامي لمصر ، راجع : شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢ - بيلر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٦٦ .

الاسلامى فى الشام ، وأن خالدا خلف المثنى بن حارثة فى الجزيرة وسار نحو الشام ، وأن العراق قد استأثر باهتمام عمر بن الخطاب الذى أخذ يحث الناس على الانضمام للمثنى بن حارثة ، وأن الله سبحانه وتعالى حين نصر المسلمين على الفرس فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، فقد استبشر الخليفة عمر بذلك وعزز الجيش الاسلامى بسعد بن أبى وقاص وأوصاه قائلا : «ياسعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته ، فالتناس شريفهم ووضييعهم فى ذات الله سواء ، الله ربههم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بعث الى أن فارقتنا ، فالزمه ، فانه الأمر ... » .

وتوالى الرسائل بين سعد بن أبى وقاص والخليفة عمر بشأن أحوال بلاد فارس وأوضاعها الجغرافية والسكانية والحربية ، وتضمنت ردود الخليفة عمر اليه تشجيعه قائلا : «.... أقم مكانك حتى ينفذ الله لك عدوك ، وأعلم أن لها ما بعدها ، فان منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تفتحهم عليهم المدائن ، فانه خرابها ان شاء الله » ، وقد استمر سعد بن أبى وقاص على مثابرته فى القادسية وهو يناوش الفرس حتى جاءه كتاب عمر قائلا : «لا يكرينك ما يأتيك عنهم ، واستعن بالله وتوكل عليه » . وقد نصر الله سبحانه وتعالى جيش المسلمين فى القادسية ، كما سبقت الإشارة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الفاصلة للفتح الاسلامى فى بلاد فارس ، وسار سعد ، ففتح (كوتى) و (ساباط) متجها الى المدائن ، ولما رأى ايوان كسرى

تذكر وعد رسول الله ﷺ اليهم بفتح ايوان كسرى ، فقويت قلوبهم ، وحاصر المدينة ، وكتب الى الخليفة عمر يشره ، ويخبره ، ويستشير به بشأن أعدائه المهزومين ، فجمع عمر أهل الشورى من المسلمين فى المسجد وخطبهم قائلا : « ... وان من أدعى ، فصدق ، أو وفى فبمنزلتهم ، وان كذب اليهم وأعادوا صلحهم ، وأن يجعل أمر من جلا اليهم ، فان شاءوا دعوهم ، وكانوا لهم ذمة ، وان شاء أتموا على منعهم من أرضهم ، ولم يعطوا الا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم بهذا الجزاء والجلاء . »

وكتب الخليفة عمر الى سعد بن أبى وقاص بذلك ، فخلى سعد عن الفلاحين الفرس ، وأرسل الى الدهاقين ، ودعاهم الى الاسلام ، أو الجزية ولهم الذمة ، فتراجعوا الى ديارهم ، ولم يبق غربى دجلة سوادى ^(٨) الا دخل فى ذمة المسلمين ، وفرح الأعاجم بذلك ، فدخل جيش المسلمين المدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وصلى فيها وقرأ قوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ .

وقد استكمل جيش المسلمين فتح ايران ، وغنم مغانم كثيرة من «السوس» و «جند يسابور» وصولا الى نهاوند كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وكتب الخليفة عمر الى أبى موسى الأشعرى أمير البصرة أن يوجه الأمراء لفتح ما بقى من البلاد وهم : الأخنف بن قيس الى «بلاد خراسان» والمجاشع بن مسعود السلمى الى «أردشير خرة» و «سابور» ، وعثمان بن العاص الى «اصطخر» ، وسارية بن زعيم الكنانى الى «فا» وسهيل بن عدى الى «كرمان» ، وعاصم بن عمر الى «سجستان» ، والحكم بن عمير

(٨) السواد جنوب الكوفة بين نهر الفرات والخليج الغربى ومنها انطلق المسلمون الى المدائن كما سبقت الاشارة فى المتن .

التغلبى الى «مكران» ، وقد أتم الأمراء هذه الفتوحات الاسلامية لما بقى من بلاد فارس حتى نهر السند حيث انتشر الدين الاسلامى فى ربوع هذه البلاد الشاسعة وهو ما يقتضى تفسير الفتوحات الاسلامية لشبه القارة الهندية - وخاصة السند والبنجاب - فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب .

- فتوح السند والبنجاب :

السند والبنجاب : بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية :

تشكل بلاد السند ومعظم البنجاب والمعروفة فى الوقت الحاضر بـ « الباكستان » - جزءا هاما من شبه القارة الهندية ، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول اسم بلاد السند ، فالبعض ^(٩) يذكر بأن الأسم القديم لبلاد السند هو « سندهو » نسبة الى نهر السند ، فى حين أن كلمة « بنجاب » هى اسم فارسي لمياه الأنهار الخمسة فى بلاد السند ، فى حين يذكر آخرون ^(١٠) أن كلمة « سندهو » كانت أسما قديما لنهر السند ومنطقة السند ايضا ، وان الاغريق قد اطلقوا هذه التسمية على نهر السند حيث عرفته أوروبا بهذا ^(١١) الاسم ، وهناك رواية شرقية بأن اسم السند

(9) Lambrick, H.T. : " Sind : A general introduction", Hyder abad. Sind, Sindhi Adabi Board, 1964, pp. 1-5.

(10) Abbott : J. " Sind : A Reinterpretation of the Unhappy Valley " Oxford University Press, 1924 pp. 21 - 24 .

(١١) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية) ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، جدة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ٤٥ - ٤٧ نقلا عن :

Raverty : " The Mahran of Sind ", in : Journal of the Royal Asiatic Society, Bengal, 1892, p. 156. Note 3 .

منسوب الى « سند بن حاتم »^(١٢) بن نوح ، فى حين يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب بعد الاسلام اسم السند بصفة عامة على المناطق المحيطة بنهر السند الكبير ، وكانت بلاد السند فى عهد العرب تتكون من الاقليم الشمالى الغربى ومنطقة البنجاب مع المنطقة المجاورة الممتدة الى أرض أفغانستان حتى نهر هلمند ، ومنطقة بلوچستان ، بالإضافة الى منطقة السند الحالية ومنطقة كجه ، فكانت هذه المناطق تسمى بلاد السند فى عهد العرب .

تأثرت بلاد السند والبنجاب بالظروف السياسية التى مرت عليها ، فقد كانت بعض المناطق تخرج من ايدى العرب ثم تعود الى حكمهم ، وبالتالى انعكس ذلك على تطور مشكلات الحدود من حيث تعيينها ، وفى هذا الصدد يقول عالم الجغرافيا العربى البشارى المقدسى^(١٣) : « وضع هذا الاقليم - يقصد السند - هو أنه يقع فى شرقه بحر فارس ، وفى غربه كرمان وسجستان وأعمالهما ، وفى شماله تقع بقية بلاد الهند ، وفى جنوبه تقع مفازة مكران وجبال القفص ومن ورائها بحر فارس »^(١٤) . وتأثرت الحدود أيضا بوجود نهر السند الذين كان العرب يطلقون على هذه

(١٢) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ص ٤٧ نقلا عن كتاب هيات العالم الشيخ محمد أعظم تنوى ، (بواسطة كتاب تحفة الطاهرين للشيخ محمد أعظم تنوى ، حيدرآباد ، ١٩٥٦ .

(١٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسى البشارى (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الجزء الثانى ، طبع فى لندن ١٨٧٧ ، ١٩٠٦ ، ص ٤٨١ .

(١٤) بحر فارس هو بحر العرب وقد أطلق عليه بعض المؤرخين والجغرافيين العرب اسم بحر المحيط ، فى حين أطلق عليه البعض لآخر اسم بحر عمان ، راجع شهاب الدين أو عبد الله باقوت

البلاد لقب «بلاد السند» ، نسبة الى نهر السند العظيم نظرا لمظاهر النعم والخيرات من المزروعات والخضروات والعقاقير والتوابل والأزهار والاعطور ، وينبع نهر السند من جبل كيلاس ببلاد التبت ، ويبلغ طوله نحو ١٨٠٠ ميل ، ويجرى ثلثه فى داخل بلاد السند ، ويمر النهر ببلاد كشمير ثم فى اقليم البنجاب حيث يلتقى أنهار خمسة بنهر السند ، ثم يجرى نهر كبير من البنجاب الى داخل بلاد السند ، ثم يتفرع الى فروع كثيرة فى أراضى واسعة ويتكون منها أحد عشر مصبا ، بعضها قابل للملاحة حيث تدخلها السفن التجارية ، ثم يصب النهر فى النهاية فى بحر العرب .

كانت بلاد السند تنقسم قديما الى أربعة أقاليم جغرافية هى : السند العليا والسند الوسطى والسند السفلى واطليم كش (كجه) ، فى حين أنها كانت تمثل خمسة اقاليم سياسية هى : اقليم برهمن آباد ، واطليم سيوستان ، واطليم اسكلنده ، واطليم الملتان - البنجاب حاليا - واطليم الور .

اقامت أقوام عديدة فى بلاد السند قبل الاسلام ، بل أن بعضها يرجع الى ما قبل خمسة آلاف سنة مثل قوم الدراوردين وهم أصحاب حضارة عظيمة فى المنطقة ، وتدل الآثار القديمة على أن سكان وادى نهر السند قد تعرضوا لظلم واضطهاد البربر الذين أتوا الى بلاد السند قبل الفرس عند

= الحموى الرومى ، معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م ، الجزء الخامس ص ٧٥١ .
- وراجع أيضا : اسماعيل بن على بن عماد الدين أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٤ م .
- أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ، كتاب الاقاليم ، طبعة المانيا ١٨٣٩ ، ص ص ٢٧٥ - ٢٧٨ .

زحفهم نحو الشرق عن طريق بلوخيستان ، وكان من نتيجة هذا الاضطهاد أن نزح قوم الدراورديين الى أماكن أخرى فى بلاد السند ، ويعتبر قوم الآريين - نسبة الى الآرى - هم القوم الثانى الكبير الذى أتى الى بلاد السند من وسط آسيا فى الفترة من سنة ٣٥٠٠ - ٦٠٠ ق . م وقضوا على نفوذ الدراورديين .

وعندما انتشر الاسلام فى هذه البقاع فقد أتت أقوام أخرى اندمجت بالسكان القدماء وأثرت فيها ، ومنهم العرب الذين فتحوا بلاد السند ، فى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وحكموها أكثر من أربعة قرون . ومن الثابت أن العرب من الجنس السامى ، وقد تركوا تأثيرهم العظيم على بلاد السند من النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية ، وكانت القافلة الأولى التى وصلت الى حدود بلاد السند بعد ظهور الاسلام هى حملة برية سكنت اقليم مكران ، واقتربت من نهر السند ، ثم تراجعت الى مكران سنة ^(١٥) ٢٣ هـ ، وبعد أن أتم العرب فتح بلاد السند فى سنة ٩٢ هـ ، فقد سكنت قبائل مختلفة فى المدن ، واندمجوا مع أهلها مما كان له انعكاساته الايجابية فى نشر الثقافة الاسلامية فى هذه البلاد الواسعة .

وفى عهد العرب كان هناك قبائل سندية أهمها الزط والميد واتسمت

(١٥) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الأول ص ص ٢٥٦٧ - ٢٥٦٩ ، ص ص ٢٧٠٥ - ٢٠٧٠٧ .

- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٢٨٤ هـ ص ص ١١٢ - ١١٤ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٤ .
- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ . الجزء الثالث ص ص ٣٤ - ٣٥ .

هذه القبائل بتعصبها الوطنى والقومى ، وتنافسوا على حكم البلاد ، وكان الزط أكثر عددا وأقوى نفوذا ، وأخطر على الأمن والدولة من الميد ، وربما يفسر هذا سبب اهتمام محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند (٩٢ - ٩٥ هـ) بدراسة أحوال قبيلة الزط الكبيرة ، ولما أيقن أنهم يقومون بالفتن والاضطرابات ، والاغارة على القوافل التجارية ، ونهب الأموال وقتل الأنفس - فقد عاملهم محمد بن القاسم الثقفى معاملة شديدة ووضع قيودا صارمة عليهم لضمان الأمن والاستقرار .

وعموما فقد اتفقت المصادر التاريخية بأن العرب المسلمين قد عاملوا الأقوام الكبيرة فى بلاد السند معاملة طيبة شملت أيضا أولئك الذين لم يعتنقوا الاسلام ولكن شريطة أن يدينوا بالطاعة للحكومة . ورغم قلة العرب - اذا ما قيسوا بسكان البلاد الأصليين - فقد استطاعوا فرض سيطرتهم بفضل سياستهم الحكيمة وأخلاقهم الحميدة وكان تأثير العرب قويا فى هذه القبائل غير المتحضرة التى اتسمت بعادات سيئة وصفات وحشية وتقاليد غريبة .

تفرعت عن العرب قبائل أخرى ، ومنهم قبائل^(١٦) التهأكرة Thokurs ، حيث أنضم عدد كبير من قادتهم الى محمد بن القاسم الثقفى أيام الفتوحات ، وساهموا بخدماتهم فى الجيش العربى أثناء حملاته الحربية مما كان له دور فعال فى انتصارات العرب . ومن القبائل التى أعلنت ولاءها للعرب رغم عدم اعتناقها الاسلام: قبيلة سومرا Somra وكانت متمسكة

(١٦) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ٧٨ نقلا عن : البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣١ .

بمذهبها البرهمى الهندى ، وقبائل لوهانه - وهى برهمية هى الأخرى -
فى حين دخلت قبائل كثيرة الى الاسلام ومنها كوكهر Khokhars التى
اشتهرت فيما بعد باسم قبيلة Sirai فى بلاد السند ، وقبيلة سهتا Shatas
التى عاملها محمد بن القاسم الثقفى معاملة طيبة ، وقبيلة سمه Sammah ،
وقبيلة سودى الراجبوتية Sadhi Raiputs .

أما العلاقات التجارية بين بلاد الهند والسند وبين العرب فقد قويت
بعد ظهور الاسلام وانتشاره فى هذه البلاد الشاسعة ، حيث كان
خليج العرب مركزا تجاريا هاما تتحرك منه السفن نحو بلاد السند
والهند والصين حاملة البضائع ، وراجت تجارة العرب والمسلمين ،
وزادت العلاقات التجارية تحسنا وتقدما فى الأجزاء الشرقية وكان
لذلك انعكاساته على العلاقات السياسية الاسلامية حيث كان من
أهداف الغارات البحرية التى شنّها عرب عمن والمناطق الساحلية هو
توطيد دعائم الحكم العربى على المدن الواقعة على سواحل السند ،
وسواحل إقليم كجرات بالهند منذ سنة ١٥ هـ كما سيرد ذكر ذلك
تفصيلا .

لم يأذن الخليفة عمر بن الخطاب للعرب الفاتحين وقادة جيوشهم من
خوض البحار حرصا على سلامة المسلمين ومصالحهم ، وإن كان قد سمح
للمتحمسين من قادة الجيوش الاسلامية بالمناورات والغارات والغزوات ،
وتكررت مثل هذه المحاولات فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفى عهد
الخليفة على بن أبى طالب حتى استولى العرب على اجزاء من السند ،
وفى نهاية القرن الأول الهجرى ساءت العلاقات التجارية ونتج عن ذلك

تدخل العرب عسكريا وسياسيا فى بلاد السند ^(١٧) .

تقويم :

سبقت الإشارة الى توسع رقعة الدولة الاسلامية وامتدادها من غربى آسيا الى شرقها مارة بحدود بلاد السند موضوع هذه الدراسة . فقد توجه عثمان بن أبى العاص الثقفى بجيشه بحرا لتأديب قراصنة الهند والسند الذين كثيرا ما أغاروا على السفن التجارية العربية ونهبوها ، فتوجه نحو مدينة تانه (تهان) على ساحل الهند ، وغزاها ، وانتصر عليها ، فى حين توجه الحكم بن أبى العاص الثقفى الى مدينة بروص (بهروج) على نفس الساحل الهندى وفتحها ، أما الشقيق الأصغر المغيرة بن أبى العاص فقد قاد الفرقة البحرية الثالثة سنة ١٥ هـ باتجاه مدينة الديبل وهى ميناء هام على ساحل السند - كراتشى حاليا - فانتصر على أهلها وفتحها .

كانت الغارات الاسلامية البحرية السابقة هى أولى الغارات العربية والحمولات الاسلامية الى سواحل الهند والسند ، وفضلا عن أن هدفها ^(١٨)

(١٧) وكان ذلك بسبب أساءة ملك السند الى العلاقات الطيبة مع العرب فى حادثة خطفة السفن التجارية العربية المارة بميناء الديبل السندى قادمة من بلاد الهند وسيلان فى طريقها الى البلاد العربية . بالإضافة الى حماية ملك بلاد السند لبعض العرب المتمردين ضد الدولة الأموية ، راجع دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، نفس المرجع السابق ص ١١١ نقلا عن : البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٠ .

(١٨) يرى مؤرخو السند أن هذه الحملات كانت مؤقتة ، والغرض منها معرفة أحوال السند ، كما كانت ردا على القراصنة وتهديداتهم للعرب ، فى حين يرى البلاذرى بأن المسلمين خلال هذه الحملات قد حققوا انتصارات وهو بذلك لا يتفق مع مؤرخى السند الذين يرون أن المسلمين =

كان تأديب قراصنة السند ، فقد عملت - وهذا هو الأهم - على توسيع رقعة الدولة الاسلامية ونشر الدعوة الاسلامية . وقد سبقت الاشارة الى رد فعل أن هذه الحملات لدى الخليفة عمر بن الخطاب هي عدم تأييدها وذلك لأسباب منها أن الذين قاموا بهذه الحملات بدون إذن الخليفة ليسوا فى موقع المسئولية مثله حيث مصالح المسلمين وأرواحهم أمانة فى عنقه ، ومن هذه الأسباب أيضا أن العرب لم يكونوا حتى سنة ١٥هـ قد كونوا وحدات بحرية عسكرية منظمة ، وأن القوات العربية كانت مشتتة فى مناطق كثيرة ومشغولة بالفتوحات ، وانعكست حكمة الخليفة عمر بن الخطاب من قناعته أن بلادا واسعة بعيدة كبلاد الهند والسند لابد وأن تتخذ حاليا استعدادات كاملة تضمن نجاحا مستمرا . وينقل البلاذرى ^(١٩) قول عمر بن الخطاب لثعمان بن أبى وقاص : « يأخا ثقيف !! حملت دودا على عود ، واني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم ^(٢٠) » .

غير أن الخليفة عمر بن الخطاب اقتنع بعد مضى عدة سنوات بقوة العرب ، ووافق على آراء القواد العرب بفتح بلاد السند والمثلتان المجاورة لبلاد

= لم يتصوروا ولم يهزموا ، ولا يوجد سرد أو تحليل لأحداث هذه الحملات لدى بقية مؤرخى المسلمين الذائع الصيت أمثال : اليعقوبى والمسعودى والطبرى وابن خلدون ، راجع : البلاذرى - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩هـ) فتوح البلدان ، مصدر سابق ، اليعقوبى - أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جزآن ، بيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م ، المسعودى ، أبو الحسن على المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٣٤٦هـ .

(١٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٤ - ٥٣٦ .

(٢٠) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ١١٢ - ١١٤ .

فارس شريطة أن تكون الحملة برية ، حتى يضمن سلامة جيش المسلمين ،
وفى سنة ١٧ هـ أعطى لواء اقليم كرمان ببلاد فارس الى سهيل ابن عدى ،
ولواء اقليم مكرن ببلاد السند الى الحكم بن عمرو التغلبى ، وشهاب بن
المخارق المازنى وسهيل بن عدى وعبد الله بن عبد الله بن عنتان - ساروا
بجيش المسلمين متوجهين الى بلاد السند حتى اقتربوا من نهر السند
ودارت معركة مع حكام ولايات السند حتى انتهت بانتصار المسلمين
وتفهمر باقى جيش السند ، وقد أصدر الخليفة عمر بن الخطاب أوامره ببقاء
الجيش الاسلامى فى مكران . ومن الأرجح أن الخليفة عمر لم يكن مقتنعا
بأن الوقت مناسب للدخول فى عمق بلاد السند ، وهو ما جعله يكتب
للقواد المسلمين هناك : « يجوز مكران أحد من جنودكم ، واقتصروا ما
دون النهر »^(٢١) ، ومعنى ذلك الاكتفاء بما تم الاستيلاء عليه من
مناطق الجزء الغربى لنهر السند وعدم عبوره الى الجهة الشرقية^(٢٢) .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الأول ، ص ٢٧٠٦ .

(٢٢) وقد ظل جيش المسلمين باقيا فى مكران حتى استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله
عنه فى نهاية سنة ٢٣ هـ .

الفصل الرابع

عصر عثمان بن عفان

٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م

- توغل جيوش المسلمين في بلاد الترك .
- أسماء لامعة في الفتوحات الإسلامية .
- السند والبنجاب .

الفصل الرابع

عصر عثمان بن عفان

- توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك :

تسلم عثمان بن عفان الخلافة وهو فى السبعين من عمره ، وقد عكس عدم الاستقرار السياسى تأثيراته على البلاد التى كان قد تم فتحها فى عصر النبوة وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ومن ناحية أخرى فان عثمان كان يختلف فى شخصيته عن سلفيه أبى بكر وعمر ، فقد اشتهر عثمان بسهولة تعامله مع الناس ، فلم يمنع أحدا من الصحابة من الخروج والانتقال الى بلد آخر . وجمع عثمان بين الصفة الاسلامية التى منحت مكانة ومنزلة عالية لمشاركتة النبى ﷺ لنشر الدعوة الاسلامية فضلا عن انتمائه للبيت الأموى صاحب النفوذ التجارى الأقوى فى العصر القرشى ، وكان لهذا تأثيره على نجاح العصبيات التى ضاقت فى عصر سلفه عمر بن الخطاب عن اختراق الجبهة الاسلامية وتماسكها .

ولأول مرة فى تاريخ الدولة الاسلامية ، يسجل الصراع على^(١) السلطة انتصارا لتيار وهزيمة لأخر مع أن التيارين كانا ينضويان تحت المظلة الاسلامية ، وكان من الطبيعى أن يتقاسم النفوذ العديد من الشخصيات من الأقارب المقربين لعثمان بن عفان حيث أسند اليهم أهم الولايات فى الدولة

(١) سوف نتعرض فى المتن لتأثير هذا الصراع على البلاد المفتوحة ، وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة ، راجع : دكتور محمد جمال الدين سرور ، الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٣ - ٥٩

الاسلامية ، فأقر نافع بن الحارث الخزاعي على مكة ، وسفيان بن عبد الله
الثقفى على الطائف ، ويعلى بن منبه على صنعاء ، وأبا موسى الأشعري
على البصرة ، وعمرو بن العاص على مصر ، وعمر بن سعد على حمص ،
ومعاوية بن أبي سفيان على دمشق وعثمان بن العاص على البحرين ، وسعد
بن أبي وقاص على الكوفة .

وترجح المصادر أن عثمان قد ولى سعد على الكوفة عملا بوصية عمر
ابن الخطاب ، غير أن عثمان قد عزله ^(٢) بعد عام خشية انقسام المسلمين ،
كما عزل عقبة بن فرقد عن أذربيجان التي كانت تابعة للكوفة ، وفي عهد
عثمان أيضا ، ثار أهل أرمينية ، وكانت تابعة للكوفة هي الأخرى ، فبعث
اليهم سلمان بن ربيعة الباهلي فأخضعهم . وكتب عثمان الى الوليد بن
عقبة ابن ابي معيط - وأمه أم عثمان - أن يمد أهل الشام بجيش . فبعث
الوليد ثمانية آلاف بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي الذي حارب الروم مع
جيش معاوية وأبلى الجيش بلاءا حسنا ^(٣) ، وبقي الوليد بن عقبة أميرا على
الكوفة حتى عزله عثمان بسبب شربه الخمر ، وولى مكانه سعيد بن العاص
الذي اهتم بأمور الكوفة وبعث جموعا من المسلمين فيهم الحسن والحسين
أبناء علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وحذيفة
بن اليمان ، ففتحوا طبرستان ، وكان ذلك في سنة ثلاثين للهجرة .
وفي عهد عثمان توغلت جيوش المسلمين في بلاد الترك ، والخزر ،

(٢) راجع أسباب عزل سعد بن وقاص في : الطبري ، مصدر سابق ، الجزء الخامس ، ص ٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦ - ٤٨ .

وجيلان ، وجرجان ، وتولى أبو موسى الأشعري أمانة الكوفة خلفا لسعيد بن العاص ، حيث عزف سكان الكوفة عن سعيد واختاروا أبا موسى الأشعري ، وكتب عثمان بن عفان الى أهل الكوفة قائلا : « أما بعد فقد أمرت عليكم من أخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأقرضنكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ... » ثم جاء أبو موسى الكوفة ، وخطب أهلها ، وأمرهم بلزوم الجماعة ، واستمر أميرا عليها حتى مقتل عثمان .

أما البصرة ، فقد تولى أمرها أبو موسى الأشعري كون عمر بن الخطاب قد ولاء إياها ، وظل فيها الى السنة التاسعة والعشرين للهجرة ، ثم عزله عثمان بعبد الله بن عامر ، بعد أن ضم اليه عمان والبحرين ، وحينما تمرد أهل فارس على أميرهم عبيد الله بن معمر ، فقد سار عبد الله بن عامر اليهم ، وقتلهم ، وهزمهم ، وفتح اصطخر ، وتذكر المصادر ^(٤) أن يزيد جرد - آخر ملوك الفرس - قتل في السنة الواحدة والثلاثين للهجرة حيث سار عبد الله بن عامر بجيش المسلمين لفتح خراسان التي تحرر أهلها حينما علموا بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، فلما فتحها ، سار الى قهستان ثم نيسابور ومن هناك وجه الأحنف بن قيس الى طخارستان ، ومرو الروذ ، والطالقان ، وبلغ ففتحها جميعا ، ولكنه لم يتمكن من فتح خوارزم ورجع الى البصرة قائلا : « لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمرا من موقفى هذا » .

وتجدر الإشارة أن عبد الله بن سبأ اليهودى ذى الأقوال الغربية عن

(٤) حول كيفية مقتل يزيد جرد وظروف قتلته . راجع : الطبرى ، الجزء الخامس ، مصدر سابق ،

الاسلام ، قد ظهر فى عهد بن عامر ، ونزل فى بنى حكيم ، وكانت أراؤه غير المقبولة سببا فى استدعائه من جانب ابن عامر الذى سأله قائلا : « من أنت ؟ » فقال : أنا رجل من أهل الكتاب ، رغبت فى الاسلام ، وفى جوارك ، فقال ابن عامر : ما بلغنى عنك ، أخرج عنى ، فخرج عبد الله بن سبأ حتى أتى الكوفة و فأخرج منها ، ثم أتى الشام ، فأخرج منها ، ثم أتى الحجاز ، فأخرج منه ^(٥) .

أما الشام ، فقد سبقت الإشارة أنه كان بيد معاوية فى عهد عمر ، وأن عثمان بن عفان قد أقر معاوية فى عمله ، وفى السنة الثانية من ولاية عثمان ، غزا معاوية الروم ، وبلغ عمورية ، وحصون انطاكية ، وطرسوس ثم رجع ، فأمره الخليفة أن يغزى حبيب بن مسلمة القهرى أرمينية وما إليها فوجهه إليها ، وفتح (قالقلا) ، وصالح أهلها ، ثم كتب الى عثمان ينبئه أنه بطريق أرمينية قد جمع جموعا كثيرة من المسلمين ، وأن الله سبحانه وتعالى قد مكن المسلمين من الارض ، وفتح الله على أيديهم تلك البلاد حتى « تفليس » و « آران » و « بردعة » .

- أسماء لامعة فى الفتوحات الاسلامية :

الواقع أنه منذ السنوات الأولى من تاريخ الدولة الاسلامية الفتية وقضية

(٥) ويذكر الطبرى أن عبد الله بن سبأ أتى الى مصر « فعشش فيها ، وباض مو فرخ ، وكان من أقواله غير المقبولة : ان عليا وصى محمد وقد غصبه ، من ولى قبله ، والواجب على المسلمين أن يعيدوا الأمر لأصحابه » ويضيف الطبرى أنه قد تبعه جمع كثير من مصر وغيرها ولعب دورا كبيرا فى إثارة الفتن . راجع . المصدر السابق . ص ٥ - ٩٨ ، دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ، ص ١٨٥ - ١٩٧ .

الفتوحات الاسلامية التى هى فى حقيقتها كانت جهادا بدأه رسول الله ﷺ مع المسلمين الأوائل فوصلوا بالاسلام شرقا . وفى فترة الخلافة الراشدة بلغوا حدود الصين شرقا ، وهؤلاء الرجال ضربوا أمثلة رائعة فى الجهاد الاسلامى قائلين لرسول الله ﷺ : والله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك . وهم الذين ما تخلوا عن ذلك أبدا ، فمع خلافة الصديق رضى الله عنه - كما سبقت الاشارة - فقد قمعوا المرتدين محافظين على وحدة الاسلام فى الجزيرة العربية .

ولمع رجال أمثال سعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حارثة الشيبانى وغيرهم ، والأخير - كما ترى بعض (*) الدراسات - لم تحظ سيرته وأخبار جهاده ما تستحقه من التأمل ، فالمثنى قاد جيوش المسلمين فى بداية عهدها بالفتوحات ، وكان عليه أن يبدأ بالمواجهة العسكرية مع القوات الفارسية متحملا بذلك مسئولية ضخمة حيث الصمود أمام هذه الجيوش ذات التقاليد العسكرية القديمة ، وقبل استشهاده فى العراق ترك وصاى عديدة كانت بمثابة دروس مستفادة من الفتوحات الاسلامية السابقة ، وأمثال المثنى ممن أعلوا النداء الخالد « الله أكبر » شرقا فى آسيا بصفة خاصة .

وعموما فقد تم فتح العراق ومصر والشام على فترات متتابة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، غير أن تمرد بعض أهل البلاد المفتوحة قد جعل عثمان يركز فى قمع هذه التمردات واعادتهم الى مظلة الاسلام حيث أعاد

(*) راجع : دكتورة فتحية عبد الفتاح النبراوى ، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ، الادارة العامة

لكليات البنات ، الرياض ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ص ص ٣١٧ - ٣٢٠ .

عثمان فتح ^(٦) خراسان وبلخ ، وفتح بلاد طبرستان ، وسرحسن ، وبلاد
الجزر ، حتى وصلت جيوش المسلمين الى (بلنجر) ، وهى أكبر مدنها
- وتقع خلف درر بند . وفى آسيا الصغرى تم فتح بلادها وجزائر بحر
الروم .

وبالرغم من أن هذه الفتوحات تعتبر متواضعة اذا ما قيست
بإنجازات سلفيه أبى بكر وعمر ، فقد شهدت الفتوحات الاسلامية ، لأول
مرة ، ظهور نواة البحرية الاسلامية فى عصر عثمان حين أدرك
معاوية بن أبى سفيان خطورة هذا السلاح ، فدأب على انشاء دار لصناعة
السفن وعمل على تثبيت أقدامه على أرض الشام ، وقد وفرت قرابته
لعثمان بن عفان ما جعل من ولايته للشام داعيا لاتخاذ مبادرات
جزئية ، فاذا أضيف الى ذلك أوضاعه القبلية القوية ، فقد انعكس
ذلك على انشاء قوة اسلامية عسكرية ضارية تولت حماية الدولة
الاسلامية والدفاع عن شواطئ ولايته المهددة بالغارات البيزنطية من وقت
لآخر .

وترتبط الفتوحات الاسلامية فى آسيا فى عصر عثمان بن عفان بالعديد
من الأسماء اللمعة فى تاريخ الدولة الاسلامية الفتية بدءا بالوليد ابن عقبة
الذى غزا أذربيجان وأرمينيا حيث منع سكانها ما اتفقوا وصالحوا عليه
حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب ، وهناك أيضا أمير خراسان عمير
بن عثمان بن سعد الذى غزا « فرغانة » فى العام التاسع والعشرين

(٦) بالإضافة الى مصر وبلاد النوبة وشمال افريقيا كله ، وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة .

للهجرة ، كما سار فى العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثى الذى وصل الى كابل ، كما انطلق عبد الله بن معمر التميمى فوصل الى نهر السند ، وقد سبقت الإشارة الى أن أمير الكوفة سعيد بن العاص قد أراد الاستيلاء على خراسان ، وما تجدر الإشارة اليه أن الحسن والحسين أبنأ على بن أبى طالب قد رافق سعيد بن العاص ومعهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، غير أن أمير البصرة عبد الله بن عامر كان قد سبقهم نحو خراسان ، ثم اتجه الى بقية بلاد فارس بعد أن تمردت كما سبقت الإشارة ، حيث انتصر جيش المسلمين ، وكان الأحنف بن قيس - وهو من الأسماء اللامعة فى الفتوحات الاسلامية فى آسيا - على مقدمة جيش المسلمين الى خراسان ، ففتح طوس ، وأبيورد ، ونسا ، وبلغ سرخس وصالح أهل مرد ، وأعاد بالتالى فتح خراسان .

أما سلمان بن ربيعة الباهلى فقد سار الى منطقة الباب ليساعده أخاه عبد الرحمن الذى استشهد فى معركة ضد خصومه ، وطلب الخليفة عثمان ابن عفان من أهل الشام بامر حبيب بن مئثمة أن ينجدوا سلمان ففعلوا .

وسار عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس الى مرد الروز فصالح أهلها ، وتذكر المصادر أن سكان (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و (طخارستان) قد اجتمعوا ضده ، فانتصر عليهم ، كما سار الأقرع بن حابس الى (جوزجان) بعد أن تمرد أهلها ، ففتحها ، وعاد الأحنف الى خراسان مرة ثالثة فى العام الثالث والثلاثين للهجرة : وهو ما يستدعى وقفة لتفسير انجازات الفتوحات الاسلامية الى بلاد السند والبنجاب فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السند والبنجاب :

سبقت الاشارة أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه أمر واليه على العراق بأن يتوجه الى ثغور الهند - حيث يذكر بعض المؤرخين المسلمين اسم الهند بدلا من السند مع أنهم يقصدون السند كما تدل على ذلك سياق الأحداث التاريخية - ووجه الوالى الى بلاد السند حكيم بن جبلة العبدى ، فلما جمع المعلومات عن تلك البلاد وعاد ، أوفده الوالى الى الخليفة عثمان الذى سأل عن أحوال البلاد ، فقال العبدى : « يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتحررتها . قال الخليفة : صفها لى ، فقال : « ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » فقال الخليفة : « أخابر أنت أم ساجع ! » قال : بل خابر . فلم يأمر الخليفة بغزو البلاد فى عمقها مع أن الجيش الاسلامى كان لايزال فى اقليم مكران ببلاد السند منذ عهد الخليفة عمر .

اكتفى العرب بحكم اقليم مكران وهو ثغر السند (كراتشى حاليا) ، والتى تم تعيين عبيد الله بن معمر التميمى حاكما عليها من قبل عبد الله ابن عامر بن كرز القشيرى الذى عين واليا على العراق بدلا من أبى موسى الأشعرى سنة ٢٩هـ ، وقد توسع عبد الله التميمى فى الفتوحات الاسلامية فى تلك المنطقة حتى بلغ نهر السند ، وباستشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى سنة ٣٥هـ طويت صفحة جديدة مشرقة فى الفتوحات الاسلامية التى وصلت الى أعماق بلاد السند .

الفصل الخامس

عصر علي بن أبي طالب

٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م

- خضوع الأقاليم المفتوحة في آسيا .

الفصل الخامس

عصر على بن أبي طالب

- خضوع الاقاليم المفتوحة في آسيا :

ليس مجال هذه الدراسة استعراض لحياة وسيرة ومزايا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورغم أن الرسول ﷺ كان يعتبره بمشابة هارون من موسى ، ولكن مجال هذه الدراسة هو ما يتعلق بحركة الفتح الاسلامي تجاه آسيا ، خاصة وأن هيبة الدولة الاسلامية الفتية كادت تهتز اذا لم يستتب الأمن فيها ، وكان لعلي رضي الله عنه بعض الملاحظات على بعض الولاة ، فقرر أن يستبدل هؤلاء الولاة ، غير أن بعض الصحابة رأوا التريث حتى تستقر الأوضاع السياسية بعد قتل الخليفة الراشدي الثالث - عثمان بن عفان في الثامن عشرة من ذي الحجة عام خمسة وثلاثين للهجرة - ورفض علي بن أبي طالب آراء المنادين بالتريث ، ووجد أن هيبة الدولة الاسلامية لا تتحقق اذا لم يتمكن الخليفة من عزل وال^(١) .

وتأسيسا على ذلك ، صدرت أوامر الخليفة علي بن أبي طالب بعزل الولاة وعمال الخراج ، وبقية المسئولين في العهد السابق ، واستبدلهم بفتة جديدة غير متورطة في السياسة ، وليست لأسمائها شهرة كبيرة خارج

(١) تذكر المصادر أن رؤية علي بن أبي طالب هذه تابعة من أن الوالي بمشابة الخليفة وأنه يرفض الأوامر ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه ، ويعدد هنا الخلفاء وهذا أمر غير جائز في الاسلام ، كما رأى علي بن أبي طالب أن العصاة يتسببون في عدم الاستقرار السياسي في المدينة ، وبالتالي لن يتمكن كخليفة للمسلمين أن يقيم حدود الله ، راجع : محمود شاكر ، التاريخ الاسلامي ، الجزء الثالث (الخلفاء الراشدون) المكتب الاسلامي ، بيروت ١٩٨٥ ص ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

«المدينة» ، ولم تقم عقبات تذكر فى وجه الولاة الجدد باستثناء ما كان متوقعا فى الشام وهى المنطقة التى استشهد فيه ميلاد دولة اسلامية قوية المستقبل فى آسيا ، هناك كان الخصم الأموى الذكى يعمل على توطيد اللامركزية فى الحكم والادارة وفق مفهوم مفاده الاستمرارية فى البيت الأموى ، وحين بعث الخليفة بسهل بن حنيف الى الشام ، رده معاوية من حدودها .

وبعث على بعثمان بن حنيف - وهو من أعلام الأنصار - فدخلها ، وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامر متجها الى مكة ، وأبقى الخليفة على ، أبا موسى الأشعري على الكوفة ، ومن هناك بعث أبو موسى الأشعري ببيعته وبيعة أهل الكوفة الى أمير المؤمنين ، وبعث الى اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس فلما وصل اليها رحل عنها عاملها السابق يعلى بن أمية .

وباستثناء الشام ، فقد خضعت الأقاليم المفتوحة فى آسيا فى معظمها لأمر المؤمنين على بن أبى طالب ، ولم يرسل معاوية بن أبى سفيان بالبيعة الى على .

لقد ظل الاسلام على اشراقه فى الاقاليم المفتوحة فى آسيا فى الفترة القصيرة التى تولى فيها على بن أبى طالب الخلافة ، ففى الكوفة - كما سبقت الاشارة - جاء واليها الجديد أبو موسى الأشعري غير راغب فى الفتنة والقتال بين المسلمين ضد بعضهم البعض . فضلا عن أن أهل الكوفة - وهذا هو المهم - كانوا متعددى الآراء والاتجاهات والميول ، فبعضهم يميل الى الزبير ، وبعضهم يرغب فى على ، ولكنهم لا يحبون

القتال ، وبعضهم متشدد يرى أن القتال أمر لا بد منه .

وعندما كتب أمير المؤمنين على بن أبي طالب يستحثه على قمع بذور الفتنة حرصا على استقرار النظام السياسى للدولة الاسلامية ، فان أبا موسى ظل على اصراره ، ولم يتوصل بالتالى الى حل حاسم ، فقام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بارسال العديد من الخلفاء لأبى موسى ، فلما لم يجد المناقشات التى دارت بين الطرفين ، أرسل ابنه الحسن الذى دعا أهل الكوفة لنجدة فليفتهم ، وأخرج الأشتر النخصى أبا موسى من قصر الامارة ، فانطلق أبو موسى الى مكة وأقام بها .

سبقت الاشارة أن الخليفة أرسل واليا جديدا الى البصرة هو عثمان ابن حنيف ، الذى سار اليها ودخلها ، وأخرج منها عبد الله بن عامر وكانت بوادر الفتنة قد ظهرت فى البصرة حينما رجع اليها ابن عامر عائدا من مكة وتكلم طلحة والزبير ورد عليهم عثمان بن حنيف ، وكاد الناس يقتتلون ، ثم تكلمت عائشة رضى الله عنها، فانقسم المجتمعون حيث أيدها الكثيرون ، غير أن بعض الغرغثيين المثيرين للفتنة والتطرف بشأن التحقيق فى مقتل عثمان من ناحية ، وبيعة على بن أبى طالب من ناحية أخرى ، هؤلاء الغوغاء أثاروا العديد من المشكلات ، ومع ذلك اتفق المجتمعون على أن يعيشوا رسولا الى المدينة لينظروا هل تمت مبايعة طلحة والزبير مكرهين أم بالرضاء ؟ فان كان ذلك ، أخلى عثمان بن حنيف لهما البصرة ، وان كانا قد بايعا عن رضاء خرجا من البصرة ، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يده حتى يعود الرسول ، وينزل طلحة والزبير ومن معهما حيث شاءوا ، وأن يصلى عثمان ابن حنيف بالناس ، فسأل أهلها عن بيعة طلحة

والزبير ، فلم يجبه أحد ، ثم اجابه أسامة بن زيد بأنهما بايعا مكرهين .

رجع كعب الى البصرة بهذه الأخبار فاختلف الفرقاء ، وعاتب على بن أبي طالب عامله في البصرة ، وقال : انما طلحة والزبير لم يجبرا على البيعة الا خوفا من الفرقة ، وتضائل أنصار عثمان بن حنيف وانقض عليه الغفواء فلم يتعرض لأى عتاب من أمير المؤمنين ، وبخروجه من البصرة فقد أصبحت تحت أمرة الفريق المكى (طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنها) وهو ما يستدعى وقفة للتفسير .

فقد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في طريقها من مكة الى المدينة ، عندما علمت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، ومبايعة على ابن أبي طالب بالخلافة ، فأعلنت سخطها ، وغضبها ، وعادت الى مكة وهى تردد : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه ^(٢) » ، واستأذن طلحة والزبير من الخليفة على فى الخروج الى مكة لأداء العمرة ، فأذن لهما ، ولما وصلها انضما الى أم المؤمنين عائشة وأعلنا أنهما بايعا على بن أبي طالب مكرهين ، وانضم اليهم مروان بن عبد الحكم ، فتزعم هؤلاء الأربعة المطالبة بدم عثمان بن عفان وكانت أم المؤمنين قد اقترحت أن يخرجوا الى المدينة حيث كان من فيها أنصار الخليفة على ^(٣) . خرج الفريق المكى الى البقيع وانفقوا على اسم الخليفة المقبل اذا نجحوا فى

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والأنبياء ، الجزء الرابع ، ص ٣٨٤ .

(٣) الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق ص ٨٩ نقلا عن كارل بردكلمان ، ترجمة نبيه فارس ، ومثير التعليكى ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، دار العلم للملايين ،

بيروت ١٩٦٥ ص ١٣٨ .

خطتهم ، وكانت أنباء خروجهم قد وصلت الى أمير المؤمنين على ، فرأى أن يسارع بوقف زحفهم حتى يتفرغ لمعاوية بن أبي سفيان الذي أحجم عن مبايعته - كما سبقت الإشارة - ولم يتمكن أمير المؤمنين من اللحاق بهم قبل وصولهم البصرة ، فتمكنوا من السيطرة عليها وطردها واليها عثمان بن حنيف - كما سبقت الإشارة - وانضم اليهم كثير من أهل البصرة في المطالبة بدم عثمان بن عفان ، وازداد الأمر خطورة حيث استطاع طلحة والزبير اقناع جموع المسلمين المؤيدة لهم بأن الخليفة ضم اليه «المحرضين» على قتل عثمان ، وأدى هذا الاضطراب الى حدوث مواجهة عرفت بيوم أو حرب الجمل .

خرج الزبير على فرسه ، وخرج طلحة ، وخرج اليهما أمير المؤمنين ، ودنا منهما ، وذكرهما بالله وبرسوله وبالبيعة ، وتبرأ أمامهما من دم عثمان ولعن قاتليه ، فرضى الزبير ، وأقسم أن لا يقاتله أبدا ، وسكت طلحة ، واستبشرت الجموع الغفيرة ، وبدأ المفاوضة بين رؤساء الفريقين لاتمام الصلح ، غير أن قتلة عثمان رأوا أن هذا الصلح ليس من صالحهم ، فهاجموا في الظلام جنود البصرة . واشتد وطيس القتال بين الجانبين فنزل أمير المؤمنين على بن أبي طالب الى الساحة وهو يتلو قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا أن نصر الله قريب » . اللهم افرغ علينا الصبر . ثم رفع مصحفا بيده وقال رضى الله عنه : « من يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم الى ما فيه ، ولهم الجنة ؟ فقال غلام اسمه مسلم بن عبد الله : « أنا ياخليفة رسول الله » ،

ثم تناول المصحف ، وزحف على القوم فقتلوه ، فقال على : الآن حل قتالهم ، واقتل الناس .

وأُسفرت هذه الموقعة عن مصرع طلحة والزبير ، وأسر عائشة رضى الله عنها والتي اعتزلت الحياة السياسية فور عودتها الى المدينة ، وتكمن أهمية هذه المعركة فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة أنها أول حرب تدور بين طرفين كلاهما يدين بالاسلام فى آسيا ، وهو ما دفع على - كما تذكر المصادر ^(٤) - الى خوضها بروح عالية دون أن تتحكم فيه أية خلفية أخرى شخصية أم سياسية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الموقعة كانت مقدمة

للصراع الحتمى بين على ومعاوية ، وفى الوقت نفسه ، بداية المواجهة السافرة بين المد الاسلامى المتصاعد فى آسيا وحلفائه وبين الاتجاه القرشى من أصحاب النفوذ فضلا عن قبائل الشام الأكثر بداوة ، وأسفرت موقعة الجمل - كما يضيف بيضون - عن تحجيم « المدينة » وانهاء الدور السياسى للحجاز ، بعد انتقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أعقاب انتصاره الى الكوفة فى العراق ، واتخاذها مقرا لخلافته القصيرة ، مؤثرا الابتعاد عن تطاحن الاتجاهات السياسية فى الحجاز الذى أفرغته الفتوحات الاسلامية - على حد وصف بيضون - من طاقاته ، « ولم يعد صالحا لاتخاذها مقرا للخلافة ، وترتبيا على هذه الاعتبارات فإن السؤال الذى يفرض نفسه : هل أدت الأحداث فى تصاعدها الى انقسام الدولة الاسلامية فى

(٤) الدكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ١٢٣ ، وراجع : اليعقوبى ، أحمد ابن أبى يعقوب

بن واضح (المتوفى سنة ١٩٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، مطبوعات المكتبة الحيدرية ،

النجف ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ص ١٨٢ - ١٨٤ .

آسيا أم أن العكس هو الصحيح حيث امتدت فتوح هذه الدولة المستقبلية -
الأموية فيما بعد - الى الصين في شرق آسيا ؟

(٥)

الواقع أن تطورات الأحداث التالية الخاصة بالتحكيم ومعركة صفين
لا تتعلق بمجال هذه الدراسة ، رغم ما انتهت اليه أحداث هذه الفتنة من
الخسارة التي لحقت بعلي حيث أصبح معاوية مساويا له ومطالباً بالخلافة ،
فضلا عن خروج بعض جنوده - وهم ما عرفوا فيما بعد بالخوارج -
بالإضافة الى بدء ظهور الفرق الاسلامية مثل المعتزلة ، والمرجئة ، والشيعة -
كما سيأتى تفصيل ذلك - فان العالم الاسلامى - وهذا هو الأهم - قد
انقسم بين مؤيد لمعاوية ومؤيد لعلى وهو ما أفقد الدولة العربية الاسلامية
وحدتها المنشودة حيث استشهد على بن أبى طالب فى فجر السابع عشر من
رمضان فى السنة الأربعين للهجرة ، واتجه الناس الى ولده الحسن فبايعوه ،
وبقى الحسن فى الخلافة ستة أشهر تبادل خلالها الرسل مع معاوية بشأن
تنازله عن الخلافة لمعاوية ، ودخل معاوية الكوفة ، فبايعه الناس ، وغادر
الحسنان الكوفة الى المدينة ، وأخذ معاوية يرتب أمور العراق ، فولى
البصرة عبد الله بن عامر ، وطلب اليه أن يستمر فى حرب باحستان ،
وخراسان ، وقفل هو الى الشام فغزا بلاد الروم ، وهزمهم ^(٦) واستقرت له
الأمر .

(٥) راجع تفصيلا : السعوى ، أبو الحسين على بن الحسين بن على (المتوفى سنة ٣٤٦هـ) ،

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، بدون
مكان نشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م ص ١٤٩ .

(٦) الطبرى ، الجزء السادس ص ص ٩٢ - ٩٨ .

وفيما يتعلق ببلاد السند ، فقد كان تاغرين ذعر قد عين قائدا على الجيش العربي الذي تقرر ارساله لغزو بلاد السند من قبل الخليفة على بن أبي طالب رضى الله عنه ، غير أن تاغرين عين الحارث بن مرة العبدى نيابة عنه وكان قائدا شجاعا ، وبعد أن وصل الجيش الى مكران ، سار الى القيقان واشتبك جيش المسلمين مع جيش أهلها الذى كان عدده عشرون ألف جندى فى حين كان جيش المسلمين لايتعدى الألف ، غير أن المسلمين قد انتصروا بفضل عقيدتهم الاسلامية وشجاعتهم الفائقة وأسروا آلافا من أهل القيقان .

ولما وصلت أخبار استشهاد^(٧) على رضى الله عنه ، وأن معاوية صار خليفة للمسلمين سنة ٤١ هـ ، عاد الجيش العربي الى مكران ، وتبع ذلك اشتباك الحارث بن مرة العبدى سنة ٤٢ هـ فى حرب دامية مع أهل القيقان ، غير أنه استشهد ومعه معظم قواده وجنوده لقلة عددهم - كما سبقت الإشارة - حيث تعيش مكران (ثغر السند) تحت حكم العرب

(٧) والواقع أن عليا رضى الله عنه كان حريصا قبل استشاده على عدم سفك الدماء ، وعلى عدم مواجهة أكثر من عدد فى وقت واحد ، ويورد الطبرى إحدى الوثائق الهامة المتمثلة فى كتاب على رضى الله عنه ، الى الخوارج قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان هذين الرجلين - يقصد عبد الله بن وهب وزيد بن حصين - اللذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعوا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملوا بالسنة ، ولم ينفذا القرآن ، فاذا بلغكم كتابى هذا فاقبلوا فأنا سائرون الى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الذى كنا عليه السلام (الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٧) . أما رد الخوارج على أمير المؤمنين =

حتى تم فتح بلاد السند كلها على يد محمد بن القاسم الثقفي في سنة
٩٢ هـ

== فترك الطبرى يسره قائلا : (أما بعد فإنك لم تغضب لربك ، انما غضبت لنفسك ، فان
شهدت ، فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، والا فإلناك
على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين) .

فلما تسلم على رضى الله عنه كتابهم رأى ان يتركهم ويمضى الى الشام ، ونزل بالنخيلة ،
وأنت عليه جيوش الكوفة والبصرة واجتمع عليه رجال بلغوا ثمانية وستين ألفا ومائتى رجل ،
وأنقسم الناس ، فريق رأى أن يسير على بهم لقتال الحرورية ، وفريق رأى أن يقاتلوا بقوة أهل
الشام أولا ، وفريق ثالث رد قائلا : « سر بنا يا أمير المؤمنين حيث شئت » (الطبرى ، ج ٥ ، ص
٧٧ - ٧٨) .

ولم يلبث على رضى الله عنه ان رأى الخروج اليهم ، واستعد لحربهم واستعدت الخوارج ، فبأت
قواتها ، الا أن عليا حاول أن يستميل بعضهم علة يؤجل القتال ، أو ينهى الخلاف ، فدعا الى
الأمان ، فأجاب البعض ، وأصر البعض على القتال ، وقاتلهم على بن أبى طالب ، فأتى رجاله
عليهم وقتلهم شر قتلة بالنهروان ، واستولوا على سلاحهم ودوابهم ومتاعهم وعبيدهم وامالهم ،
فأثنا السلاح والدواب مقسمة على فيمن شهد الحرب . وأما المتاع والعبيد والآماء فردة الى أهل
(الطبرى ج ٥ ص ٨٨) .

وليس مجال هذه الدراسة استعراض تفصيل نتائج التحكيم وقد توسع الطبرى فى ذكر ذلك (
الطبرى ج ٥ ص ١٣٧ - ١٤٠) ، وانما ما يعنينا هو الى أى مدى تأثرت أوضاع
المسلمين فى آسيا باستشهاد على رضى الله عنه ، ويرى الطبرى أن أهل العراق قد أستخلفوا
نجله الحسن وكان لا يرى القتال - على نحو ما ورد فى المتن - وقال مرجها حديثه لأهل العراق
: « أنه سخي عنكم ثلاث . قتلكم أبى ، وطنكم أبى ، وانتهابكم متاعى ، وقيل انه خرج الى
مسجد الكوفة فخطب أهلها قائلا : يا أهل الكوفة ، اتقوا الله فى جيرانكم وضيقاتكم . وفى
أهل بيت نبيكم ﷺ الذى أذهب عنكم الرجز وطهركم تطهيرا » . (الطبرى ج ٥ ص ١٥٩ - ١٦٥)
لم توجه الحسن الى المدينة المنورة ومعه أخوه الحسين حيث بدأت مرحلة
جديدة فى الفتوحات الاسلامية بآسيا فى عهد المغاربة .

الباب الثاني

الفتوحات الإسلامية في عصر الدولة الأموية

الفصل الأول : من عهد معاوية بن أبي سفيان ٤٠ - ٦٠ هـ

الى يزيد بن معاوية . ٦٠ - ٦٤ هـ

الفصل الثاني : من عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٦٦ هـ

الى الوليد ٨٦ - ٩٦ هـ

وسليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ

الفصل الثالث : من عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١ هـ

الى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

الفصل الرابع : محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند .

الفصل الخامس : بلاد السند بعد محمد بن القاسم الثقفي .

الفصل الأول

من معاوية بن أبي سفيان

(٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م)

الي يزيد بن معاوية

(من ٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م)

- توطيد أركان الدولة الاسلامية .
- السند والبنجاب .
- عهد يزيد والفترة اللاحقة .
- حركة انتشار الاسلام ولفترحات الاسلامية في آسيا .

الفصل الأول

عصر معاوية بن أبى سفيان ٤٠ - ٦٠ هـ - ٦٦٠ - ٦٨٠ م

- توطيد أركان الدولة الإسلامية :

يحفل التاريخ الإسلامى فى العصر لأموى بالفتوحات التى أعلنت شأن الإسلام . وبالرغم من بروز الأحزاب والفرق الإسلامية منذ ولادة الدولة الأموية - كما سيأتى تفصيل ذلك - مما استنفذ جهودا كبيرة من جانب الدولة الأموية - وخاصة تجاه معارضيها - الا أنها رغم ذلك استطاعت أن تمت نفوذها الى بلاد الصين وسهول آسيا وكذا الى المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والصحراء الافريقية .

واجهت الدولة الأموية كثيرا من الصعوبات والعقبات الداخلية من الأحزاب الإسلامية المعارضة ، ويتساءل أحد " من المؤرخين المسلمين المعاصرين عما يكون عليه الحال لو أن الجو كان مهيئا لبنى أمية ونعمت بالهدوء والسلام فى الداخل .. ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات ؟ ويجب قائلا : « أن أغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض ، وأن موجة الفتح الإسلامى كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الإسلام خفاقا فى أغلب الانحاء من أرض الله الواسعة » .

ان انجازات الفتوحات الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين قد استلزمت

(١) دكتور محمد الطيب النجار ، الدولة الأموية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٤ -

١١٦ . وراجع أيضا : محاضرات فى تاريخ العالم الإسلامى ، دار الاتحاد العربى للطباعة ،

القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

بذل مزيد من الجهود المضنية من جانب معاوية بن أبي سفيان لتوطيد أركان الدولة الإسلامية وتوفير الأمن والسلام في ربوعها ، ومع ذلك فقد تطلع معاوية الى المزيد من الفتوحات الإسلامية فتابع الجهاد والغزو ، وإذا كان عصر الخلفاء الراشدين قد شهد فتوحات في بلاد الفرس وصولا الى السند والشام ومصر وجزءا من بلاد المغرب ، فان معاوية قد وصلت جيوشه الإسلامية لفتح القسطنطينية سنة ٤٨ هـ ، وأعاد فتح أفريقيا ونشر الاسلام في ربوعها - وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة - وتضاعف نفوذ المسلمين في دولة الروم .

ولعل من أفضل انجازات الدولة الأموية على صعيد الفتوحات الإسلامية في آسيا هو سد ثغرات السواحل الشامية الاسيوية التي لم تسلم من الهجمات المفاجئة للبيزنطيين في عصر الخلافة الراشدة، ويذكر البلاذري^(٢) أنه قد أقيمت في الفترة الأولى من حكم معاوية بن أبي سفيان أول نظام دفاعي ، بالاضافة الى نظام « الشواتي والصوائف »^(٣) ، المتمثل في دوريات منتظمة تتوجه الى الأراضي البيزنطية ، وقد تفوق جيش المسلمين في وضع أسس هذا النظام خاصة بعد استقرار الأوضاع السياسية للدولة الإسلامية على الصعيد الداخلي، وانتقال « الخلافة » رسميا الى البيت الأموي ، ويعتبر

(٢) البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ . فتوح

البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، بدون مكان وتاريخ اصدار ، ص ١٥٩ - ١٦١

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ ، وراجع : اليعقوبي ، مصدر سابق ص ٢١٦ - ٢١٧ .

قادة الجيوش الاسلامية هم الذين تفوقوا فى هذا الحقل حيث تمرصوا فى فنون القتال ، وطبيعة الأرض الجبلية ، وكان فى طليعتهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ومالك بن عبد الله الخثعمى المعروف بـ « مالك الصوائف »^(٤) ، فضلا عن مالك بن هدير السكونى وحبيب بن مسلمة الفهرى ويسر بن أرمطة القرشى وآخرين من قادة الشام المسلمين الذين كانت لمهارتهم القتالية الفائقة سقوط بعض المواقع البيزنطية الهامة فى أيدي المسلمين ، ومنها « ملطية » أحد أشهر الثغور فى آسيا الصغرى .

ويذكر بيضون^(٥) أن نظام « الصوائف » قد عمل بجناحين متوازيين أحدهما استهدف السيطرة على الحصون والمعقل الجبلية ، أما الثانى فهو بحرى استهدف الجزر الواقعة فى فلك السيادة البيزنطية فضلا عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى ، وقد برز فى هذا المجال عدد آخر من القادة الشاميين من أمثال : معاوية بن خريج الكندى^(٦) ، وعقبة بن عامر الهجنى^(٧) ، ويزيد بن شجرة الرهاوى ، وعقبة بن نافع الفهرى

(٤) يذكر بيضون ان اسم هذا القائد قد ورد فى عهد معاوية فى أحداث اعوام ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٨ هـ كما ورد فى عصر المنصور العباسى فى أحداث عام ١٤٦ ، راجع ، الدكتور ابراهيم بيضون ، ص ١٦٥ نقلا عن البلاذرى ، مصدر سابق ، ص ١٩٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مصدر سابق ص ٥٠١ - ٥١٥ .

(٥) الدكتور ابراهيم بيضون ، ص ١٦٥ .

(٦) البلاذرى ، فوح البلدان ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٧) عقبة بن عامر الهجنى أمير من الصحابة شهد صفين مع معاوية وولى مصر سنة ٤٤ هـ وعزل منها سنة ٤٧ هـ وولى غزو البحر وكان شجاعا فقيها .

52.

(٦٦١ - ٦٧٥) الفرس، دولة بني نصر

3

三

حدود دالة لطفاً الجرائم

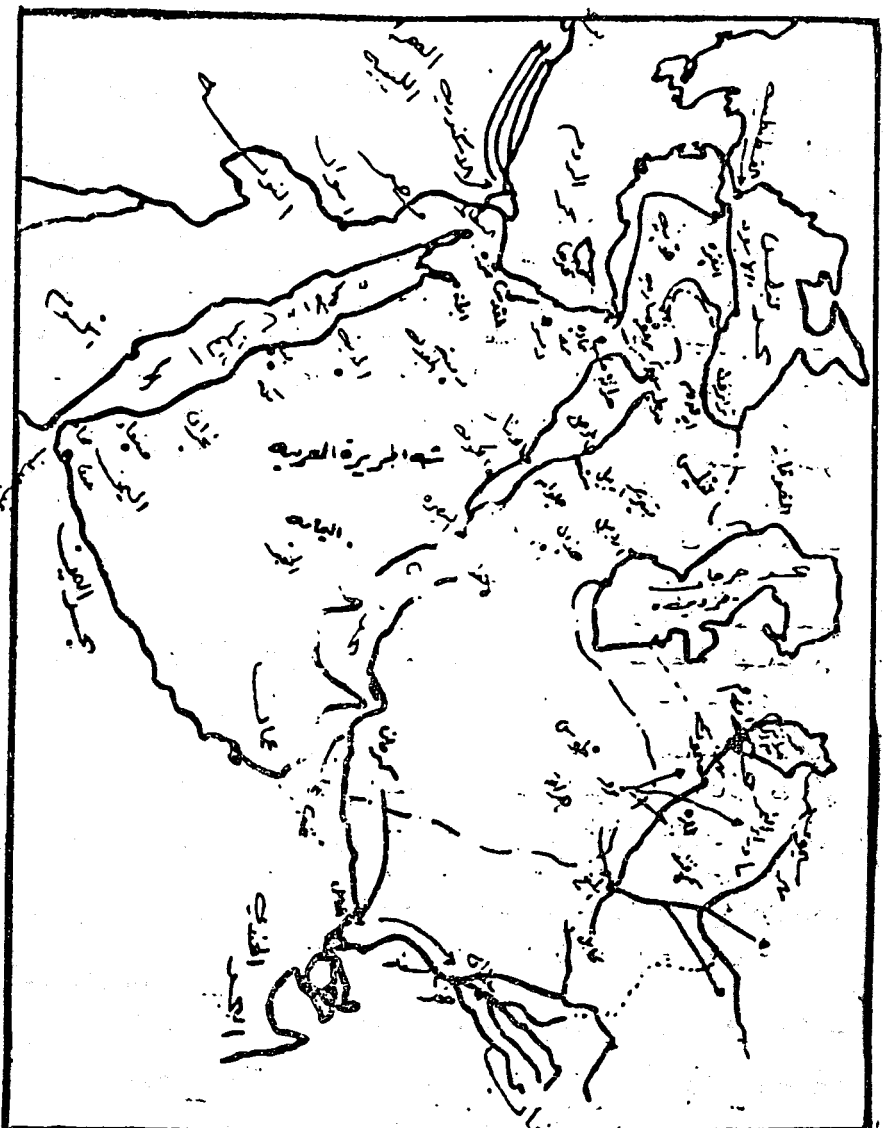
12

1

10

مذہب:

مختار علي الكاظمي



المصطفى : الدكتور أحمد لالور ، الدكتور شحادة النابلس ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية النزول النفل ، مطبعة الخالدي ، ص ١٩٨٢ .

غيرهم^(٨) ، أما أشهر القادة على الإطلاق فهو عبد الرحمن بن خالد الذى كانت انتصاراته الباهرة - وباعتباره قائد النظام الحربى الجديد - سببا فى صعود نجمه بالشام .

لقد عنى معاوية عناية شديدة بحرب الروم فقام بتجهيز اسطول بحرى ضخم بلغت عدد سفنه - فيما يقال - ١٧٠٠ سفينة ، كذلك فقد اهتم بالغزو البرى لبلاد الروم حيث كانت أطماع الامبراطور كونستانس الثانى الذى استمر حكمه ستة وعشرين عاما (٦٤٢ - ٦٦٨ م) مستهدفا الشام ، وبالفعل زحفت جيوشه على الشام ، غير أن معاوية كما أشار البلاذرى^(٩) قد صالح الروم على مال^(١٠) ، فلما استقام له الأمر واستقرت الاوضاع السياسية الداخلية فقد وجه اهتمامه الى غزوهم ، وطلب صاحب الروم الصلح ، فلم يجبه معاوية وكانت أعظم غزواته^(١١) ما قام به سنة ٤٧ هـ ، وقاد ابنه يزيد ومعه الصحابى أبو أيوب الأنصارى ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وابن العباس .

وصل الجيش الى حدود القسطنطينية سنة ٤٨ هـ ، وحاصر المدينة بمساعدة الأسطول الاسلامى من البحر حيث قامت معارك عنيفة ، غير أن

(٨) الطبرى ، الجزء السادس ، ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٩) البلاذرى ، مصدر سابق ، ص ١٥٩ .

(١٠) ويذكر المؤرخون أن معاوية وجه اليهم من صالحهم على مائة ألف دينار وكان بذلك أول خليفة اسلامى يصلح الروم على مال .

(١١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ ، وقد تم اكتشاف ضريح الانصارى أثر سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م .

أسوار المدينة كانت أقوى من المهاجمين ، وامتد حصار المسلمين عليها سبع سنوات مات خلالها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصارى ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، وبالرغم من أن الأمويين بذلوا طاقات جبارة لانجاح الحصار واسقاط المدينة ، الا أنهم لم يتمكنوا من فتحها ، مما دفع معاوية الى الاعتراف بالفشل ، واصدار أوامره بانسحاب الحملة بعد نيقنه من صعوبة الوضع الحربى والمعنوى لجنوده ، الذين أنهكهم البرد فضلا عن الطبيعة الجيولوجية للمدينة المتمثلة فى استقرارها الأوروبى والذى يلقى موقعها فى ذات الوقت الشاطئ الآسيوى ، ويحميها بحر مرمرة من الهجمات البحرية ، فضلا عن تزويد أسوارها الداخلية والخارجية بعدد كبير من أبراج المراقبة التى تكشف أية تحركات معادية ، كما كان يتم اقفال السلسلة الحديدية الضخمة الحاجزة ما بين القرن الذهبى (الميناء) وبين الشاطئ الآسيوى وذلك فى حالة الحصار أو الحرب الفعلية مما تطلب أسلحة متطورة وأساليب مبتكرة من القتال لم تكن فى متناول الأمويين رغم ما بذلوه من جهود ، ووجد معاوية نفسه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين فعقد معاهدة مع الامبراطور قسطنطين الرابع الذى كان مسرفا فى معاداته للمسلمين^(١٢) .

- من السند والبنجاب الى قمم لبنان :

وفى آسيا امتدت الفتوحات الاسلامية فى عهد معاوية الى السند والبنجاب ، فقد طلب معاوية الى أميره على بلاد السند أن يتوسع فى

(١٢) راجع تفصيلا ، دكتور ابراهيم المدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ،

القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ، ص ص ١٥٥ - ١٧٥ .

الفتوحات لهذه الديار لتدخل الاسلام فسار حتى بلغ بلاد القيقان غير أنه قتل ، فطلب معاوية من المهلب بن أبي صفرة أن يتم فتح هذه البلاد ، فسار حتى وصل لاهور ، وولى سعد بن عثمان بن عفان خراسان سيده للفتح بسمرقند ، ففتح وغزا ، وأصيب عينه ، وملك كثيرا من هذه الديار ^(١٣) التي اصطلح على تسميتها مستقبلا بشبه القارة الهندية .

وفي عهد معاوية ظهر الجراجمة (أو المردة) كما يسميهم المؤرخون المسلمون ، وهم سكان جبال لبنان الذين تحصنوا في أماكنهم ، وحينما فتح المسلمون ديار الشام ، وتغلبوا عليها ، لم يتمكنوا من الوصول الى الجراجمة لقلة أهميتها ، وعدم المنفعة منها فضلا عن تعسر مسالكها ، غير أن هؤلاء الجراجمة حينما شكلوا خطورة بسيطرتهم على قمم لبنان وآثارهم الفتنة بين العبيد والأسرى والوطنين ، ثم استقطبواهم ضد الدولة الاسلامية ، مما جعلهم يستأثرون باهتمام معاوية . وقد أرسلوا وفدا الى قسطنطين يطلبون الصلح ويدفعون حزية سنوية ، ثم أوفد قسطنطين معهم البطريق يوحنا الى الشام ، وقابله معاوية بالترحاب ، وبعد مشاورات بين الفريقين بشأن شروط الصلح ، استقر رأيهم على صياغة معاهدة موثقة باليمين ، يدفع المسلمون بمقتضاها الى الرومانيين كل سنة مالا وجيادا ^(١٤) لفترة ثلاثين سنة .

ومن تقويم الفتوحات الاسلامية في عهد معاوية ، نلاحظ أنه أسس

(١٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ص ٤٣٨ .

(١٤) وقد نصبت المعاهدة على أن يدفع المسلمون الى الرومانيين ثلاثة آلاف دينار ذهب . وثمانية

آلاف أسير ، وخمسين جرادا من الخيل والجياد .

اسلاميا ، منظما ، قويا ، استعان على تأسيسه بالشاميين من عرب وروم وغيرهم ، فأحبوه ، وأطاعوه ، وقد زحرت المصادر العربية بأخبار طاعة الشاميين وتأييدهم لمعاوية الذى اعتمد فى فتوحاته الاسلامية على الكثير من سكان الأقاليم التى فتحها رغم اختلاف أجناسهم ، ومن الثابت أن لينة وشدته قد مكناه من اشادة هذا الصرح الاسلامى الشامخ . وروى عنه قوله : « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما قطعتها ، اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها »^(١٥) .

عصر يزيد : ٦٠ - ٦٤ هـ (٦٨٠ - ٦٨٤ م) والفترة اللاحقة

أحدث غياب معاوية الكثير من الفتن الداخلية فى أنحاء الدولة الاسلامية وهو ما عكس تأثيراته على الفتوحات الاسلامية فى عهد خلفه يزيد . وتفسير ذلك يكمن فى اشتعال نار الفتنة بعد وفاة معاوية ، وكان أول عمل انجزه يزيد هو اقراره عمال أبيه على الولايات الاسلامية ، فأقر عبيد الله بن زياد على البصرة ، والنعمان بن بشير على الكوفة ، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان على المدينة ، وعمر بن سعيد بن العاص على مكة . وجاءت بوادر هذه الفتنة مؤشرا للانفجار المرتقب من جانب المعارضين له . فلم يكن يزيد فى حنكة والده حيث كاد أسلوبه العقيم وقراراته الارشالية أمام الأزمات أن تعصف بعهده فى أيامه الأولى ، فضلا عن أن مشكلة الحكم نفسه لم تكن

(١٥) ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد المريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، الجزء الأول ص ١٠ .

قد حسمت بشكل نهائى أو حاز الشرعية والرضاء المطلوبين ، مثال ذلك ما كتبه الى الوليد بن عقبة قائلا : « أما بعد فخذ حسينا وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ، ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا »^(١٦) .

وتذكر المصادر أن الحسين قال لابن الزبير : يا ابن الزبير قد ظننت أن طاغيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو فى الناس الخير . فقال ابن الزبير : وأنا ما أظن غيره ، فماذا تريد أن تصنع ؟ قال الحسين : اجمع قيانى الساعة ثم امشى اليه ، فاذا بلغت الباب احتبستهم عليه ثم دخلت : قال ابن الزبير : فأنى أخافه عليك . فقال الحسين : لا أتبه أولا ، وأنا على الامتناع قادر ، ثم قام فجمع اليه مواليه وأهل بيته ، ثم أتاه ، فسلم عليه بالامرة ، ومروان جالس عنده ، فقال الحسين : الصلة خير من القطيعة ، أصلح الله ذات بينكما ، فلم يجيباه فى هذا بشىء ، ثم أقرآه كتاب يزيد ودعياه الى البيعة ، فقال الحسين : أنا لله وأنا اليه راجعون ، ورحم الله معاوية ، وعظم لك الأجر يا وليد ، أما ما سألتنى من البيعة ؟ وقال مروان : والله لئن فارقت الساعة ولم يبايع ، لا قدرت عليه أو تضرب عنقه ، فوثب الحسين قائلا : يا ابن الزرقاء أنت تقتلنى أم هو ؟ كذبت والله وأثمت ، ثم خرج . فقال مروان للوليد : عصيتنى : « والله لا يمكنك من نفسه أبدا » ودخل الحسين بيته ثم خرج ليل الى مكة هاربا .

وعندما سمع أهل الكوفة بعدم مبايعة الحسين أخذوا يرأسونه ويحثونه

(١٦) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، المتوفى سنة ٢٧٦ ، الامامة والسياسة ، الجزء الأول ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ إصدار ص ١٨٥ .

للقدوم اليهم ليبايعوه ويكونوا الى جانبه ، فضلا عن أن الزبير والحسين حين اجتماعا فى مكة أخذوا يشجعان الناس على يزيد ، ومن الأرجح أن الزبير رأى فى الحسين منافسا قويا فآثر العمل على اخراجه من مكة حتى يصفو له الأمر . سار الحسين من مكة متجها الى الكوفة ، فاعترضه خيل عبد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص مما اضطر الحسين الى النزول فى سهل لا ماء فيه بالقرب من الفرات سماء كربلاء ، وبدأت المفاوضات بين الحسين وعمر بن سعد بن أبى وقاص غير أنها باءت بالفشل ، وطلب الحسين من قائد يزيد أن يسمح له بالعودة من حيث أتى ، أو يسير الى دمشق ، أو الى الثغور ، الا أن عمر بن سعد ابن أبى وقاص رفض جميع مطالب الحسين الذى اضطر للقتال فى معركة غير متكافئة^(١٧) بين نفر قليل هم آل بيت الحسين ومرافقوهم وجيش كبير يقوده عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان القتل الذى قتل فيه الحسين ومعظم أهل بيته فى ١٠ من المحرم سنة ٦١ هـ - ٦٨١ م .

وسواء تعلق الأمر بأهل المدينة الذين تأثروا بمقتل الحسين ، وثاروا وطرودوا عامل يزيد من المدينة أو تعلق الأمر بسكان الكوفة ذاتها ، فقد تحول مقتل ابرز شخصيات البيت الهاشمى الى مأساة دموية اضطربت لها ضمائر المسلمين وأركان النظام الأموى والخليفة ذاته ، الأمر الذى كان حدثا غير عادى فى تاريخ العلاقات السياسية الاسلامية ، ففى الحجاز حدث عصيان مدنى ، وفى مكة أعلن ابن الزبير دولته ، وتطورت الأمور على نحو غير

(١٧) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى ، المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، الأخبار الطوال ،

تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة والارشاد القومى . القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٥٩ .

متوقع في العراق حيث شمرت الحركة الشيعية بتقصير وشعور بالآثم بعد
اجهاض ثورتها وقتل الحسين في مجزرة دموية ، وكانت الحملة القمعية
العنيفة التي قادها عبد الله بن زيادة مستهدفة زعماء الشيعة مما أفرز حركة
التوابين الانتحارية ، وحركة المختار الثقفي ومعها أول سلطة شيعية بعد تنازل
الحسين ، وفي الشام تراكمت عوامل الانهيار السياسي بعد وفاة يزيد
الفجائية في شهر ربيع الأول سنة أربع^(١٨) وستين للهجرة ، ومع ذلك
شهدت الفترة السابقة على وفاته مزيدا من الفتوح الاسلامية في آسيا .

ففي سنة ٦١ هـ كان يزيد قد استعمل سلم بن زياد لغزو خراسان ،
وكان في جيشه نفر من وجوه الناس وأبطال المسلمين مثل عمران بن
الفضيل البرجمي ، والمهلب بن أبي صفرة ، وعبد الله بن حازم السلمي ،
وطلحة بن عبيد الله الخزاعي وغيرهم ، وغزا جيش المسلمين بقاع خراسان
حيث طلب ملوكها الصلح .

وفي السنة ذاتها ولي يزيد أخا سلم على سجستان .

وفي الفترة اللاحقة على موت يزيد بن معاوية تعاقب على حكم الدولة
العديد من الخلفاء بدءا بمعاوية الثاني ٦٤ هـ - ٦٨٣ م ومرورا بمرwan بن
الحكم ٦٤ - ٦٥ هـ - ٦٨٣ - ٦٨٥ م ، وعبد الملك بن مروان ٦٥ -
٨٦ هـ - ٦٨٥ - ٧٠٥ م ، والوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ - ٧٠٥ -
٧١٥ م ، وسليمان ابن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ - ٩١٥ - ٩١٨ م ،
وعمر بن عبد العزيز ١٠١ - ١٠٥ هـ - ٧٢٠ - ٧٢٤ م ، وهشام بن عبد
الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ - ٧٢٤ - ٧٤٣ م ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك

(١٨) البلاذري ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

• الوليد الثاني ، ١٢٥ - ١٢٦ هـ - ٧٤٣ - ٧٤٤ م ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ هـ - ٧٤٤ م وانتهاء بمروان بن محمد ١٢٧ - ١٣٢ هـ - ٧٤٤ - ٧٤٩ م حيث باغته العباسيون الذين كان قد بدأ ظهورهم في خراسان وسيطروا على الحكم وقضوا على الدولة الأموية ودور الأسرة الأموية في المشرق بعد أن حكمت نحو تسعين سنة سطرت خلالها فتوحات اسلامية في آسيا على نحو ما سبقت الاشارة اليه ، في عهدي معاوية ويزيد ، أما الفترة اللاحقة لهما فقد سارت حركة انتشار الاسلام والفتوحات الاسلامية في آسيا على النحو الآتي :

من معاوية الثاني الى مروان بن الحكم الى عبد الله بن الزبير والحجاج ابن يوسف الثقفي :

خلال العام الذي حكم فيه الخليفتان معاوية الثاني ومروان بن الحكم جرت أحداث جليلة تمثلت في فتنة أهل خراسان وأهل الكوفة وأهل البصرة . فعقب موت يزيد بن معاوية واختلاف العرب بعده ، خطب أمير خراسان سلم بن زياد مطالبا ببيعة الناس له ، فبايعوه ثم نكثوا عهده بعد شهرين ، فخرج من خراسان ، وخلف عليها المهلب بن أبي صفرة ، فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن حازم ، فقال له : من وليت خراسان ؟ فأخبره فقال : أما وجدت من توليه خراسان غير هذا اليمنى ، ووقعت فتنة كبيرة بين ابن خازم والمهلب ، انقسم فيها العرب قسمين : يمانية ونزازية ، وانشطر النزارية الى ريعية ومصرية^(١٩) ، وقد استمرت هذه الفتنة فترة غير قصيرة .

(١٩) ابن الاثير ، الجزء الرابع ، ص ص ٩٠ - ٩١ .

وفى الكوفة حدثت فتنة فور وصول خبر موت يزيد ، فقد بايع أهل البصرة - الذين حدثت فتنة بينهم أيضا - عبيد الله بن زياد ، وعزلوا أميرهم عمرو بن حريث ، وأمروا عامر بن مسعود بن خلف القرشي الذى مكث أميرا لثلاثة شهور خضعت بعدها الكوفة لابن الزبير .

وفى البصرة انتهت أحداث الفتنة بهرب عبيد الله بن زياد الى الشام وخضوع البصرة هى الأخرى لعبد الله بن الزبير^(٢٠) ، وتجدر الإشارة الى دور عبد الله بن الزبير ، فأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق الذى ولد عام الهجرة وكان بالتالى أول مولود فى الاسلام يولد فى دار الهجرة ، وكان مدافعا عن الاسلام حاملا راية الجهاد ، وقد شهد معركة الجمل مع خالته عائشة . وقد سبقت الإشارة انه حينما وقعت الفتنة بين على ومعاوية والفترة التالية ، فقد بحث به معاوية لغزو القسطنطينية فى السنة الخمسين للهجرة مع ابنه يزيد ، كذلك فقد امتنع ابن الزبير عن مبايعة يزيد ، فلما هاجم أهل الشام أهل المدينة فى وقعة تسمى وقعة الخرة متجهين الى مكة ، قاتلهم عبد الله بن الزبير ، ثم بايعه أهل الحجاز بالخلافة وانضم اليهم أكثر أهل الشام والعراق ومصر فى عهد مروان بن الحكم الذى خلفه ابنه عبد الملك حيث جرت أحداث انعكست بالتالى على حركة انتشار الاسلام والفتوحات الاسلامية فى آسيا . وهذه الأحداث يمكن اجمالها فيما يأتى :

يذكر ابن عبد ربه ان عثمان بن عفان قد استخلف عبد الله بن الزبير على الدار^(٢١) ، ثم ان النبى ﷺ حينما جعل أبابكر الصديق يؤم المسلمين فان ذلك قوى فى نفسه النزوع الى السلطة . ويستدل على ذلك من الدور

(٢٠) الطبرى ، الجزء السابع ، ص ١٨ ، ٣١ ، ٣٧ .

(٢١) ابن عبد ربه ، العقد الفرید ، الجزء الثالث ، ص ١٦٠ .

الذى أداه فى الفتنة بين على ومعاوية وقد سبقت الإشارة الى تخلف ابن الزبير والحسين عن مبايعة يزيد ، فكان الحسين منافسه الأقوى ، فلما ذهب الى العراق حيث قضى عليه لم يبق لابن الزبير مناصر يذكر فأخذ يدعو لنفسه ويعمل على تقوية مؤيديه فى الحجاز وخارجه ضد الأمويين مستغلا ما قاموا به من أعمال منافيه للإسلام فى مرحلة من أهم مراحل الدولة الاسلامية التى تتطلع لنشر هذه العقيدة ، حيث حول الأمويون الخلافة الى ملك عضوض ، وعاملوا ولائهم على الاقاليم المفتوحة بالقسوة والعنف ، وانهم قتلوا الحسين وغزوا الحرمين^(٢٢) .

استطاع الزبير بذكائه أن يكسب رأى العام الاسلامى وقلق بذلك صفو الدولة الأموية ، وبايعه أهل المدينة وأهل مكة وأهل اليمن والكوفة والبصرة . فلما مات معاوية بن يزيد بايعه أهل الشام باستثناء أهل الأردن وكذلك الحال مع أهل خراسان والمشرق ، وكاد يتم الأمر لابن الزبير بعد أن بايعته أكثر الأقطار الاسلامية والمفتوحة ، لولا أن مروان قد انتزع منه مصر ثم خلفه ابنه عبد الملك الذى واجه ما اصطلاح المؤرخون على تسميته بفتنة الزبير حيث بعث هذا الأخير أخاه مصعب أميرا على العراق ثم دخول عبد الملك الكوفة حيث بايعه أهلها سنة ٧١هـ وتمكن من السيطرة على العراق ، ولم يبق فى يد عبد الله بن الزبير سوى الحجاز^(٢٣) ، فلما توطد الحكم لعبد الملك فى العراق فقد بعث بجيش قوى يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير فى الحجاز ، فنزل بالطائف سنة ٧٢هـ ، ثم

(٢٢) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٤٤ - ١٤٥

(٢٣) نفس المصدر ، الجزء الرابع ص ١٢٥

وافق عبد الملك على دخوله الحرم ، فقدم مكة محرما وحج بالناس ، الا أنه لم يطف ، ولم يسمع بين الصفا والمروة لأن ابن الزبير منعه ، ثم نصب الحجاج المنجنيق ، ورمى به ، فأصاب الكعبة ، واشتد الحصار على أهل مكة فخرجوا مستأمنين .

طلب ابن الزبير النصيحة من أمه اسماء بنت أبي بكر بعد أن خذله الناس حتى ولداه حمزة وحبيب ، فشجعتهم أسماء على الثبات على موقفه فقاتل الحجاج قتالا عنيفا ، وأظهر من الشجاعة والجلد ما أدهش الحجاج وصحبه ثم قتل وصلبه الحجاج فتناولته أمه فغسلته وطيبته ووصلت عليه قائلة : « اللهم لاتمتني حتى تفر عيني بجثته » ، فما أن أتت عليها جمعة حتى ماتت ، وقضى على حركة الزبير التي كانت تهدف الى ارجاع عاصمة الاسلام الى الحجاز كما كانت في عهد الرسول ﷺ ، وكان ابن الزبير معتزا بذلك ، ساعيا له ، ولما طلب اليه أن يترك الحجاز الى الشام امتنع ، ويرى المؤرخون المحدثون ^(٢٤) ان ابن الزبير لو كان قد وافق فذهب الى الشام لاستقامت له الأمور .

(٢٤) الدكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ٥٩ .

الفصل الثاني
من عهد الملك بن مروان
الي وليد وسليمان بن عهد الملك

- الفتن الداخلية وانعكاساتها الأسوية .

الفصل الثاني

من عبد الملك بن مروان إلى الوليد وسليمان بن عبد الملك

بويج عبد الملك سنة ٦٥ هـ ، ولم يكد يتم له الأمر حتى اجتمع نفر من الشيعة العلوية الذين ثاروا انتقاما لمقتل الحسين نادمين على ما فرطوا في حقه من عدم نصرته ، فأعلنوا تربتهم وسموا بالتوابين ، فبعث اليهم عبد الملك أمير العراق عبيد الله بن زياد فالتقى بهم في عين الوردة ، وجرت بين الطرفين معارك ، أبلى التوابون فيها بلاءا حسنا وقتل رئيسهم فتشتوا ، ثم واجه عبد الملك تمرد المختار بن عبيد الثقفي عامل الكوفة من قبيل الزبير ، فطرده ، وكان ذا مطامع واسعة ، فاستتر وراء حركة التوابين ، وانضوت الشيعة تحت لوائه من توابين وكيسانية وسبأية^(١) .

- الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية :

حدثت العديد من الفتن الداخلية التي واجهها عبد الملك بن مروان بدءا بفتنة الخوارج والتي انتهت برسالة الحجاج المعروف بسياسته الشديد التي مكنته من طردهم من العراق الى فارس ثم الفتك بطوائفهم وخاصة

(١) لمزيد من التفصيل حول التوابين والكيسانية والسبأية ، راجع : الطبري ، الجزء الأول ، البغدادي

: عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمي ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، الفرق بين الفرق ، تحقيق

محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار ، المسمودي ، مروج

الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ص ١١٤ - ١١٦ .

- الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر ، المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ، الملل والنحل ، تحقيق

محمد رشيد الكيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٥ .

الصغرية المقيمة فى الموصل ومرورا بفتنة لبنان التى قام بها الجراجمة والمردة من جرجومة وجبل لبنان - كما سبقت الاشارة - فقد صالحهم عبد الملك الى أن صفا له الأمر ، ففتك بهم ، ورغم هذه الفتن فان حركة الفتوح فى آسيا قد امتدت فى الفترة من سنة ٧٤هـ الى سنة ٨٥هـ .

ففى سنة ٧٤هـ ولى عبد الملك بلاد خراسان لأمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيد ، فلما أتاها ولى ابنه عبد الملك بن أمية على سجستان ، فلما قدمها غزا رتبيل وهو الملك الذى طلب صلح المسلمين ثم تمرد عليهم ، فولى عبد الملك الحجاج على هذا الاقليم اضافة الى العراق ، فبعث الحجاج المهلب ابن أبى صفرة ، وعبد الله بن أبى بكره ، فصار عبيد الله وغزا بلاد رتبيل واصاب غنائم كثيرة ، وهدم الحصون ، كما سار المهلب الى ما وراء النهر ، وفتح حصونها ، وأقام حتى بلغ مبيته فاستخلف ابنه يزيد ، وأوصاه أن يستمر فى فتوحه ، فصار يزيد حتى بلغ قلعة نيزك ببادغيس ، غير أن الحجاج قد عزله فى سنة ٨٥هـ وولى أخا المفضل الذى غزا أفرون وشومان وفتحهما وأصاب مغنما كثيرا .

أما الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ (٧٠٥ - ٧١٥م) ، فقد أمر الحجاج باستمرار عملية الفتوح الاسلامية بآحاء الشرق ، فبعث الحجاج من قبيلة عن مسلم الباهلى أميرا على خراسان ، فأتاها ورتب أمورها ، ثم سار حتى قطع نهر باخج بجيش كثيف ، ووصلت أخباره الى ملوك ما وراء النهر

فخافوا واستقبله ملك الصفانيان بالهدايا ثم انصرف الى مرو وبعث أخاه صالح بن مسلم لفتح كاشاه وأورش في فرغانة ، وأخسكيث ، وفي سنة ٨٨ هـ غزا قتيبة نومشكت فصالحه أهلها ، وفي سنة ٨٩ هـ غزا بخارى ولكنه لم يتمكن من القضاء على ملكها ، فرجع . وتذكر المصادر ^(٢) ان الحجاج طلب صورها وما يحيط بها من جبال وسهول ، فبعث اليه فقال الحجاج له : « اثبتتها من مكان كذا وكذا » ، فعمل قتيبة بما أشار عليه الحجاج ، فاستطاع فتحها سنة ٩٠ هـ ، وفي السنة ذاتها فتح الطالقان ، وفي سنة ٩٣ هـ غزا ملك خوارزم فصالحه ثم توجه الى سمرقند ففتحها ، وفي سنة ٩٤ هـ غزا قتيبة الشاس وفرغانة ، ولما رجع جاءه نعي الحجاج فحزن لذلك ، وفي سنة ٩٦ هـ غزا بلاد الصين ووصل كاشغر ، ولما بلغه موت الوليد رجع بعد أن نشر الاسلام في المشرق وأباح للناس قراءة القرآن الكريم بالفارسية والتركية .

أما سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ (٧١٥ - ٧١٧ م) كان أول عمل قام به أنه أبعد جماعة الحجاج عن السلطة ، فعزل عثمان ابن حيان عن المدينة ، وولاه أبا بكر بن محمد بن حزم ، ثم عزل يزيد بن أبي مسلم عن العراق ، وولاه يزيد بن المهلب ، وأراد أن يعزل قتيبة بن مسلم فبعث اليه يهدده بالثورة ، فأقلع ، غير أن قتيبة لم يأمن غدر سليمان ووقعت فتن كثيرة انتهت بقتله ، فلما رأى بعض سكان خراسان ذلك قالوا للعرب : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منا فمات ، لجعلناه في تابوت ،

(٢) دكتور محمد أسعد طلس . مرجع سابق ، ص ١١٥ - ١١٨ نقلا عن ابن الأثير ، الجزء الرابع ، ص ٢٠٦ - ٢٢٢ .

فكنا نستقى به ، ونستفتح به ، اذا غزونا ، وما صنع أحد بخراسان مثل ما
صنع قتيبة ^(٣) .

وقام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٠ هـ بتولية يزيد بن المهلب بلاد
المشرق ، ففتح بلاد خرخان ، وطبرستان . ونفذ سليمان مشروع أخيه الوليد
بغزو القسطنطينية وبعث بمسلمة بن عبد الملك على رأس جيش وأسطول
كبير تمكن من بلوغ أسوار القسطنطينية ، وكادت الدائرة تدور على
الروم .

(٣) نقلا عن ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ٧ .

الفصل الثالث

من عمر بن عبد العزيز

(٩٩ - ١٠١ هـ / ٧٠٧ - ٧٣٠ م)

إلى ما قبل سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

- دور البصرة في فتح خراسان .
- دخول اعداد هائلة من سكان آسيا في الدين الاسلامي .
- حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز .

الفصل الثالث

من عمر بن عبد العزيز الى ما قبل سقوط الدولة الاموية

- دور البصرة فى فتح خراسان :

سبقنا الاشارة الى ما أحدثته الفتى والاضطرابات الطائفية من عدم استقرار سياسى انعكس على عملية الفتوحات الاسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا - موضوع هذه الدراسة - وكانت أهم المناطق التى تأثرت بهذه الاتجاهات منطقة خراسان برمتها وهى المنطقة التى ستحدث فى المستقبل تغييرات جذرية سلبية تجاه الدولة الأموية وتؤدى الى اسقاطها .

كما سبقنا الاشارة ^(١) ان خراسان كانت قد خضعت لسيطرة العرب المسلمين فى ثلاثينيات القرن الأول الهجرى ، ومن الناحية الجيويولتيكية فهى بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، فضلا عن أنها تشتمل على أمهات البلاد منها نيسابور ، وهراة ، ومرو ، وبلخ ، وطالقان ، ونسا ، وايبورد ، وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون جيحون ^(٢) .

وكان للبصرة دور أساسى فى فتح خراسان وخاصة فيما يتعلق بالقبائل المشاركة فى حركة استيطان خراسان من عرب الشمال وهم قيس وتميم

(١) لعل من أفضل الدراسات العربية الحديثة التى تعرضت للدور الذى قامت به خراسان فى اسقاط الخلافة الأموية : دكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ص ٣١٣ - ٣٢٦ حيث اعتمدنا على تحليلاته فى هذا الجزء .

(٢) راجع باقوت الحموى ، شهاب الدين بن عبد الله الرومى ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، معجم البلدان ، الجزء الثانى ، ص ٣٥٠ .

وربيعة ، وفى منتصف القرن الأول الهجرى قام زياد بن أبيه عامل العراق على المشرق بابعاد القيسيين من البصرة والكوفة فيما شبهه أحد المؤرخين المحدثين^(٣) بالنفى الى خراسان فى محاولة لتشتيت القوى لسياسية المعارضة للحكم الأموى . وقد أورد البلاذرى أن زيادا ولى السريع بن زياد الحارثى سنة ٥١ هـ خراسان وحول معه من أهل الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفا بعائلاتهم ، ومع ذلك فقد ظل التواجد الاسلامى العربى فى خراسان ذا تأثير هامشى فى التركيبة السكانية الخراسانية التى حازت التفوق العددي المطلق^(٤) .

وقد سبقت الاشارة الى أن المهلب بن أبى صفرت والى خراسان فى الفترة ٧٩ - ٨٢ هـ قد انتهج سياسة تدعيم الوجود العربى الاسلامى فى المشرق العربى وخاصة من أهل اليمن الذين كان ينتمى اليهم المهلب ، ومن ثم توافدت هجرات واسعة ومتكررة من العرب اليمنيين الى خراسان خاصة من قبائل الأزد وهمدان وكنده . ويؤيد يوليوس فلهوزن - فى مؤلفه القيم «الدولة العربية وسقوطها» - هذه الآراء حتى أنه يجد خراسان وكأنها نسخة أخرى من شبه الجزيرة العربية من توجهاتها القبلية المعقدة والمتشابكة ، حتى الانقسامات والتحالفات القائمة على المصالح قد بدت هى الأخرى ظاهرة فى التكوين السكانية الاسلامية الجديدة فى خراسان ، كالتحالف الذى قام بين الأزد اليمنية ، وربيعه القيسية فى مواجهة تحالف قيس وتميم من العرب الشماليين ، وتزامنت تطورت هذه التحالفات

(٣) الدكتور ابراهيم بيضون ص ٣١٣ .

(٤) المرجع نفسه نقلا عن البلاذرى ص ص ٣٩٨ - ٤٠٢ .

والتحالفات المضادة مع أفول نجم نفوذ ابن الزبير فى خراسان حيث أدى الصراع مع الأمويين على السلطة الى تشجيع التمرد القبلى ، وانعكس ذلك بالطبع على عرب خراسان من خلال التغيير المستمر للولاة فى خراسان ، فهم يمنيون اذا كانت ميول الخليفة يمنية ، وقيسيون اذا كانت ميول الخليفة قيسية ، ومرة أخرى يترك المهلب بن أبى صفرة من الأزديين اليمنية . وقتيبة ابن مسلم من القيسيين بصحات فترة ولايتهما على خراسان من خلال التورط فى المسألة العصبية ، غير أن ولاية الأول على خراسان ، كانت أكثر تأثيرا فى التركيب القبلى حيث أصبح للأزديين اليمنية الشأن القوى .

لقد شجع الموقع الجغرافى وخصوبة الأرض وراثتها فى استمرار التدفق القبلى العربى على خراسان ، وكان طبيعيا - ولو أن هذا حدث فى ببطء شديد - أن يمتزج السكان العرب والفرس والذى ظهرت بوادره فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز والذى وصفه أنس بن مالك قائلا : « ما صليت خلف أمام أشبه برسول الله من هذا الفتى عمر بن عبد العزيز .

ولى عمر الخلافة سنة ٩٩ هـ ، وسار بالناس سيرة الخلفاء الراشدين عدلا ، وانصافا ، ورأفة ، وكان أول عمل سياسى قام به هو استدعاؤه الجيش من بلاد الروم لما أصاب جنوده هناك وحث الناس على معونتهم ، ثم عزل يزيد بن المهلب عن العراق ، وولى البصرة عدى بن أرطاة الفزارى ، والكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد الخطاب ، وولى الجراح بن عبد الله الحكمى على خراسان ، وخفف الضرائب عن المسلمين وبخاصة الفرس الذين ارهقهم بنو أمية بها ، وكان يقول لعماله

« ان الله بعث محمدا ﷺ هاديا ، ولم يبعثه جابيا »^(٥) .

ورغم هذه السياسة العادلة ، فان بعض العناصر كالخوارج والعباسيين قد ثاروا عليه بعد عام من خلافته ، فبعث عمر بن عبد العزيز اليهم مسلمة ابن عبد الملك فى جيش من أهل الشام ، فأظهره الله عليهم^(٦) ، غير أن وفاة عمر قد مكنت الخوارج من تقوية أنفسهم فسيطروا فى مدة وجيزة على قسم كبير من بلاد العراق والجزيرة . أما العباسيون فقد استغلوا ميل عمر الى السلم وخرجوا عن مبايعته فى العراق وخراسان .

- دخول اعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الاسلامى :

الواقع ان دخول اعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الاسلامى جاء نتيجة الفتوحات الاسلامية فى العراق وفارس وبلاد الشام ، وظهرت بالتالى فئات جديدة هم المسلمون من غير العرب ، وقد أطلق عليهم فيما بعد «الموالى» الذين تمتعوا بالمعاملة الحسنة طوال فترة الخلافة الراشدة ، غير أن الدولة الأموية - باستثناء فترة خلافة عمر بن عبد العزيز - قد تعصبت الى العرب وأساءت معاملة «الموالى» مما جعلهم يشتركون فى كل ثورة ضد الحكم الأموى ، فانضموا الى الفرق الاسلامية المختلفة وأهمها الخوارج ، بل انهم اشتركوا فعليا فى ثورة من أشد وأخطر الثورات على الحكم الأموى وهى ثورة عبد الرحمن عبد الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان ، كما سبقت الإشارة .

(٥) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ص ١٩ - ٢٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ص ١٧ - ١٨ .

أما فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فرغم فترة خلافته القصيرة - سنتين وخمسة أشهر - الا أنه كان مضرب الأمثال فى الانصاف بين العرب والعجم والروم ، وروى ابن الأثير أنه كتب الى سليمان بن أبى السرى ، أمره على المشرق بوصيه خيرا بالعجم ، فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند : ان قتيبة ظلمنا وغدر بنا ، فأخذ بلادنا ، وقد أظهر العدل والانصاف ، فأذن لنا ، فليقدم وفد على أمير المؤمنين ، فأذن لهم ، فوجهوا وفدا الى عمر ، فكتب لهم الى سليمان أن أهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من ديارهم ، فاذا أتاك كتابى ، فاجلس لهم القاضى فلي نظر فى أمرهم ، فان قضى لهم ، فأخرج العرب الى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة ، فاجلس لهم القاضى ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم ^(٧) .

وكتب الى عبد الحميد أميره على الكوفة : « ان أهل الكوفة أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وان قوام الدين العدل والاحسان ... » . قال الطبرى ^(٨) : « الحق عمر بن عبد العزيز ذرارى الرجال الذين فى العطايا ، أقرع بينهم ، فمن أصابته القرعة جعله فى المائة ، ومن لم تصبه القرعة جعله فى الأربعين » .

أعاد عمر بن عبد العزيز - بهذه الصورة - الى الأذهان التجربة الرائدة للخلافة الراشدة ، وهى فى مراحل نموها وبدايات استقرارها من ناحية انعكاس العلاقة بين العرب الحاكمين وبين الشعوب التى خضعت لهم

(٧) ابن الأثير ، الجزء الخامس ، ص ٢٣ .

(٨) الطبرى ، الجزء الثانى ص ١٣٩ .

ولاسيما فى آسيا ، وأبرز ملامح هذه الصورة أنه لم يكن هناك ثمة تمايز بين العقيدة وأصحابها الأوائل ، الذين حملوها الى مناطق النفوذ الفارسى ، والبيزنطى ، فقد كانت العقيدة الاسلامية الاطار الجامع الذى استوعب مختلف هذه الشعوب . وجاءت حركة الفتوح الاسلامية فى مراحلها المتعاقبة وصولا الى عهد عمر بن عبد العزيز لتكبح جماح الأثر غير المشروع ، ويستدل من الخطابات التى كتبها الخلفاء لولايتهم على الأقاليم المفتوحة بالتصدي لهذه المشكلة ، وهناك مشكلة أخرى هى التصور الخاطيء لفريق من المستشرقين ^(٩) فى علاقة الأمويين بالموالى الذين

وضعوهم فى مرتبة الرقيق حسب تعبيرهم ، وقد رد أحد المؤرخين المعاصرين ^(١٠) أن هذا التصور مرفوض من جانب هؤلاء المستشرقين ، فكلمة « مولى » التى أطلقت على المسلم غير العربى ، خاصة من سكان آسيا ، لم يكن باعثها الاحتقار أو الاسترقاق ، بل كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة ، والموالة لها ، والالتزام بمواقفها سلما وحربا . والأهم من ذلك أن الرقيق بأشكاله الأوروبية فى العصور الوسطى والتى تمثلت فى نظام الاقطاع حيث عبودية الانسان لأخيه الانسان حتى بعد انتشار المسيحية واستمرار الرق كظاهرة اقتصادية واجتماعية تمسك بها اقطاعيو العصور

(٩) راجع على سبيل المثال :

- Boldziher, I : Le dogme et la loi de l' Islam Traduction de febix arin, paris 1920.
- Von Vloten G: Recherches sur la domination arabe. lechitisme et les croyances messianiques sous la khalifat des Omayyades Amesterdam, 1894.

(١٠) دكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ٣١٩ .

الوسطى ودافعوا عنها ^(١١) ، هذا الشكل من الرقيق لم تعرفه الحجاز ومكة قبل الاسلام ، فضلا عن أن الرق قد تحجم كثيرا فى ظل المجتمع الاسلامى ، الذى اتخذ خطوات جريئة فى تحرير الانسان ، خلافا للمجتمع الكسروى فى آسيا والذى عانت منه الطبقات « المطحونة » .

أثبتت الفتوح الأموية انجازات لا بأس بها ، غير أنهما - على حد رأى ييـضون ^(١٢) - قد صاحبها « ضمور الدور الاسلامى الى حد كبير » ، وكان الخليفة الذى تصدى لهذه المسألة الهامة هو عمر بن عبد العزيز الذى وعى جسامة الأخطار المهددة للنظام الأموى ، فكانه محاولاته الاصلاحية الجريئة تجاه منع الضرب غير المشروعة ، وعموما فقد سارت حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز على النحو الاتى :

أولا :

شهدت فترة خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ ، ٧٢٠ - ٧٢٤ م) استمرارية غزو مناطق من آسيا ، وفى سنة ١٠٢ هـ سار سعد بن عبد العزيز ابن الحارث بن الحكم بن أبى العاص أمير خراسان غزو الترك ، ففزاهم عند سمرقند ، وبلغ « بلخ » ، وغزا الصفد بسبب معاونتهم الترك . وفى السنة ذاتها غزا عمر بن هبيرة بلاد الروم ، وفى سنة ١٠٣ هـ عزل مسلمة بن عبد الملك عن خراسان والعراق وتولاهما عمر بن هبيرة الذى

(١١) راجع تفصيلا ادوارد جيون . اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . الجزء الثالث .

- دكتور سعيد عاشور ، أوروبا فى العصور الوسطى ، النظم والحضارة .

(١٢) دكتور ابراهيم ييـضون ، مرجع سابق ص ٣٣٠ .

عزل هو الآخر فى العام التالى ليتولاها سعيد بن عمرو الحرشى الذى عبر
النهر وغزا الصفد .

ثانيا :

شهدت فترة خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ ، ٧٢٤ - ٧٤٣ م) العديد من الأحداث ، وفى سنة ١٠٥ هـ غزا مسلم بن سعيد الكلابى أمير خراسان بلاد الترك ، وفى العام التالى توغل فى بلاد فرغانة ، وفى سنة ١٠٨ هـ قطع أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان النهر وغزا بلاد الختل والغور ، وفى سنة ١١٠ هـ أرسل أشرس بن عبد الله السلمى الى أهل سمرقند والصفد وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فقبلوا ، وفى سنة ١١١ هـ تولى الجنيد ابن عبد الرحمن ولاية خراسان فسار الى ما وراء النهر وقا تل الترك ووصل قرب (رزمان) من بلاد سمرقند ، وفى سنة ١١٢ هـ هاجم الجراح بن عبد الله الحكمى بلاد الخزر وتغلب على الترك غير أنه استشهد ، وفى سنة ١١٩ هـ غزا أسد بن عبد الله « الختل » وفتح قلعه وخدش التى هرب جيشها الى الصين .

وفى زمن هشام تصاعدت دعوة العباسيين بخراسان ، وكان زعيم الحركة بكير بن ماهان الذى وجه عمار بن يسار الى خراسان واليا على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وتسمى باسم خواشى ودعا الى محمد بن على ، فدخل الناس فى الدعوة ، وأخذت الشيعة العباسية تقوى فى خراسان سرا ، الى أن جاء أبو مسلم الخراسانى عبد الرحمن بن مسلم فاتصل بابراهيم الأمام ، فأرسله الى خراسان رئيسا للشيعة العباسية ، وكتب ابراهيم الى سلمة الخلال داعيته فى الكوفة يعلمه أنه أرسل أبا مسلم ، وكان

وصول أبى مسلم الى خراسان سنة ١٢٤هـ ، ومنذ ذلك الحين أخذ يعمل
فى الخفاء الى أن أعلن الدعوة سنة ١٣٢هـ^(١٣) .

ثالثا :

لم تشهد فترة خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك - عاما واحد -
(١٢٥ - ١٢٦هـ) عملا يذكر ، فلما خلفه يزيد بن الوليد بن عبد
الملك عشية مقتل سلفه الوليد ثار أهل حمص ، وأغلقت أبواب المدينة ،
وحلفوا أن لا يطيعوا يزيد ، وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن الحصين بن
نمير ، فسير اليهم يزيد أخاه فشتت شملهم . كما ثار أهل فلسطين
وطردوا عامل يزيد ، وولوا عليهم محمد بن عبد الملك ، فبعث اليه يزيد
سليمان بن هشام ابن عبد الملك فقتك بهم وأخذ بيعتهم للخليفة^(١٤) .

وبعد قتل الوليد استعمل يزيد على العراق منصور بن جمهور ، وكان
من الفيلاينية القدرية^(١٥) ، فدخل العراق ، وأرسل أميرا من قبله على
خراسان ، وقد وقعت كثير من الفتن فى خراسان .

ولقى الاسلام انتكاسة كبيرة تعرض ابن الأثير تفصيلا حيث قتل
المسلمون بعضهم البعض فى وحشية فى خراسان نتيجة للفتن بين اليمن
والقيس بالاضافة الى سائر أقاليم اليمامة . وقد اشتد أمر العباسيين فى
عهد . ولم تدم خلافته سوى ستة أشهر خلفه بعدها ابراهيم بن الوليد ولكنه

(١٣) الطبرى ، الجزء الثامن ، ص ٢٢٨ .

(١٤) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(١٥) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ١٦ - ١٧ وذلك لمزيد من التفصيل حول القدرية .

كان ضعيفا ، وكانت الأمور تزدد سوءا ، والأسرة الأموية منقسمة على نفسها ، ولم يطل عهده أكثر من سبعين ليلة ^(١٦) ، وخلفه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذى استمرت خلافته خمسة سنوات (١٢٧ - ١٣٢ هـ ، ٧٤٤ - ٧٤٩ م) تمكن خلالها من جمع أمر بنى أمية ، واستقامت له الشام ، أما العراق فقد بعث اليه بابن عمر بن هبيرة لقتال الخوارج حيث تمت هزيمتهم واستولى على العراق والماهين والجبل ، غير أن الشيعة العلوية والعباسية والخوارج أخذت تعمل بقوة فى الخفاء ، وتمكن مروان بن عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الذى سار بهم الى المدائن ، فدخل بلاد العجم ، واستولى على همدان ، وأصفهان ، والرى ، وظل يقوى من نفوذه ، غير أن أبا مسلم الخراساني تمكن من قتله سنة ١٢٨ هـ ، وسوف يصعد نجم أبى مسلم فى الفترة اللاحقة بتأجيجه نيران العصبية فى خراسان بين النزارية واليمنية وجعلهم يقتتلون ، ثم سار يقضى على نفوذ بنى أمية فى المشرق ، فقهر أمير خراسان ، واحتل مدن العراق ، واستولى على الكوفة سنة ١٣٢ هـ - كما سبقت الإشارة - حيث قتل مروان بن محمد ، وانقرض بالتالى الملك الأموى فى المشرق بعد حكم استمر من سنة ٤٠ الى سنة ١٣٢ هـ وكان ملكهم عزة فى تاريخ الاسلام لما فتحه العرب من اقاليم ، ونشروه من قواعد للدين الاسلامى الحنيف ، وقد تمكن بنو أمية من توطيد دعائم الدولة الاسلامية ، ولولا بعض السلبات من بعض الخلفاء لكان تاريخهم صفحة ناصعة وخاصة فى مجال العلاقات السياسية مع الأقاليم التى فتحوها رغم

(١٦) الطبرى ، الجزء التاسع ص ٤٦ .

قيام بعض الحركات الدينية والسياسية المناوئة كالخوارج والشيعة العلوية والشيعة العباسية والمعتزلة على نحو لا يتعلق بمجال هذه الدراسة^(١٧) .

لقد نجح الخلفاء الأمويون في جعل دور العراق دورا هامشيا في الصمود أمامهم ، لكنهم فشلوا - رغم جهودهم - في إنهاء دوره السياسي الذي أمتد حتى خراسان في المشرق ، وقد سبقت الإشارة تفصيل الى الأوضاع الجيوليتيكية لخراسان ودورها التاريخي المستقبلي بعد ذلك وخاصة حينما أصهرت العرب والفرس والترك في بوتقة واحدة نجحت الحركة العباسية التي ورثت السلطة في اضعاء حيوية جديدة على الاسلام الذي ظل على اشراقه .

ومع ذلك لا يمكن انكار الدور الهام للدولة الأموية خلال تعاقب خلفائها بعد معاوية ، وبالرغم من انقسامها وتفرق وحدتها عقب معاوية وخاصة ما حدث من الدولة الرومانية من طمعها في أرجاع البلاد التي فتحها المسلمون من قبل وتجدد الحروب بين المسلمين والبيزنطيين واشتراك الامبراطور البيزنطي بنفسه في القتال - الا أن ذلك كان حافزا أيضا لنشر الاسلام في آسيا وظهور قادة مسلمين عظماء في تاريخ الفتوحات في آسيا في هذه الفترة (وخاصة في بلاد السند) .

(١٧) لمزيد من التفصيل ، راجع دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الأول .

الفصل الرابع
محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند

- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفي .
- عودة الفتوحات الاسلامية النشيطة .
- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي (٩٢ - ٩٦ هـ)

الفصل الرابع

محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند

- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفى :

كان عصر خلافة الوليد بن عبد الملك والفترة اللاحقة - كما سبقت الإشارة - هى قمة الفتوحات الاسلامية فى آسيا من خلال ذبوع صيت العديد من القادة العظام وخاصة فى فتوحاتهم فى السند وهم : قتيبة بن مسلم الباهلى ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك ، ثم أشهر الفاتحين قاطبة لبلاد السند وهو محمد بن القاسم الثقفى .

قام الحجاج بن يوسف الثقفى بتولية القائد قتيبة بن مسلم سنة ٨٦هـ على خراسان ، فخرج الى بلخ وعبر النهر وأتم فتح مدينة « بيكنج » سنة ٨٧هـ وغنم منها مغانم كثيرة ، وفى سنة ٨٨هـ استخلف أخاه بشار بن مسلم على مدينة مرو - عاصمة خراسان - الذى فتح بلاد كرمينة - الأقاليم الواقعة بين بخارى وسمرقند - ثم سار الى بخارى وفتحها ، فى حين فتح قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند نفسها سنة ٩٣هـ ثم اتجه الى مدينة خجند - من بلاد فرغانة وهى مجاورة لتركستان الغربية - وتمكن من فتحها ، ثم فتح مدينة كاشان عاصمة فرغانة .

علم قتيبة بن مسلم الباهلى ب وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك خلال فتوحاته فى آسيا فلم يمنعه هذا من مواصلة جهادة حتى اقترب من الصين ، فبعث له ملك الصين بالجزية وعاد قتيبة الى خراسان . أما موسى بن نصير فقد فتح بلاد الأندلس - وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة -

أما القائد مسلمة بن عبد الملك بن مروان فقد كانت له جهوده المتواصلة مع الروم فى آسيا الصغرى حيث فتح الكثير من معاقلها - كما سبقت الإشارة - ومهد لفتح القسطنطينية .

غير أن أكثر هؤلاء القادة بروزا وأهمهم على الإطلاق فى فتح بلاد السند فهو القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى الذى سوف يحقق شهرة واسعة فى بلاد السند والبنجاب - باكستان حاليا - وكانت هذه البلاد الممتدة من حدود إيران غربا الى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى - كانت ملجأ للمتمردين العرب ضد الدولة الأموية ، وكان يخرج منها بعض القراصنة للاغارة على السفن التجارية العربية - ولم يستجب ملكهم داهر لطلب المسلمين ردهم الأمر الذى دعا والى العراق الحجاج بن يوسف أن يلح على الخليفة الوليد بن عبد الملك ليأذن له بفتح بلاد السند من الداخل ليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الاسلامية ، ولما استجاب الخليفة أعد الحجاج حملة كبيرة وجعل قيادتها لصهره وابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى الذى - بفتح بلدان السند ومدنها الواحدة تلو الأخرى - دانت له جميع بلاد السند والبنجاب واقام دولة عربية اسلامية استمرت تدين للعرب حتى سنة ٤١٦هـ وقبل أن نستعرض فتوحات محمد بن القاسم الثقفى لبلاد السند والبنجاب فى الفترة (٩٢ - ٩٦هـ) يجدر بنا أن نذكر فى عجلة الولاية العرب لاقليم مكران ببلاد السند فى الفترة (٤١ - ٩٢هـ) لارتباط ذلك ارتباطا وثيقا مباشرا بمجال هذه الدراسة .

فقد شهدت فترة خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠هـ) ولاية العديد من حكام العرب لهذه المناطق واهتمامه باقليم مكران والسند ، ففى عهده عين والى العراق عبد الله بن عامر على ثغر السند ، - أى اقليم مكران - واليا جديدا هو المهلب بن أبى صفرة فى سنة ٤٤هـ والذى قاتل

أهل القيقان ، وينقل البلاذرى ^(١) صاحب فتوح البلدان عن المهلب قوله : « ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتبشير منا ؟ » فخذف الخيل ، وكان أول من خذفها من المسلمين ، واتجه عن طريق ممر خيبر قرب بشار - عاصمة الاقليم الشمالى الغربى لباكستان حاليا ، والمجاورة لأفغانستان - وكان بذلك أول قائد عربى يقوم بفتوحاته من هذه الناحية حيث كان ممر خيبر بابا هاما من أبواب شبه القارة الهندية منذ القدم .

ثم تولى عبد الله بن سوار بن همام العبدي (٤٦ - ٤٩ هـ) حكم مكران - ثغر السند وهى كراتشى حاليا - ورغم انتصاراته الفاتكة هناك الا أنه قتل فى احدى المعارك ليخلفه راشد بن عمرو الحديد الأزدي (٥١ - ٥٣ هـ) بعد فترة اضطرابات استمرت سنتين فى مكران ، وحارب مشاغبي منطقة القيقان فى حملة ناجحة حتى استشهد ، فأمر زياد بن أبى سفيان والى العراق بتولية سنان بن سلمة الهذلى على حكم مكران لأنه كان مناضلا وابن صحابى جليل ، وقد حكم سنان فى الفترة ٥٣ - ٥٧ هـ ، وكان الرسول ﷺ ، الذى ولد سنان فى عهده ، قد قال لأبيه : « أبشر بابنك ، وسماه سنانا ، وفتح سنان مناطق جديدة بين مكران والقيقان واستشهد هناك ، حيث تولى عياد بن زياد (٥٧ - ٥٩ هـ) وتوجه بجيشه نحو مكران ونجح فى حملاته هناك ثم عاد الى خراسان .

فى سنة ٥٩ هـ اختار زياد بن أبى سفيان والى العراق لحكم مكران - أبيا الأشعث المنذر بن الجارود المبدى - (٥٩ - ٦٣ هـ) ، والذى زحف بجيشه الى القيقان ثم البوقان فاخضعهما ، وأقام فيهما معسكرا عربيا

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٠ - ٥٣٤ .

منظما كبيرا ، وفتح قصدار وتولى سنة ٦٣ هـ ليخلفه ابنه الحكم بن المنذر ابن الجارودي المبدى (٦٣ - ٦٤ هـ) ولا يذكر التاريخ شيئا عن انجازاته فى مكران ، وتولى حرى بن حرى الباهلى (٦٤ - ٦٨ هـ) وفتح بعض المناطق المجاورة لمكران وأخضع أهل مدينة قصدار من جديد ، وقضى على فتنة مدينة البوقان رغم أن أهلها كانوا مسلمين كما يذكر البلاذرى .

وعند تولى الخليفة عبد الملك بن مروان حكم الدولة الأموية فى الفترة (٦٥ - ٧٥ هـ) فقد انشغل عشر سنوات بالفتن الداخلية وربما يفسر ذلك أهماله أمر مكران ببلاد السند ، حتى تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٥ هـ حكم العراق والولايات الشرعية وكانت أمور بلاد السند مسندة اليه فقام بتعيين سعيد بن أسلم ابن زرعة الكلابى ولاية مكران ، وقام الوالى الجديد^(٢) بتنظيم أمورها الادارية والمالية غير أن مثيرى الفتنة المعروفين بالعلافين قتلوه فغضب الحجاج لسماع نبأ مقتل سعيد بن أسلم الكلابى وتولى مثيرى الفتنة المعروفين بالعلافين لحكم مكران بتأييد من داهر ملك السند ، وأعد الحجاج جيشا للقضاء على المتمردين بقيادة مجاعة بن سعر التميمى ، ولما سمع العلافون بقرب قدوم هذا الجيش القوى تركوا مكران هاربين ، واستطاع مجاعة التميمى إعادة الحكم العربى لمكران .

- عودة الفتوحات الاسلامية النشيطة :

عادت أيام الفتوحات الاسلامية النشيطة فى فترة خلافة الوليد بن عبد

(٢) راجع : البلاذرى ، فوح البلدان ، الجزء الثالث ص ص ٥٣١ - ٥٣٣ .

- تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ص ٤١ - ٤٣ ، تاريخ يعقوبى ، الجزء الثانى ص ص

٢٧١ - ٢٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ص ص ٢١ - ٢٧ .

الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، وظهر قواد عظام فتحوا بلادا عظيمة كبلاد التركستان ووصلوا الى عمق بلاد السند واتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا ، وقام الحجاج بن يوسف الثقفى بتعيين محمد بن هارون النمرى (٧٦ - ٩٢ هـ) على ولاية مكران ، ثغر السند ، الذى فتح المناطق المحيطة بمكران . غير أن تصرفات القراصنة وهجماتهم على السفن التجارية العربية بين الحين والحين واستفزازاتهم المستمرة جعلت الحجاج يشتد غضبه - لاسيما بعد أن رفض داهر ملك السند الافراج عن سيدات مسلمات كن فى طريقهن للحج فى سفن قادمة من سيلان - وجهز جيشا عربيا بقيادة عبيد الله بن نيهان السلمى ، غير أن الحملة فشلت ، فجهز جيشا آخر بقيادة القائد بديل بن طهفه البجلي سنة ٩١ هـ وأصر على انقاذ النسوة المسلمات ، وسار الجيش برا الى عمان ثم ايران ومنها الى اقليم مكران ودارت معركة عنيفة بين العرب وجيش داهر ملك السند ، انهزم الجيش العربى على اثرها ، وهو ما جعل الحجاج يشعر أكثر بالغضب وأقسم على استمرار الغزو الاسلامى لبلاد السند وفتحها ونشر الاسلام فى ربوعها ، ووافق الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد تردد ، ويذكر البلاذرى أن أسباب موافقة الخليفة كانت أسبابا سياسية وأخرى غير سياسية^(٣) وكان قائد الجيش هذه المرة محمد بن القاسم الثقفى الذى سيلمع نجمه مستقبلا .

- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفى (٩٢ - ٩٦ هـ) :

اختلفت المصادر حول سنة حملة محمد بن القاسم الثقفى على بلاد السند والبنجاب ، وتذكر بعض المصادر أنه وصل الى مكران فى أواخر سنة

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٢ - ٥٣٧ .

٩٢ هـ ، فى حين تذكر مصادر أخرى أنه قام بحملته فى الفترة ٩٤ - ٩٥ هـ ، وعموما فقد سار محمد بن القاسم بجيشه الى الشيراز ، وكان سنه لايتجاوز السابعة عشر ولكن الحجاج كان معجبا بشجاعته النادرة وخلقه الكريم ، وواصل سيره الى اقليم مكران مستعدا للزحف الى داخل بلاد السند ، وبدأ بالمدن الواقعة فى غرب نهر السند^(٤) ثم قذبور - عاصمة اقليم مكران قبل الفتح العربى - وفتحها وقرر الزحف نحو الديبل - حيث النسوة المسلمات محتجزات - واستولى على معبد بوذى كبير نظرا لأهميته القصوى فى العقيدة البوذية كما استولى على حصن توى وأنقذ النسوة المسلمات وعفا عن الكثيرين ممن اعتنقوا الاسلام لأنهم كانوا مؤمنين بأن العرب سيفتحون الديبل ، كما أحسن محمد بن القاسم الثقفى الى الأهالى ، وأسكن أربعة آلاف من العرب هناك وبنى لهم مسجدا ، وعين حميد ابن وداع النجدى حاكما على الديبل ، وانتهى تماما من فتحها وتنظيم أمورها ليتفرغ لفتح مدينة النيرون .

(٤) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، مرجع سابق ص ١٦٤ - ١٦٦ - نقلا عن : مولانا أبو ظفر ندوى الهندى ، تاريخ سنه (باللغة الاردية) ١٩٤٧ ، رجموار فان مولائى السندى ، تاريخ تمد سند (تاريخ حضارة بلاد السند) . حيدر آباد ، السند ، باكستان ١٩٥٩ م ، ولا يذكر البلاذرى سنوات الحملة وان كان تسلسل أحداثه يتفق والمصادر الباكستانية ، ويذكر ابن الأثير السنه التى قتل فيها داهروى سنه ٨٩ هـ ويستنتج الطرازى من ذلك ان محمد بن القاسم وصل مكران سنه ٨٨ هـ وان هذا ليس بصحيح ، أما الطبرى فيجعل مقتل داهر سنه ٩٠ هـ ثم يذكر فى حوادث سنه ٩٤ هـ بأن محمدا بن القاسم فتح أرض السند ، ثم يذكر فى حوادث ٩٥ هـ بأنه فتح آخر الهند مدينة الكبرج ومعنى ذلك - كما يضيف الطرازى - ان الطبرى جعل وصول ابن القاسم سنه ٨٩ هـ .

سار محمد بن القاسم الثقفى الى النيرون - الآن مدينة حيدر آباد -
وكان أهلها متحصنين داخل مدينتهم ، وحاصر المدينة حيث استسلم واليها
البوذى الذى أخبره أنه وأهل المدينة صاروا من أتباع العرب وبنى ابن القاسم
مسجدا للمدينة وعين عليها واليا عربيا ، ثم تحرك بعد ذلك الى اقليم
سيوستان ، وكان سكانها بوذيين وحاكمها برهمى المذهب ، وشعر السكان
بالخوف من قوة المسلمين فاستسلموا بعد هروب حاكمهم ، ودخل محمد
بن القاسم المدينة فاتحا ، وما يجدر ذكره أنه قد دخلت جماعة كبيرة من
البوذيين من أهل السند الى الدين الاسلامى الحنيف .

سار محمد بن القاسم متجها نحو منطقة البودھية ، ولما سمع أميرها
بقدومه تقدم اليه مع قواده وبايه ، وخلع عليه خلع التشريف حسب تقاليد
ملوك السند ، ثم قمع محمد بن القاسم حركة المتمردين بمساعدة أمير
هذه المنطقة وأقام ابن القاسم فى قلعة سيسم عند الطرف الغربى لبحيرة
ماندھر حيث دخل المسلمون المدينة ، وقاتل العرب المتمردين هناك
وهزمهم ، وقام ابن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البودھية وفرض الخراج
على أهلها ، وأسكن جماعات من العرب فى مناطق عديدة ، وبنى لهم
بعض المساجد .

حث الحجاج بن يوسف الثقفى ابن اخيه محمد بن القاسم الثقفى
على سرعة الحركة داخل السند وأوضح له درسا هاما فى علوم السياسة
للحصول على السلطة من خلال وسائل أربع وهى : المداراه أو المساهمة أو
المصاهرة ثم بذل المال والعطية ثم رأى الصائب فى محاربة الأعداء ومعرفة
أمزجتهم ونقط ضعفهم ثم الرعب والهيبة والقوة والشهامة وأكد عليه عبور

النهر قبل العدو حتى يدخل الرعب فى القلوب ويثبت تفوقه ، وبين الحجاج أيضا الهدف من الفتح ، وأساليب معاملة الرعية ، سواء من يدخل منهم الاسلام أو لم يدخل وكيفية الحصول على الجزية والخراج ، وكان لهذه الرسائل أهميتها القصوى سياسيا وعسكريا فى نجاح محمد بن القاسم .

عاد ابن القاسم الى النيرون وتوجه نحو مدينة أشبهار حيث حدثت مواجهة مع أهلها الذين انضم اليهم قوم الرط من سكان النيرون ، غير أن ابن القاسم أعطاهم الأمان وفتح القلعة ، ثم تقدم نحو نهر السند حتى وصل الى الضفة الغربية للنهر فى مقابل جيبور ومدينة راور - جنوب شرقى مدينة حيدرآباد حاليا - ، وقد وصلته رسالة من حاكم منطقة بت - جزيرة صخرية تسمى بهاكر أو بكهر وهى من معالم بلاد السند - يخبره فيها أن بلاد السند ملك لآبائه وأجداده ، كما أن صلة القرابة تربط بينه وبين الملك داهر ، وأضاف حاكم منطقة بت - وهو بوذى - قائلا : ان الدلائل الحرية تشير الى أن بلاد السند ستنتقل للعرب ولذلك فهو مستعد للتعاون ، ورحب محمد بن القاسم بالتعاون معه وترك له حكم منطقة بت - أرسل محمد بن القاسم مبعوثه العربى المعروف بالشامى الى الملك داهر قائلا له ^(٥) : « أن أميرنا محمد بن القاسم قد ترك لك الحرية فى أن تختار

(٥) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ١٨٠ نقلا عن جرائده ص ١٥٧ بالفارسية وقد ألفه عالم عربى باللغة العربية بعنوان « منهاج الدين والملك » أواخر العصر الأموى ، بلاد السند : عنوان النسخة العربية الأصلية مفقودة . وتعتبر النسخة الفارسية المترجمة . ومن الملاحظ أن الطرازى قد اعتمد بصفة أساسية على هذه النسخة فى مؤلفه القيم المشار اليه (الباحث) .

عبور النهر اليه أو تسمح للعرب بالعبور حتى يتقابل الفريقان في ساحة القتال مادمت لا تريد التسليم أو الصلح ، وكان أمام الملك داهر رأيان أما أن يعبر هو أو أن يعبر محمد بن القاسم ، واستقر الرأي على ترك الاختيار للعرب ، فقرر ابن القاسم عبور النهر ، ووقف بجيشه على الشاطئ الغربي ، ووصلته رسالة من الحجاج بن يوسف الثقفي ينصحه بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور وطلب منه ارسال خريطة للنهر لدراستها .

من ناحية أخرى استعد الملك داهر للقتال ، وبينما كان محمد بن القاسم يستعد لعبور النهر علم أن الحاكم الأسبق لاقليم سيوستان قد استولى على القلعة التي كانت في أيدي المسلمين وطردهم منها ، فأجل محمد بن القاسم عبور النهر واستولى على القلعة وعين عليها واليا ونوابا اقوياء . ثم تحرك بجيشه الى منطقة جهم - تقع أمام مدينة روهري - الواقعة بجوار نهر السند ، ومرة أخرى تعطله الاضطرابات والفتن ضد العرب في سيوستان ، وواجه جيش ابن القاسم صعوبات كبيرة منها نفاذ المؤن الغذائية واصابة الخيول بالمرض فضلا عن صعوبة المناخ وحرارته الشديدة مما أدى الى اصابة كثير من أفراد الجيش العربي بأمراض نفسية ، غير أن الايمان القوى كان هو الحافز أمام الجيش العربي بالمثابرة ، وعرض الملك داهر الصلح وتقديم المساعدة الغذائية للعرب في لهجة تتسم بالتهديد والوعيد ، ولكن محمد بن القاسم كرر قولته المشهورة : « لن أترك ارض السند قبل أن أرسل رأس داهر الى الحجاج بالعراق » .

شجع الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم بتعيينه نائبا عنه في بلاد السند ، وحذره من الصلح محفزا اياه على القضاء على داهر مهما كلفه

الأمر ، وإن عبور نهر السند يكون - حسب دراسة الحجاج للخريطة كما سبقت الإشارة - عند منطقة بت حيث يقل الماء فيسهل العبور . وكان داهر متغافلا عن تحركات العرب . وفي تخطيط عسكري دقيق سار محمد ابن القاسم الى الشاطئ وبنى جسرا لعبور قواته حيث اندفعت هذه القوات فى بسالة داخل بلاد السند وكان النصر لهم ، واقترب الجيش العربى من العاصمة السندية ، وفشلت جهود الملك داهر وجيوشه فى مواجهة الجيش العربى رغم قيادته بنفسه لهذه الجيوش ، وفى ٩ رمضان سنة ٩٣هـ بدأت المعركة ، وعلم الملك داهر أهمية الفيلة وخطورتها على العرب فأمر بهجوم شامل وعنيف من الفيلة والفرسان على العرب الذين اضطربوا ، لكنهم سرعان ماسيطروا على المعركة حين ناداهم محمد بن القاسم يحثهم على الجهاد والصبر ، فقاموا بحملة شديدة على جيش السند .

خرج الطرفان للقتال فى ١٠ رمضان سنة ٩٣هـ وبلغ جيش السند نحو مائة وخمسة وعشرين ألفا ، وفى المواجهة كان القائد العربى الشاب محمد بن القاسم الثقفى على رأس جيش قوامه نحو خمسة عشر ألفا فقط ، وحث القائد العربى جيشه على الجهاد فى سبيل الله وتحمل الشدائد ، وكان الجيش العربى على مستوى عال من التدريب والكفاءة القتالية والاعداد الجيد ، وفى أثناء القتال توجهت جماعة من قواد السند وجنودهم نحو القائد محمد بن القاسم فأعطاهم الأمان وأعلنوا أسلامهم لديه ، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الاسلام برغبتها فى أيام الفتوحات .

ونظرا لأن القوانين لم تكونا متكافئتين فإن حملة الجيش السندى

قد اشتدت على المسلمين في محاولة مستميتة لدرجة أن محمد بن القاسم قد اضطرب من هول المعركة ، لكنه تماسك وأطلق صيحة قوية مليئة بالايمان بالله ، وشجع جنوده على استمرار القتال والثبات ، وانتهت هذه المعركة المصيرية الدامية في المساء بانتصار المسلمين^(٦) ، وكان داهر قد قتل فقطع الجنود المسلمون رأسه وأتوا بها الى محمد بن القاسم ، وكتب محمد بن القاسم الى الحجاج والى العراق يخبره عن قتل داهر ، وبعث بها اليه ، وأمر الحجاج القائد الشاب محمد بن القاسم بفتح بقية بلاد السند ، الذى قام بالفعل بفتح راور وهرمناباد ، وبهرور ، ودهليلا ، ثم فتح برهمناباد - برهمنا آباد - والأخير اقليم كبير من أقاليم بلاد السند الأربعة - وأمر جيشه باحترام البراهمة - رجال الدين البرهمى - وسمح لهم باقامة شعائرهم الخاصة بهم ، وقام بتنظيم أمور هذه المدينة الحصينة «برهمناباد» ، وكتب رسالة الى الحجاج بهذه الانجازات .

وكانت الخطوة التالية هى اخضاعه لقبائل الزط ، والسمة ، والسهته في اقليم برهمناباد ، حيث كانت هذه القبائل تعيش على السلب والنهب ، وقد حذرهم محمد بن القاسم بالعقاب الشديد اذا مارسوا هذه الأعمال ووضع قيودا على تصرفاتهم وتحركاتهم وأخذ منهم عهدا لاستقرار الأمن والطمأنينة فى البعد وبذلك قبل الزط طاعة المسلمين ، والواقع أن محمد بن القاسم قد أثر فى هذه القبائل تأثيرا بالغاً بادماجهم فى المسلمين وحتى

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ص ٥٢٤ - ٥٢٧ .

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ٨٩ هـ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٦٠ .

- اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، ص ص ٢٧٥ - ٢٧٨ .

من لم يدخل الاسلام منهم فقد تحسنت عاداتهم وتهذب سلوكهم الى حد بعيد ، وأعاد ابن القاسم تنظيم أمور هذه القبائل والاقاليم التى يسكنون فيها وتعيين حكام جدد لهذه الاقاليم لأسباب سياسية واجتماعية منها تأكيد سيطرته على البلاد ، والتعامل مع المتمردين باسكانهم مناطق بعيدة .

بعد أن انتهى محمد بن القاسم من فتح برهمناباد وتنظيم أمورها الاقتصادية والدينية والاجتماعية ، واخضاع القبائل المختلفة فى مناطق اقليم برهمناباد ، فقد سار نحو مدينة أرور للمملكة السندية بما فيها من حصون عسكرية لها أهميتها الاستراتيجية ، غير أن فتح هاتين المدينتين لابد أن يسبقهما فتح مدينة منهل ، ومدينة هراور - وهما مدينتان صغيرتان تقعان بالقرب من كل من أرور والمثلثان - فضلا عن ذلك هناك مدينتان أخريان هما بسمد وساوندري . ويذكر البلاذرى أن محمد بن القاسم قام بفتحهما ، وهما بالقرب من أرور .

وفى أوائل سنة ٩٤هـ حاصر محمد بن القاسم مدينة أرور (الور) العاصمة لمدة شهر وكان حاكمها الامير قوفى بن داهر - الذى قتل أبوه وأرسلت رأسه الى الحجاج - وقد هرب ليلا مع أسرته الى مدينة جيپور الواقعة على الحدود الهندية ، وانشغل محمد بن القاسم فترة من الوقت بتنظيم أمور مدينة أرور وبنى بها مسجدا كبيرا ووضع الخراج على سكان المدينة ونصح بتعاون العرب من أهل السند لنشر الأمن حيث اعتنق الكثير من سكانها الاسلام .

توجه محمد بن القاسم لفتح مدينة باتيه (بايه) والتى تقع على الشاطئ الجنوبي لنهر بياس ، وقد عرض عليه حاكمها الطاعة لابن القاسم

الذى قبل ذلك منه وعينه مستشارا سياسيا له وفوض اليه الأمور المالية ، وكان هذا الحاكم - الأمير ككسه - خير معين لمحمد بن القاسم فى غزواته التالية ، وبعد ذلك فتح محمد بن القاسم مدينة اسكلنده بعد معركة مع سكانها وولى عتبة سلمة التميمى حاكما عليها ، ثم توجه نحو قلعة سكة الحصينة - وهى منطقة عسكرية قريبة من مدينة الملتان - ووقعت حرب دامية مع سكانها استشهد فيها نحو ثلاثمائة جندى من أهل الشام نظرا لأن القلعة كانت محصنة ومنيعة ، فلما استولى عليها محمد بن القاسم أمر بهدمها ^(٧) ، ثم زحف القائد العربى الى مدينة الملتان المعروفة بفتحها ونواحيها باقليم البنجاب حيث قتل نحو ستة آلاف جندى ملتانى ووقع الكثيرون فى الأسر فاستسلم سكان المدينة ^(٨) ، وقد سميت الملتان بمرج بيت الذهب نظرا لما غنمه المسلمون من غنائم كثيرة من الذهب من معبدها الذى استأثر باهتمام الجغرافيين والمؤرخين العرب من النواحي السياسية والمذهبية والاقتصادية ، ويذكر البلاذرى وابن الأثير أن أهل بلاد السند كانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ^(٩) ، وقام محمد ابن القاسم بتنظيم الأمور المالية والعسكرية والمذهبية فى الملتان وأخذ الموائق والعهود من أعيان المدينة بالطاعة والتعاون المشترك مع العرب لرعاية الشعب وفى الوقت الذى تفرغ فيه من أمور الملتان ، وكاد ينتهى من فتح النواحي النائية لبلاد السند والملتان وصله خبر وفاة الحجاج فى سنة ٩٥ هـ وتأثر

(٧) البلاذرى ، فوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٦ - ٥٣٩ .

(٨) المرجع نفسه ص ٥٣٨ .

(٩) المرجع نفسه ص ٥٣٨ ، وراجع ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة

٨٩ هـ ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٥٩ - ٦١ .

بشدة ، وبعد أن كانت وجهته التالية هى بلاد كشمير التى كانت تحمى
أمراء السند وتمدهم بالقوة العسكرية ضد العرب ، فقد قرر العودة الى أرور
لمتابعة الأحداث السياسية الجديدة فى دار الخلافة ، غير أنه وجه جيشا الى
مدينة البيلمان - مدينة صغيرة بجوار مدينة الور الكبيرة - فأخضعها ، كما
أخضع مدينة سرست - بجوار الور أيضا - والتى كانت مقرا لقبائل الميد
المعروفين بقطع الطرق والنهب فى البحر وايداء المسافرين ، وبذلك تم تأمين
السفن التجارية المارة بهذه النواحي - مثل ميناء الديبل - فى طريقها من
بلاد العرب الى بلاد السند .

قام محمد بن القاسم - رغم وفاة الحجاج - بمواصلة جهوده فى فتح
بقية بلاد السند ، ومنها الكيرج - اقليم يقع على حدود السند - ثم توجه
الى حدود بلاد كشمير وتوغل فيها عازما على فتح اقليم قنوج المهم فى
موقعه على الحدود والتابع سياسيا للهند ، وقد وصل فعلا الى مشارف هذا
الاقليم ، غير أنه لم يتمكن من فتحه - وهو آخر جزء من بلاد السند -
حيث وصلت اليه الأوامر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بالعزل والقاء
القبض عليه وارساله الى العراق . ويعزى المؤرخون سبب ذلك الى الكراهية
التي حملها سليمان بن عبد الملك ضد افراد اسرة الحجاج واقربائه ، لأن
الحجاج تمكن من الحصول على موافقة الولاة والحكام على خلع
سليمان ، ولولا وفاة الحجاج لكان مجرى الأحداث قد تغير ، وهو ما جعل
سليمان بن عبد الملك يذيق أسرة الحجاج ألوانا من العذاب حتى قتل
الكثيرين منهم ومنهم محمد ابن القاسم نفسه .

وقد بكت شعوب شبه القارة الهندية محمد بن القاسم تقديرا لبطولاته

واقاموا له تمثالا رائعا فى مدينة الكيرج ، وبمقتله ترقف الزحف المقدس ،
وفقد العالم الاسلامى قائدا مسلما شجاعا ، عظيما استطاع أن يفتح بلاد
السند كلها فى أقل من ثلاث سنوات وترك بصماته البيضاء عليها متمثلة
فى المساجد الكبيرة فى المدن الاسلامية ، ولاتزال الملايين من مسلمى شبه
القارة الهندية يتذكرون اسم هذا البطل .

الفصل الخامس
بلاد الهند بعد محمد بن القاسم

- اضطراب الأحوال السياسية .

الفصل الخامس

بلاد السند بعد محمد بن القاسم

- اضطراب الأحوال السياسية :

مات الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٩٥ هـ (٧١٤م) وهو لم يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاما ، وكانت مدة ولايته على العراق والولايات الشرقية للخلافة الأموية عشرين عاما ، منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي مات سنة ٩٦ هـ (٧١٥م) بعد ستة أشهر من وفاة الحجاج ، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك في السنة ذاتها بعد أن كاد يحرم من حقه في الخلافة بسبب رغبة الخليفة السابق الوليد بن عبد الملك تحويل الحكم الى ابنه ، غير أنه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد لم يتم التتويج رسميا لابن الخليفة السابق ، وتولى الخلافة سليمان ابن عبد الملك باعتباره ولي العهد الشرعي . وقد انعكست هذه الأحداث على بلاد السند والبنجاب منذ خلافة سليمان بن عبد الملك حتى خلافة مروان ابن محمد بن مروان الأموي ٩٦ - ١٣٢ هـ وذلك حسب التسلسل الآتي :

أولا :

طوال عشر سنوات ابتداء من عهد الخليفة سليمان الى عهد الخليفة هشام ، اضطربت الأحوال السياسية في بلاد السند ، وتدهورت أوضاعها وخاصة بعد انتهاء حكم محمد بن القاسم مباشرة ، حيث قامت الفتن والثورات ضد العرب ، ولم يقيم معظم ولاة العرب ببلاد السند بأعمال تذكر

وخرجت مناطق عديدة من أيدي العرب بسبب الاضطرابات السياسية في الدولة الأموية وما عكسته من خلافات قبلية وعصبية بين العرب أنفسهم في بلاد السند .

تولى يزيد السكسكى سنة ٩٦هـ حكم بلاد السند والعمل الوحيد الذى قام به هو القبض على محمد بن القاسم الذى سلم نفسه بلا مقاومة اطاعة لأوامر الخليفة ، وبوفاة السكسكى ، تولى حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الذى واصل سياسة محمد بن القاسم بمحاربة أهل مدينة الور العاصمة وهزمهم واخضع مناطق أخرى ، ولم يمهله الوقت لغزو برهمناباد حيث عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ^(١)) بتهمة الاشتراك فى المؤامرة مع أخيه ضد الخلافة فى سنة ٩٩هـ ، حين كانت الخلافات القبلية السياسية بين العرب قد انعكست نتائجها على أحداث بلاد السند والعرب المقيمين بها .

ثانياً :

استطاع عمرو بن مسلم الباهلى الذى حكم بلاد السند سنة ٩٩هـ - فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - أن يسيطر على بلاد السند ، ويقضى على الفتن الباقية ، كما غزا بعض المناطق مثل كش « كجه » وأخضعها للحكم العربى ، وقد بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ برسائل رقيقة الى أمراء السند وقوادها يدعوهم الى الاسلام وأن يبقوا فى مراكزهم

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٩ - ٥٤١ .

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ٩٥ هـ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ، ص ٦٦ .

الحكومية ولهم مثل ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، وقد أثرت السيرة الحسنة للخليفة على أمراء السند وزعمائها فاعتنق كثير منهم الاسلام ومنهم الأمير جيسبه بن داهر الذى حكم اقليم برهمناباد ثلاثة سنوات ، وقبل آخرون دفع الجزية والخراج مع البقاء على دينهم ، وهكذا قلت الفتن والاضطرابات السياسية فى عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، فلما تولى الخلافة يزيد الثانى (١٠١ - ١٠٥ هـ) حدثت فى عهده موجات عنيفة من الفتن واستطاع حبيب بن المهلب أن يهرب من السجن - وكان متهما بالتآمر على الخلافة كما سبقت الاشارة - واستولى على الولايات الشرقية التابعة للدولة الأموية ، كما غزا جيشه مكران ، ومدينة قنڊايل ، لكنه قتل مع أخيه يزيد فى حربه ضد الخليفة فى البصرة .

ثالثا :

عين الخليفة يزيد الثانى بن عبد الملك الأموى (١٠١ - ١٠٥ هـ) ، هلال بن أحوز التميمى على بلاد السند ، واستمر هلال مدة خمس سنوات حارب فيها من تبقى من آل المهلب لخطورتهم على الدولة الأموية ، واستطاع أن ينشر الاستقرار حتى عزله الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) الذى تمكن بحزمه من القضاء على الفتن السياسية والخلافات القبلية ، وانعكس ذلك على استمرار الفتوحات فى المناطق الجديدة فى الشرق .

اختار الخليفة هشام بن عبد الملك قائدا عظيما لحكم بلاد السند هو الجنيد بن عبد الرحمن المرى (١٠٧ - ١١١ هـ) وأراد دخول برهمناباد

فمنعه الأمير جيسيه من دخولها قائلا ^(٢) : « انى قد أسلمت وولانى الخليفة الصالح - عمر بن عبد العزيز - بلادى ، ولست آتيك » ، فغضب الجنيد ولكنه حاول حل هذه المشكلة بالوسائل السلمية ، وأخذ رهنا من جيسيه الذى تعهد بدفع ما على ولايته من الخراج والجزية وراقب الجنيد تحركات جيسيه الذى لم يكن بدوره غافلا عنه . وتشير المصادر ^(٣) الى حدوث معركة بين جيشى الجنيد وجيسيه حيث انهزم جيش جيسيه أمام جيش المسلمين ، ويركز البلاذرى ^(٤) على ارتداد جيسيه عن الاسلام ورجوعه الكفر مما أغضب الجنيد الذى قتله ، فى حين يرجع أحد المؤرخين ^(٥) المحدثين أن قتل جيسيه كان لأسباب سياسية وليس لأسباب دينية .

قام الجنيد بفتوحات عديدة فى داخل بلاد السند حيث استولى على مدينتى برهماباد والكيرج ، ثم فتح مدينة مريد (ماروار) - وهى جزء من جدهبور - ثم تحرك نحو مدينة المندل (ماندل) وفتحها بسهولة كما فتح مدينة ذهنج (دهنج) ثم استولى على مدينة بنجاسر عاصمة الكجرات الشمالية ، كما أخضع العديد من مدن السند التى ثارت مثل بهروج

(٢) نقلا عن البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ص ٥٤٠ - ٥٤٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ١٠٧ هـ .

- البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ص ٥٤٠ - ٥٤٢ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ، ص ص ٦٤ - ٦٦ .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

(٥) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ،

مرجع سابق ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(بروس) ، ويهدمد ، وسرست ، والواقع أن فتوحاته كانت ناجحة وسريعة فى الوقت ذاته ، وأقام الجنيد فى بلاد السند أربع سنوات استطاع خلالها تنظيم أمورها السياسية والادارية والاقتصادية ، ثم نقله الخليفة هشام بن عبد الملك الى خراسان بسبب تصاعد نشاط الدعاة العباسيين فى البلاد العربية والولايات الشرقية وخاصة خراسان .

زابعاً :

من الثابت أن الجنيد قد قام بتثبيت الحكم العربى فى جميع انحاء بلاد السند ، كما أحرز انتصارات كبيرة فى بلاد الهند ^(٦) ، فضلاً عن أنه تمكن - وهذا هو الأهم - من تدعيم الحكم العربى فى هذه البلاد . ثم تولى حكم السند تميم بن زيد العتبي وكان من القواد العرب ببلاد السند منذ عهد محمد بن القاسم ، غير أنه لم يكن له صفات الحاكم السياسى ولذلك فشل فى السياسة الداخلية والخارجية عسكرياً وسياسياً بل أنه أضاع جهود الجنيد ، واشتدت الخلافات بين القادة العرب الذين كانوا يرون أنهم أحق من تميم بالولاية ، وكان تميم يحرض القادة ضد بعضهم البعض تبعاً لقبائلهم ويؤيد قبيلة اليمانية ضد قبيلة النزارية لأن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى كان زعيم اليمانية ، وانتهاز أهل السند فرصة ضعف والى وشدة الخلافات القبلية بين العرب فأناروا الفتن والاضطرابات فى مناطق

(٦) نفس المرجع السابق ، نقلاً عن مجلة قسم الاداب ، جامعة كلكتا ، الهند ، المجلد العاشر ص ٢٠ وما بعدها ، يكاد لا يكون هناك شك أن الجنيد - كما يذكر المؤرخ الهندى ما جمدار قد هزم ملوك سانيد اهافاس وملوك كاجهيلات ، وملوك سوراشترا ، وملوك جاتوتا كاس ، وملوك مورياس ، وملوك جورا جاراس .

كثيرة ، ولما ساءت الأحوال السياسية قرر والى العراق تعيين الحكم بن عوانة الكلبي حاكما على السند ، وكان الحكم من أحسن القواد الشباب الذين كانوا فى معية محمد بن القاسم أيام الفتوحات الاسلامية ببلاد السند .

وفى العراق كان واليها خالد بن عبد الله القسرى من زعماء اليمانية ، وبالمثل كان الحكم بن عوانة الكلبي ، واستمرت الفوضى والاضطرابات والفتن التى تركها تميم بين العرب وأهل السند فكان لابد من القضاء عليها ولم يجد الحكم بن عوانة الكلبي أفضل من عمرو بن محمد بن القسم الثقفى لتعيينه نائبا له رغم صغر سنه ، وذلك لايمانه بالمثل العربى : « الولد سر لأبيه » ، وفرض اليه الأمور الادارية والأعمال المهمة ، وبذلك استطاع أن يرضى النزارية بحيث أصبح الوالى يمانيا ونائبه حجازيا .

كان أهل السند قد استولوا على بعض المناطق الهامة وكانوا يضايقون العرب فى كل جهة ، فشد الحكم مدينة عظيمة على الجانب الشرقى لنهر السند كى يقيم العرب فيها أسماها س المحفوظة ، وبنى فيها مسجدا كبيرا واتخذها عاصمة للحكومة العربية وبلاد السند بدلا من برهمنابد التى كان معظم سكانها من البرهميين والقلة من البوذيين والعرب ، كما اهتم بالجيش بقيادة عمرو بن محمد بن القاسم الذى أعاد المدن السندية التى خرجت من الحكم العربى .

بقى الحكم بن عوانة يحكم بلاد السند أكثر من ثمانى سنوات حتى قتل خالد بن عبد الله القسرى والى العراق بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠هـ مما أثار كراهية اليمانية ، وقد اعتبر المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة الأموية ، حيث قام اليمانيون

بالثورة فى دمشق وفلسطين ، واضعفت العصبية القبلية بنى أمية وأذنت بزوال سلطانهم ، وانتهاز بعض زعماء أهل السند فرصة وجود الاضطرابات فى العالم العربى وقاموا بالفتن السياسية المعادية للعرب ببلاد السند ، الأمر الذى جعل الحكم بن عوانة يخرج بنفسه للقضاء على الفتن الجديدة ويتوغل فى بلاد السند مثل القيقان وقنديل والمناطق المجاورة لحدود بلاد الهند حتى استشهد سنة ١٢١ هـ فى إحدى معاركها .

خامسا :

تنازع كل من عمرو بن محمد بن القاسم من الحجازيين ويزيد ابن عوار الكلبي من اليمانيين على حكم بلاد السند لكن الخليفة أمر بتولية عمرو الذى حبس يزيد خشية قيامه بالفتن والاضطرابات ، وقام ببناء مدينة أخرى للعرب على جانبى البحيرة الواقعة فى شرق نهر السند واتخذها مركزا للحكومة العربية بسبب موقعها الجغرافى ولقربها من مدينة المحفظة وسماها المنصورة^(٧) وبنى فيها مسجدا عظيما .

غير أن أهل السند قاموا بالزحف على المنصورة وأغاروا عليها ، واضطروا والى العراق لارسال جيش الى عمرو مما جعل أهل السند ينصرفون عن هذه الغارات ، واستلزم ذلك تكوين جيش مركزى قوى تمكن من اخماد فتن أهل السند وإعادة الهيبة العربية الى بلاد السند ، وظل عمرو بن محمد بن القاسم يحكم بلاد السند خمس سنوات حتى تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عزل عمرو عن ولاية السند وعين مكانه خصمه اللدود يزيد بن عوار ، فانتحر عمرو فى سنة ١٢٥ هـ .

(٧) تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، ص ٣٨٨ - ٣٩١ .

عادت القوة الى اليمانية بتولى يزيد بن عوار الكلبي بلاد السند ،
بالاضافة الى تولى منصور بن جمهور الكلبي ولاية العراق ، غير أن الفتن
تجمعت ضد الخليفة مروان بن محمد بن مروان الأموي (١٢٥ -
١٣٢ هـ) وهو آخر^(٨) خلفاء بني أمية ، وفي بلاد السند حدث صراع
على السلطة بين كل من منصور بن جمهور الكلبي الثائر - الذي حكم
في الفترة ١٢٩ - ١٣٢ هـ وبين يزيد بن عوار الكلبي ، وانتصر المنصور
على منافسه وأخضع بلاد السند ثم انشغل بتنظيم الأمور فيها ورغم كونه
ثائرا على الدولة الأموية نفسها الا أنه يعتبر آخر أموي يحكم بلاد السند
حتى قتل سنة ١٣٤ هـ على يد موسى بن كعب التميمي أول وال عباسي
على بلاد السند^(٩) .

(٨) تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ، ص ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٩) تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث ، ص ص ٤ - ٧ .

الباب الثالث

الدولة الحباسية ومسلمو آسيا

حتى الغزو الصليبي

الفصل الأول : أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها .

الفصل الثاني : الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية .

الفصل الثالث : من عصر الانحلال الى بروز الولايات الاسلامية
الانفصالية الاستقلالية .

الفصل الرابع : عصر الانحلال الثاني وتعاضم دور الفرق الاسلامية

الفصل الخامس : سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة .

الفصل السادس : الغزو الصليبي

الفصل الأول

أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها

- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الإسلامية .

- الفتوحات الإسلامية .

- خلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية :

١٣٢ - ١٣٦ هـ

١- أبو العباس السفاح

١٣٦ - ١٥٨ هـ

٢- أبو جعفر المنصور

١٥٨ - ١٦٨ هـ

٣- المهدي بن المنصور

١٦٩ - ١٧٠ هـ

٤- من الهادي بن المهدي

١٧٠ - ١٩٣ هـ

الى الرشيد بن المهدي (هارون الرشيد)

٥- شتون بلاد السند .

الفصل الأول

أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها

- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الإسلامية

سبقت الإشارة إلى أن الأمويين كونوا دولتهم أساساً على العنصر العربي مما أثار غيرة وحسد الشعوب الإسلامية الأخرى حيث الموالي وهم المسلمون من غير العرب كالفرس والترك وأهل السند قد كرهوا الحكم الأموي خاصة وأنهم اعتقدوا - أى الموالي - أن اعتناقهم الإسلام سوف يريحهم من دفع الجزية ونظر الأمويون لهم - من ناحية أخرى - على أنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا لمصالحهم الشخصية وليس لمبادئ الإسلام القويمة . وكان لهذه العصبية الأموية انعكاساتها فى مساهمة الموالي فى حركات التمرد والعصيان والثورات ضد الحكم الأموي ، فانضموا الى الخوارج وثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان .

من ناحية أخرى بدأت العصبية القبلية تنفث سمومها فى العالم الإسلامى بعد خلافة عمر بن عبد العزيز وخاصة فى عهد فتنة أسرة المهلب ابن أبى صفرة ضد الحكم الأموي ، فأمر يزيد بقتل أفراد هذه الأسرة رغم خدمتها الطويلة للأمويين ضد الخوارج ، وتصاعدت هذه العصبية فى عهد الوليد بن يزيد وجعلته يقتل نفسه ، وكان تشجيع الخلفاء الأمويين لقبيلة ضد أخرى سبباً آخر أثر بظلاله على الموالي ، وقد شجع سلوك الخلفاء الأمويين وتعصبهم للعرب أن نشط دعاة الخلافة العباسية متبعين أسلوب السرية ثم ضم الفئات الساخطة على العصبية القبلية حيث كان حب أهل

خراسان وبلاد فارس لآل البيت وأن الحق ينبغي أن يعود لأصحابه ، وانضم الأعاجم الى صفوف هذه الفئات الساخطة ، وكان هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأسباب السابقة وهو ملاحظة الأمويين للدعاة العباسيين ومن أشهرهم عامل خراسان أسد بن عبد الله القسرى الذى تولى أمر خراسان مرتين الأولى (١٠٦ - ١٠٩ هـ) والمرة الثانية (١١٧ - ١٢٠ هـ) ، وتذكر المصادر أنه كان مثالا لليقظة والحزم ^(١) ، كما أن هؤلاء الدعاة العباسيين لم يردعهم تنكيه أو تعذيب الأمويين بل شجعهم ذلك على دعوتهم ^(٢) .

انعكست العوامل السابقة على نشأة وتطور الدولة العباسية حتى أن فريقا من المؤرخين المحدثين يرون أن دولة بنى أمية هي الدولة العربية الخالصة ، فى حين جاءت الدولة العباسية لتصبح عربية الشكل ، لكنها فى حقيقتها أعجمية ، وأن تفوق العنصر الأعجمى على العنصر العربى - كيفا وكما - ساهم فى ضعف شأن العرب ، فالتمايز العربى فى عصر بنى أمية ظهر واضح المعالم ، فالولاية للعربى ، والقضاء للعربى ، والأرض للعربى ، ورغم المبالغة فى تصور التمايز العربى فى عصر الدولة الأموية على هذا النحو الا أن بعض الحقيقة تكمن فى هذه الآراء حيث كان العنصر العربى والأعجمى هما عماد الدولة ، ولم يتمكن العنصر الأعجمى فى الدولة العباسية الجديدة من القضاء على النفوذ العربى

(١) دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع تفصيلا : الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء السابق ص ١٠٦ -

تماما .

وسوف نستعرض آراء فريق من مؤرخي المسلمين قديمهم وحديثهم بهذا الشأن : يقول الجاحظ ^(٣) : « ان بنى العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان أموية عربية » ، ويصف المسعودى ^(٤) قيام الدولة العباسية وسقوط الدولة الأموية قائلا : « سقطت قيادات العرب وزالت رياستها » . ويستطرد المسعودى قائلا : « ان المنصور هو أول خليفة استعمل مواليه وغلماؤه ، وصرفهم فى مهماته ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت الخلفاء ذلك من بعده » ، وقد كان من نتائج هذا التقصص لنفوذ العرب ، وبروز السلطان الأعجمى ، أن دخلت النظم الأعجمية من فارسية وغير فارسية فى الدولة الجديدة ، ومن أبرز هذه النظم تلك النزعة الكسروية الساسانية الاستبدادية ، فبعدت الشقة بين الدولة والقبيلة والبادية العربية بعدا شاسعا .

أما الدكتور عبد العزيز الدورى ^(٥) فيرى تطرف الآراء السابقة ، وأن الخلفاء العباسيين كانوا عربا هاشميين - لنسبهم الى الزب - وكانوا يعتزون بنسبهم ، ومع أنهم قربوا القرس ، الا أنهم سيطروا عليهم ، ونكلوا

(٣) راجع آراء الجاحظ تفصيلا فى : الجاحظ ، عمر بن بحر ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، البيان والبيان ، دار الفكر للجمع ، بيروت ١٩٥٤ م .

(٤) راجع آراء المسعودى تفصيلا فى : المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصدر سابق .

(٥) راجع آراء الدكتور عبد العزيز الدورى تفصيلا فى : الدكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، الجزء الخامس ، عصر الازدهار ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠ .

بهم حين شعروا بتعاضم قوتهم ، كما فعل أبو العباس بالخلال ، والمنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ، صحيح أن بعض أصحاب المناصب الكبيرة كالوزارة قد أنيطت الى الفرس ، لكن عددا كبيرا من الولاة والقواد كانوا عربا ، ويؤيد الدكتور محمد أسعد طلس^(٦) هذه الآراء ويضيف قائلا : « أن أصحاب تلك النظرية قالوا : ان السلطان العربى قد اضمحل ، وأن الدولة قد اصطبغت بصبغة أعجمية بعد أن كانت عربية خالصة ، وقد اختص آل العباس الأعاجم بصورة عامة ، والخراسانيين بصورة خالصة ، أما العرب فقد فقدوا كثيرا من امتيازاتهم التى كانت لهم فى العصر الأموى ، سواء أكان ذلك فى الوظائف الكبرى ، أو فى الاقطاعيات التى يأخذ منها ، أو فى النفوذ بصورة عامة ».

غير أن هذا التمايز فى تكوين عناصر الدولة العباسية لم يكن بين الفرس والعرب فقط وانما تشمل الترك أيضا ، ويذكر أحمد أمين^(٧) أن الفرس لم يهدأوا وهم يرون الترك يحتلون مراكز مرموقة فى الدولة الفارسية ، ولما كان الخليفة العباسى يعتمد على العنصر الفارسى فى تصريف شئون الدولة ، فان الفرس بالتالى قد احتفظوا للخليفة بمظهر الأبهة ، لكنهم على الجانب الآخر أخذوا ينشرون سلطانهم ، مما جعل الخلفاء العباسيين يستبدون بهم ،

(٦) المرجع نفسه ص ١٠ .

(٧) راجع : أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء الأول ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩ .

كما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بابن سهل ، وكان الترك سرعان ما يستردون نفوذهم ، فينكمش الفرس على حنق ، وهذه الحلقة من فقدان النفوذ واسترداده يتبعها تدمير المؤامرات والدسائس والفتن على نحو ما سترد الإشارة إليه تفصيلا .

ألبست الدولة العباسية الجديدة دعوتها لباسا دينيا ، حيث ادعى أصحاب الدعوة أنهم قاموا بدعوتهم اتباعا لكتاب الله واحقاقا لحق آل بيت رسول الله ﷺ ، وتحكيما لسنته وأرجاعا لنظم الخلافة كما أرادها الرسول الكريم بدل الملك العضوض . غير أن الدولة العباسية - على حد قول ابن الطقطقى فى الفخرى - قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان أخبار الناس وصلحائهم يطيعونها تدينا والباقون رهبة أو رغبة ، والذى حدث بالفعل أن العباسيين قد سلكوا نظام الوراثة فى الخلافة فقد أصبحت ولاية العهد ووراثة الحكم أمورا تقليدية ، لكن الجديد هو ما استأثرت به الشورى والأعراف القبلية من رعاية - نظريا على الأقل - ، أما من الناحية التطبيقية والواقعية فلم يكن للشورى ، أو الأعراف والتقاليد القبلية مكانا فى اختيار ولى عهد الخليفة ، ويلاحظ المؤرخون تولية العديد من الأطفال فى الخلافة ، فضلا عن العديد من غير المؤهلين للقيام بأعباء الخلافة الذين تولوها ، وفى مجال الدراسة المقرنة مع الدولة الأموية ، فإن الأمويين بالرغم من نزعتهم الاستبدادية لم يتمكنوا من تجاوز التقاليد العربية ، وحافظوا على حرمة القبيلة ، ومنزلة رئيسها ، ومكانته الاجتماعية ، واحترام الأنساب ، فى حين احتلت التقاليد الفارسية والأعجمية مكانتها عند الدولة العباسية ، واعتمد الخلفاء على الفرس والموالى وقربوهم منهم ، وتمكن الموالى أن

ينفذوا الى قلوب الخلفاء ويسيطروا على مرافق الدولة ومؤسساتها ، بل أن العهد الجديد قد استقى العديد من النظم الادارية الأعجمية والكسروية حيث بالغوا فى الاعتماد على غير العرب وخاصة أهل خراسان فى الجيش ، وأصبح العربى كالغريب ، كما جعلوا فرقا من الجنود المرتزقة التى اعتمدوا عليها وأغدقوهم بالرواتب الكبيرة .

وأدى أبناء البلاد المفتوحة من روم ، وفرس ، وسريان ، وأقباط ، وأنباط دورا كبيرا فى الثقافة الاسلامية التى أثريت فى العصرين العباسى الأول والثانى ، كما خلقوا بيئة اجتماعية بأفكارها ، وآدابها ، وأخلاقها المستمدة من الحضارات القديمة العريقة من فارسية ورومية وهندية ، فاختفت أو كادت تلك الروح القبلية التى سادت العصر الأموى وحلت محلها روح التعصب القومى ، وقد سبقت الاشارة الى انقسام العرب فى العصر الأموى الى قيس ، ويمن ، أو قحطانية وعدنانية ، أما الدولة العباسية الناشئة فقد سادت فيها أفكار اجتماعية غريبة عن البيئة العربية مثل الزندقة ، والالحاد ، والمناوية ، والمزدكية ، والخرمية ، وكان طبيعيا أن يتناول الأعاجم والموالى على العرب بل ويطمسوا كثيرا من معالم الفضل العربى عليهم .

وكانت العراق مركزا لهذه الأفكار ، ومن الثابت أن العراق ، والكوفة قد اجتمعت فيهما كثير من الثقافات القديمة ، وكان طبيعيا أن تنبع فى هذه البيئة جماعات لها أفكار مغايرة تماما عن الأفكار العربية مثل فكرة التناسخ وفكرة الحلول ، وفكرة الحق الالهى ، وفى خراسان تلاقت شتى الثقافات والأفكار والآراء ، وكان فيها كثير ممن أسلم رغبة فى منفعة أو رهبة من بطش ، وقلبه مملوء كرها للعرب والاسلام ، وكان الاعتماد على الموالى

دافعا لتقوية النزعات القومية ، فأخذ العرب مع ما هم عليه من حزازات قديمة يتحزبون على الأعاجم ، ويرجعون الى تقاليدهم الجاهلية التي حاربها الاسلام ، وأخذ الفرس والموالي يتكتلون ضد العرب ، وأخذت بوادر النزعات القومية ، والاقليمية تبرز في الاقاليم المفتوحة في خراسان ، والجزر ، وبلاد الشرق ، وأخذ المتطلعون الى السلطة من أبناء فارس والديلم ، والأتراك يفكرون في الانسلاج من جسد الدولة العربية ، ويعملون على الاستقلال الذاتي ، وهذا يرجع - كما سبقت الاشارة - الى أن الدواوين والدولة يتبوأ مراكزها العالية الموالي أنفسهم ، وقد ساعد على ذلك نقل عاصمة الدول من الشام الى العراق فانتقلت الأنشطة الفكرية والسياسية الى المشرق ، وسادت الثقافات الشرقية ، والسريانية ، والنبطية ، والهندية ، والرومية في الدولة الجديدة ، وضعف نفوذ الدولة المركزية في ولاياتها ومنها جنوب الجزيرة العربية .

الفتوحات الاسلامية :

سبقت الاشارة الى استمرار الدعوة السرية للقضاء على الأمويين منذ مطلع القرن الثاني الهجري وحتى سنة ١٢٥ هـ . وقد استعمل دعاة الدولة الجديدة جميع الأساليب لتحقيق أهدافهم ، وقد فطن الأمويون لذلك وأخذوا يلاحقون هؤلاء الدعاة ، ثم انتقلت حركية الدعوة من السرية الى الجهر بها من جانب ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس سنة ١٢٦ هـ بعد وفاة والده ، وفي العام التالي تولى أبو مسلم الخراساني مسؤولية انجاح ثورة العباسيين وجمع حوله كل المؤيدين لهم وخاصة الساخطون والحاقدون على الدولة الأموية .

سار أبو مسلم الى خراسان فى سنة ١٢٨ هـ فلبس السواد الذى اتخذه العباسيون شعارا ، وأحس الخليفة الأموى مروان بن محمد بخطورة الموقف ، فكتب الى أميره على خراسان (نصر بن سيار) أن يحسم الأمر بشدة ، وأمر الخليفة الأموى عامله بالبقاء أن يهاجم الحميمة ، ويأسر ابراهيم بن محمد ، ويرسل به اليه ، ثم بعث فى سنة ١٣١ هـ من جاءه بابراهيم بن العباس ، الذى أدرك أن مروان لابد وأن يقتله ، فأوصى بالأمر من بعده الى أخيه أبى العباس عبد الله (السفاح) ، وطلب اليه أن يترك الشام ويفر بأهله الى الكوفة حيث شيعتهم ، فسار أبو العباس حتى دخلها سرا ومكث حوالى الشهرين متخفيا عن الخليفة الأموى الذى قتل أخاه .

لما علم أبو مسلم الخراسانى بوصولهما الى الكوفة ، قدم اليهما ، وعزاهما ب وفاة أخيها ، وبايع أخاه أبو العباس ، وعاد الى خراسان بعد أن اوصاه أبو العباس ألا يدع فى خراسان عربيا لا يدخل تحت أمره الا ضرب عنقه ، وتذكر المصادر خطبة لها دلالتها فى العلاقات السياسية الاسلامية حيث انتقلت بؤرة الاهتمام الى الكوفة وذلك حينما قام عم أبى العباس السفاح وهو داود بن علي الذى كان من أفصح بنى العباس قائلا : « يا أهل أنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ... وأظهر بهم دولتنا ... وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وغير الاسلام ... » ، ويستدل الباحثون من هذه الخطبة الأسس التى اعتمد عليها العباسيون فى تكوين دولتهم .

لما تمت البيعة للخليفة الجديد ، رأى أن أول ما يجب عليه هو تمكله فتح ما بقى من أجزاء العراق ، والاستيلاء على الشام ، والقضاء على مروان

بن محمد لذي أفزعته قوة أعدائه العباسيين ، فجمع جيشا كبيرا يقدر عدده بمائة ألف ، وتلاقى مع جيش العباسيين البالغ أربعين ألفا بقيادة أبو مسلم الخراساني على نهر الزاب في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وعلى الرغم من ضخامة جيش الأمويين ، الا أنهم هزموا ، بسبب ما بثه العباسيون من دعاية حول الانتصارات التي أحرزوها في خراسان والشام التي حاصرها واضطر أميرها الوليد بن معاوية أن يستسلم فدخلها جيش العباسيين وقتل بالأمويين ، وهرب مروان بن محمد الى مصر حيث قتل هناك ، وبقتله انتهت دولة بني أمية في الشرق ، وتوطدت أركان الدولة العباسية .

وفيما يتعلق بتصفية الحسابات بين الخليفة العباسي الجديد ومنافسيه وأهمهم أبو سلمة الذي كان قد أخفى لديه أبو جعفر وأبو العباس - فقد اضطربت المصادر في ذكر من حرض على قتله فيما بعد ، أهو الخليفة أو أبو مسلم - فان هذه النقطة لا تدخل في مجال هذه الدراسة التي تتركز أصلا على تطور العلاقات السياسية الإسلامية ، وكان أبو سلمة بمثابة كابوس ثقيل وخطر على الخليفة الجديد الذي يريد فرض ارادته وحده في أرجاء المملكة الإسلامية من أقصاها الى أقصاها . وقد كتب الجغرافي الموثوق المعاصر لذلك العهد وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المعروف بالبشاري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، كتب أن المملكة الإسلامية في ذلك العهد قد امتدت طولا من أقصى الشرق عند مدينة كاشغر ، الى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات ، وأنها تمتد عرضا من شواطئ بحر قزوين الى

أواخر بلاد النوبة ، وبلغ طول هذه المملكة ألف وستمائة فرسخ ^(٨) وقد انقسمت المملكة الاسلامية الجديدة الى أربعة عشر اقليما كالآتى :

أولا : اقليم جزيرة العرب ، واشتمل على الحجاز ، وقصبته مكة المكرمة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجده والطائف ، ثم اليمن وهو قسمان ، فما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة ، وما كان ناحية الجبل فهو نجد ثم بلاد عمان وقصبته صحار ثم بلاد هجر وقصبته مدينة الاحساء (البحرين) .

وأهل هذا القسم لغتهم عربية ، تتكلم اللسان العربى ، الا صحار فان سكانها يتكلمون الفارسية .

أما القسم الثانى فهو العراق الذى شمل الكوفة والبصرة وواسط والمداين وحلوان وسامراء ، وشعوب هذا الاقليم نبطيون ، دخله العرب ، فزاحموا أهله ، وصارت كأنها لهم ، وأصبحت لغتهم العربية ، وأصبح لهجتهم الكوفية لقربها من البادية ، وبعدها عن النبط ، وأما سكان البطائح فنبط ، والذين نزلوا بهذا القسم من الاقليم من العرب أكثر من الذين منهم بأى قطر آخر ، ماعدا الشام والجزيرة ، وقد كان بهذه الأقاليم ملوك المناذرة بالعراق ، وملوك الغساسنة بالشام ، ولم يكونوا مستقلين ، فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين ، وكان الشام مهد الدولة الأموية ، كما كان العراق مهد الدولة العباسية .

(٨) راجع فى تفصيل ذلك ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب . المجلد الثانى ، مرجع

سابق ، ص ٢٦ - ٤٠ .

أما القسم الثالث فهو أقليم أقور وسمى بالاقليم الجزيرة لأنه يقع ما بين نهري دجله والفرات وشمل ديار ريعة وقصبتها الموصل ، وديار مضر ، وديار بكر ، وقد نزل العرب هذه الديار قبل الاسلام ، وسكنها قبائل من العدنانيين سميت بهم ، ولذلك يعتبر هذا الاقليم عربيا محضا ، وينتهى الى حدود الروم وأرمينية ، ومناخه مقارب للشام ، ومشابه للعراق .

وقد شمل القسم الرابع اقليم الشام وبه قنسرين وقصبتها حلب وحمص وقصبتها دمشق والأردن وقصبتها طبرية وفلسطين وقصبتها الرملة والشارة .

وقد شمل القسمان الخامس والسادس من مصر والمغرب ^(٩) أما اقليم المشرق فيقع في آسيا وهو قسمان ، ما وراء النهر وهو شرقي نهر جيحون ويسمى جعيطل وغربي نهر جيحون ويسمى بلاد خراسان ^(١٠) ، وقد شمل اقليم الديلم العديد من المدن العامة وشمل اقليم الرحاب الراق وأرمينية وأذربيجان وشمل اقليم الجبال الرى وهمذان وأصفهان ، وشمال خورستان الذى يعرف بالأهواز العديد من المدن ، فى حين شمل اقليما فارس وكرهان احدى عشر مدينة هامة والأخير يشبه ما قبله - أى اقليم فارس - وأخيرا اقليم السند الذى شمل خمس مدن . وهذه الأقاليم كلها كونت مملكة اسلامية مترامية الأطراف متعددة الشعوب والموارد الاقتصادية واللغات، ولم تكن ادارتها سهلة ، غير أن خلفاء العصر العباسى الأول سيطروا عليها جميعا . وهو ما يستدعى وقفة للتفسير بالنسبة لأوضاع بلاد السند .

(٩) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢ - ٣٤ .

(١٠) المرجع نفسه ص ٣٤ - ٣٦ .

أصبح أبو مسلم الخراساني - مع قيام الدولة العباسية في نهاية سنة ١٣٢ هـ - كما سيأتي ذكر ذلك تفصيلا - واليا على خراسان وحاكما عاما على الولايات الشرقية للخلافة العباسية بما فيها بلاد السند ، قد أرسل وجيشا بقيادة فعلس بن السري العبدى الى بلد السمر لاقامة حكومة عباسية هناك .

وقد سبقت الاشارة أن منصور بن جمهور الكلبى الثائر كان لايزال يحكم بلاد السند ، وسار فعلس العبدى عن طريق طخارستان حتى وصل مدينة الديبل واشتبك فى قتال عنيف مع حاكمها منظور شقيق منصور الكلبى ، وقتل منظور فى المعركة ، وتقدم فعلس العبدى نحو مدينة المنصورة - العاصمة العربية - ولما سمع منصور بخبر موت أخيه ، جهز الجيش لمحاربة فعلس ، فخرج من المنصورة ووقع قتال شديد بين الطرفين وانهزم الجيش العباسى ، ووقع فعلس ومن معه من كبار القواد فى الأسر حيث قتله المنصور على الفور .

- الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية :

سوف نستعرض انجازات الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول ، وبصفة خاصة مواقفهم من الأخطار التى هددت الدولة الاسلامية من الفتن والثورات والحروب التى خاضتها وعلاقاتها الخارجية .

١ - أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) :

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، اتخذ مدينة الأنبار عاصمة له كأول خليفة عباسى ، أسس دولته على الحزم

والقوة ، وخطب يوم اعتلائه للخلافة منددا بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ومدح أهل الكوفة لاخلاصهم ، وولائهم ولقب بالسفاح بالرغم من أن أحدا من المؤرخين ^(١١) القدامى الموثوق بهم لم يذكره بهذا اللقب باستثناء المسعودى الذى نقل عنه المؤرخون المحدثون هذا اللقب . وفى عهده ابتدئ بتنظيم الدولة الجديدة ، فتوطد الأمن فى أنحائها كافة ، وتم استيزار أبو سلمة الخلال ولقبه بوزير آل محمد ، ولم تكن لفظة « الوزارة » قد استقر عليها بعد لأنها أمر جديد لم تعرفه النظم الاسلامية سلفا ^(١٢) ، وكانت هذه أول مرة يذكر فيها هذا المنصب بشكل رسمى فى العهد العباسى ، ويظهر ان أهل خراسان أخذوا ذلك المنصب من تنظيماتهم الفارسية الساسانية .

وقد سبقت الإشارة أن الشدة التى اتبعها السفاح لم تشمل بنى أمية فقط ، بل امتدت لتشمل وزيره أبا سلمة لاثهامه بالميل الى العلويين . ويعزى استقرار بناء الدولة العباسية الى أبى الخراسانى فى الشرق ، وأبى جعفر المنصور بالعراق وعبد الله بن على بالشام ومصر ^(١٣) ، ومن إصلاحاته

(١١) مثل الطبرى واليعقوبى وابن قتية .

(١٢) على أن هذه الكلمة كانت معروفة من قبل ، فقد وردت فى القرآن الكريم عند قوله تعالى : « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أنسى » ، كما وردت فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة تصف أبا بكر الصديق بأنه كان وزير النبى ﷺ ، وفى العصر الأموى اطلق اللفظ على الكاتب .

(١٣) راجع فى تفصيل ذلك :

- عبد الفتاح السرنجدارى ، الخلافة العباسية اضمحلالها وسقوطها ، مطبعة عطايا بمصر - القاهرة . ١٩٥٥ .

- الشيخ محمد الخضرى ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة . ١٩٧٠ .

الأولى أنه مسح المسافة بين الكوفة ومكة وأقام^(١٤) علامات عند كل ميل ليهتدى بها المسافرون ، وفيما يتعلق ببلاد السند ، فقد تلقى رسالة من أبى مسلم الخراسانى حاكم خراسان والولايات الشرقية بمقتل قائد حملته فعلى العبدى على بلاد السند ، واستاذن أبو مسلم الخراسانى الخليفة فى اختيار موسى بن كعب التميمى قائدا على جيش كبير وتعيينه واليا على بلاد السند

توجه موسى بن كعب التميمى بجيشه الى مدينة قنڊاويل بعد أن جمع المعلومات عن أحوال السند ، ونجح فى جلب اهتمام كبار القواد وزعماء قبائل السند فى المنصورة - العاصمة العربية هناك - وتأييدهم له وأقنعهم بعدم جدوى المقاومة للخليفة العباس وجيوشه الجرارة .

تحرك موسى بن كعب التميمى نحو المنصورة بعد عبوره نهر السند وخرج فى مواجهته منصور بن جمهور بجيشه ، واشتبك الجيشان حيث انهزم جيش منصور ، وقتل منصور ، ودخل موسى بن كعب مدينة المنصورة وأسس حكومة عباسية جديدة ، وقام باصلاحات كثيرة فيها ، كما وسع مسجدها الذى كان قد بناه عمرو بن محمد بن القاسم ، ونظم الأمور الادارية والسياسية فى جميع أنحاء بلاد السند فأخذ البيعة والطاعة من حكام المدن والمناطق عربا وعجما للخلافة العباسية .

٢- أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) (٧٥٤ - ٧٧٥ م) :

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ولد بالحميمة

(١٤) وقد توفى أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ بالانبار .

سنة ١٠١ هـ ، كان الساعد الأيمن لأخيه السفاح الذى ولاه أمرة الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، فوطد أركان الدولة الجديدة فى عهده ، وكان عليه أن يسد ثلاث ثغرات ، الأولى احتدام المنافسة مع عمه عبد الله بن على الذى كان نفوذه قويا فى خراسان والشام والجزيرة والموصل ، وكان طامعا فى الخلافة ، والثانية درء الخطر الذى أخذ يتعاظم من أبى مسلم الخراسانى ، أما الثغرة الثالثة فقد تمثلت فى الطامحين من آل على بن أبى طالب ، الذين لا تزال قلوب الناس معهم ، وكان على رأس العلويين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بذى النفس الذكية .

كلف المنصور أبا مسلم الخراسانى أن يقضى على عبد الله ، ورغم رغبة أبى مسلم فى التخلص من هذه المهمة ، الا أن المنصور أصر على ذلك فاضطر أبو مسلم لمواجهة عبد الله فى حرب دامت نصف سنة ، وكانت المعركة الفاصلة سنة ١٣٧ هـ ، وهرب عبد الله ، والتجأ الى أخيه سليمان أمير البصرة ، فأمنه على نفسه ، وسعى لدى المنصور ليعفو عنه ، فوافق على سجنه ، وظل مسجوناً حتى مات سنة ١٤٧ هـ .

أما أبو مسلم الخراسانى فلم يكن المنصور راضياً عنه سواء قبل توليه الخلافة أو بعدها حيث لاحظ تعاظم نفوذه واستبداده بالناس ، ومما زاد العلاقات سوءاً بين أبى مسلم والمنصور من قبله رسولا ليحصى الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم من هذا التصرف قائلاً : « كيف أؤتمن على الأرواح خائن فى الأموال ^(١٥) » ، وتآزمت الأمور أكثر عندما عين الخليفة أبا مسلم على مصر والشام ، فرفض أبو مسلم وأصر على بقاءه فى

(١٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ، ص ٤٦٩ .

خراسان ، رأى المنصور فى أبى مسلم خصما عنيدا وخاصة عندما أرسل اليه يطلب منه مرافقته الى المدائن فلم يستجب له قائلا : « انه لم يبق لأمير المؤمنين عدو الا مكنه منه ... وقد تروى عن ملوك آل ساسان أنه أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قريك ، حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فأتنا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطى نفسه ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والأهانة ... » . وقد رأى المنصور استخدام أسلوب الدهاء مع أبى مسلم فكتب اليه قائلا : « قد فهمت كتابك ، وليست صنعتك أولئك الوزراء الغششة الى ملوكهم يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، ... فلم سويت نفسك بهم ، فانه فى طاعتك وبناصتحك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، ... وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أقرب وأؤكد من طبه من الباب الذى فتحه عليك ... » .

وقد أمر الخليفة رسوله الذى أرسل اليه خطابه أن يحدثه باللين ، وأن يمنيّه : فاذا أبى فليهدده ، فلما وصل رسول الخليفة اليه أخذ أبو مسلم الرسالة وقرأها واستشار خاصته فنهوه عن السفر الى المنصور ، فلما هدده رسول الخليفة اضطرب أبو مسلم وأدرك أنه مغلوب على أمره لاسيما بعد أن تمت تولية أبى داود - نائب أبى مسلم - على خراسان طيلة عمره على أن يقطع صلته بأبى مسلم ، فلما قصد أبو مسلم المدائن ، ودخل على الخليفة الذى كان قد أمر أن يجيء أربعة من رجاله ويخبرهم وراء السراق ، ثم سأل عن سبب رغبته فى البقاء فى خراسان فأجاب أبو مسلم : « دع هذا

فما أصبحت أخاف أحدا الا الله ، ، فلما سمع المنصور كلماته هذه صفق . فخرج الشرطة فقتلوه

أما موقفه من العلويين ، فقد رأى المنصور أن محمدا وأخاه أحفاد علي ابن أبي طالب كانا يهددان كيان دولته فأخذ يعمل على العثور عليهما وقتلهما ، وألقى القبض على والدهما ، وعلى أهله ، وزج بهم فى السجن ، ثم نقلهم الى العراق ، وأمر بتعذيبهم فمات أكثرهم فى السجن ، وأخذ يهدد محمدا ذى النفس الذكية ويحث اليه بجيش ، وانتهت المعركة بقتله ^(١٦) سنة ١٤٥ هـ واستسلم جميع العلويين بعد ذلك ، ورفعت الاعلام السوداء فى كل مكان ، وثار أخوه ابراهيم بن عبد الله فى البصرة مؤيدا من جمع غفير من أهل خراسان ، وخاف المنصور مغبة حركته ، فأرسل اليه جيشا من الحجاز ، وكان ابراهيم مسيطرا على فارس ، والأهواز ، والتقى الجيشان بجوار الكوفة فهزم ابراهيم وقتل .

وبموت محمد و ابراهيم حفيدا الحسين بن علي بن أبي طالب ، فقد تخلص المنصور من خصومه الألداء جميعا وخطب أمام شيعة خراسان قائلا : « يا أهل خراسان أنتم شعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم نبايعوا من هو خير منا ، وأن أهل بيتى من ولد علي بن أبي طالب تركناهم ، والذى لا اله الا هو ، والخلافة لم تعرض لهم فيها بقليل أو كثير فقام على ، وتلطخ ، وحكم عليه الحكمين ، فافتقرت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم قام من بعده الحسن فوالله ما كان فيها

(١٦) نفس الرواية وردت فى الطبرى ، الفخرى ، المسعودى .

برجل ، ثم عرضت عليه الأموال فقبلها ، ثم قام من بعده الحسين فخدعه
أهل العراق وأهل الكوفة ، ثم وثب على بنو أمية فأماتوا شرفنا ،
فصرنا تارة بالطائف ، وتارة بالشام ، حتى أبتعثكم الله لنا شيعة
وأنصارا ، فأحيا شرفنا ، وعزنا بكم ، أهل خراسان ، ودفع بحكم
أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، فلما استقرت الأمور فينا ، وثبوا علينا ظلما
وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته
وميراث نبيه ، جهلا علينا وجبنا عند عدوهم .. لبئست الخلتان الجهل
والجبين » .

ويكاد المؤرخون يجمعون أن المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية
وشمولها لأقاليم شاسعة انضوت تحت لواء الاسلام ، وهو الذى قضى على
الفتن التى اشتعلت فى أماكن متعددة وهددت قواعد المملكة ، وهو الذى
أسس عاصمة جديدة للدولة ونظم الجيش وأدار علاقاتها السياسية الخارجية
على النحو الآتى :

الجيش ودوره الاسلامى :

اهتم المنصور بتقوية الجيش اهتماما كبيرا ، وكان للجيش دوره فى
توجيه الدولة والقضاء على روح التمرد والزندقة والفرق التى أرادت هدم
الاسلام والقضاء على كيان العرب وتقليص مجدهم ومن هذه الحركات
الهدامة حركة (بهافريد) المتنبىء الفارسى الذى قام فى عهد أبى العباس
بثورة عقلية فى نيسابور زعم أنها تكملة لرسالة « زرادشت » ، فاستجاب له
كثير من السكان وبخاصة الذين من أصل مجوسى . ومن تلك الحركات
الهدامة « حركة الخرمية » وهى طائفة أرجعت مبادئ « دينها » الى

مذهب مزدك الاباحى وتفرعت عن هذه الحركة فرقة الخداشية والزرامية ، كما ظهرت حركة « الرواندية » بالقرب من أصبهان ، وقد اتخذت مبدأ تقديس الملوك الى درجة الآلهة وان أبا جعفر المنصور هو الهنا ، وأن الألوهية انتقلت اليه ، وحلت فيه ، وأن روح الله كانت فى عيسى عليه السلام ما تزال تنتقل منذ أن حلت فى على . حتى حلت بابراهيم بن محمد ، ووصلت الى المنصور ، وهناك حركة المقنع الخراسانى الذى اتخذ لوجهه قناعا من ذهب أو من حرير أخضر وادعى الألوهية وأسقط الصلاة والصوم والزكاة والحج عن أتباعه وإباح أموال الآخرين ونكاح نسائهم ، وهناك الكثير من الحركات الالحادية ^(١٧) التى ضيق عليها جميعا الخليفة المنصور من خلال ما قام به الجيش الذى تكون من فريقين ، الفريق الأول هو جيش الخراسانيين ومن اليهم من الأعاجم ، والفريق الثانى هو جيش العرب ، وكان الخليفة يوازن بين الفريقين ، وكان من أشهر قادة الجيش أبو مسلم الخراسانى ، وعمرو بن العلاء ، والمسيب بن زهير الضبى ، والحسن بن قحطبة الطائى ، ويزيد بن حاتم ، ويذكر الطبرى أن المنصور كان يتفقد جيشه بين وقت وآخر ويصلح ما يكون قد فسد من شئونه ويعتنى بقادته وتنظيمه وتقويته حيث دوره فى القضاء على الفتن الداخلية والحركات الهدامة فضلا عن دوره الخارجى .

فقد كانت الامبراطورية العربية العباسية متاخمة للبيزنطيين ، وكانت

(١٧) لمزيد من التفصيل راجع : الشهرستانى ، مصدر سابق ، ص ٧٥ - ٨٠ ، الطبرى -

مصدر سابق ، الجزء الثامن ، ص ٢٤٠ - ٢٤٩ .

بروز النزاع بينهما قائمة منذ الدولة الأموية ، وورث العباسيون هذه العداوة ، كما ورثوا تقليدا أمويا هو ارسال الجيوش لغزو بلاد الروم كل صيف وشتاء ، وكانت آسيا الصغرى هى مجال تلك الحروب . وقد تم تجديد هذا التقليد فى عهد المنصور بعد أن صمم على توسع الدولة الاسلامية فغزت جيوش المسلمين جيوش الروم سنة ١٣٨ هـ ، وتعددت الحروب بين الروم والمسلمين ، ونظرا لأن بغداد عاصمة الدولة العباسية كانت أبعد من دمشق عاصمة الدولة الأموية ، فقد اكتفى العباسيون بارسال الصوائف والشواتى ، غير أن المنصور جهز جيشا اسلاميا من الخراسانيين والعرب لمواجهة مناوشات البيزنطيين بتحسين حدوده من جهتهم ، ويذكر البلاذرى ^(١٨) أن المنصور أمر فى سنة ١٣٩ هـ بتجميع الصنائع المهرة فى كافة الدولة لتحسين الثغور ، وبنى للجنود قلاعا ، وبنى مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥ هـ استمرارا لتحسين حدوده حيث جعلها على نمط مدينة بغداد وأكثر فيها من السلاح والذخيرة لتكون مقر حركاته فى حروبه مع الروم ، ثم اتجه الى حدوده المتاخمة لبلاد الخزر ، فقرأها ، وجدد بناء مدينة كمنخ ، والمحمدية ، وباب واق ^(١٩) .

وهكذا أخذت الدولة العباسية شكلها من خلال خلافة أبى جعفر المنصور الذى كان أقوى الخلفاء العباسيين وأطولهم حكما بحيث ظل يحكم ٢٢ عاما ، على نهج يختلف عن النهج السياسى فى الدولة الأموية

(١٨) راجع فى تفصيل ذلك : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ص ٤٤٠ - ٤٤٥ .

(١٩) ومن ناحية الاهتمام بالعلماء والفقهاء ودرهم فى تقوية كيان الدولة الجديدة ، فقد استعان

بنو العباس بالامام الأعظم أبو حنيفة والامام مالك .

حيث خفت في عهده الخلافات القبلية بين العرب عامة ، وكان لسياسته أثر طيب على بلاد السند أيضا حيث بدأت العلاقات العلمية بين العرب والسند واستفاد العرب من علوم أهل السند ، كما أفادوهم بالعلوم المختلفة .

وفيما يتعلق بالأحوال السياسية في بلاد السند في فترة خلافة أبي جعفر المنصور ، فحينما علم باشتعال الفتنة القبلية هناك قام بعزل عيينه بن موسى بن كعب التميمي ، وجهز جيشا بقيادة عمر بن حفص ووجهه الى بلاد السند للاستيلاء على الحكم فيها^(٢٠) ، وانضم أغلبية القادة من السند اليه لتضايقهم من سياسة عيينه وخاصة مع اليمانية من ناحية ومعاداته للخليفة من ناحية أخرى ، واضطر عيينه الى الصلح مع عمر بن حفص الذي أعطاه الأمان ، ولخوفه من عقاب الخليفة فر هاربا نحو سجستان حيث قتلته جماعة من اليمانية وحملوا رأسه الى الخليفة المنصور في سنة ١٤٢هـ ولم تقم في فترة حكم عمر بن حفص - التي استمرت نحو تسع سنوات - خلافات قبلية من جانب العرب ، ولا اضطرابات سياسية من جانب أهل السند حتى عزله الخليفة في سنة ١٥١هـ لتأييده للعلويين وحركة الشيعة السياسية في بلاد السند^(٢١) .

تولى الحكم في السند هشام بن عمر التغلبي (١٥١ - ١٥٧هـ) وكان هدف الخليفة من توليته القضاء على زعيم الشيعة السياسية هناك -

(٢٠) الطبري ، تاريخ لأم والملوك ، الجزء الثالث من ص ١٣٥ - ١٣٩ ، حوادث سنة ١٤١هـ .

- اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثاني ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ - ٣٧٢ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث من ص ١٨٥ - ١٨٨ .

(٢١) حيث أمر الخليفة بنقله الى حكم افريقيا وقتل فيها سنة ١٥٤هـ . راجع ابن الاثير ، الكامل

في التاريخ ، الجزء الخامس ، ص ٣٨٦ - ٣٨٩ .

عبد الله الأشر ومحاربة ملك السند الذى أيد الشيعة السياسية ، وقد نفذ هشام أوامر الخليفة حيث استولى على مملكة الملك السندى وقتل عبد الله الأشر ، كما قام بحملات على بعض المناطق الشرقية ، وقضى على الفتنة فيها ، ثم توجه نحو المناطق الغربية وقضى على العرب المتغلبة من الأمويين بمدينة الديبل وما حولها . وفتح منطقة قندهار « كندهاوة » ، وبعض مناطق كشمير غير أنه لم يوفق فى السيطرة الكاملة على بلاد كشمير وبلاد الهند ، اتسم عهده بالاستقرار والطمأنينة حتى فوضه الخليفة المنصور فى إدارة أمور منطقة كرمان الواقعة فى إيران ، واستطاع أن يحكم بلاد السند الواسعة مشرفا على حكومة العرب فى الملتان . وشجع إقامة علاقات علمية بين العرب والسند وخاصة فى بغداد والبلاد العربية والاسلامية الأخرى .

وبوفاته فى سنة ١٥٧هـ ولى الخليفة المنصور على تلك البلاد معبد ابن الخليل التميمى (١٥٧ - ١٥٩هـ) الذى حكم السند بحزم وأقام بمدينة المنصورة وشهد وفاة الخليفة المنصور وتعين ابنه المهدي سنة ١٥٨هـ .

٣- المهدي بن المنصور (١٥٨ - ١٦٨هـ) (٧٧٥ - ٧٨٥م) :

هو محمد بن عبد الله المنصور ، ولد بالحميمة سنة ١٢٦هـ ، وكان قد تولى قيادة الجيش الى خرسان سنة ١٤١هـ للقضاء على بعض الفتن هناك ، فلما وفق فى القضاء على الفتنة غزا طبرستان ، وفى سنة ١٤٧هـ كان أبوه قد بعثه الى الرى ليتمرس على الحكم ، ولما تولى الخلافة سنة ١٥٨هـ فقد فضل تغيير سياسة العنف التى كان يسلكها أبوه ، لأن أركان

الدولة كانت قد توطدت ، وخفت شوكة الثوار والمتمردين الخراسانيين ، ثم اجتذب رعيته بالعديد من الاصلاحات الاجتماعية والادارية والمائية فاستقرت الأوضاع الاجتماعية ، غير أنه استمر فى ملاحقة الزنادقة والملاحدة وفتك بهم ويذكر الطبرى أن الخليفة جدد فى سنة ١٦٨ هـ ، فى طلب الزنادقة والبحث عنهم وقتلهم وكان أكثرهم من المانوية ، والاباحيين ، والملاحدة ، والديصانية ، والمرقونية ، وحفلت المكتبة الاسلامية فى عهده بأهمها الكتب الفكرية التى ترد على هذه الحركات الهدامة .

وفيما يتعلق بعلاقاته الخارجية فالملاحظ أن علاقته بالدولة الرومية كانت سيئة ، وقد عمل على التوغل فى بلاد البيزنطيين ، وأرسل (الصوائف) و (الشوائى) كل عام للجهاد والغزو ، وبعث بابنه هارون سنة ١٦٣ هـ فغزا بلاد الروم وتوغل حتى بلغ تخوم القسطنطينية والبوسفور ، واضطرت الامبراطورية لمصالحته وعقدت هدنة لمدة ثلاث سنوات معه . وكان المهدي قد حاول فى سنة ١٥٩ هـ فتح الهند ، فبعث عبد الملك بن شهاب المسمى بجيش من البصرة فى البحر ، قوامه نحو عشرة آلاف رجل ، فقدموا مدينة (باريد) - بهار بهوت - على الساحل الهندى .

وقع قتال شديد بين العرب المسلمين وبين أهل الهند الكفار . وكان الانتصار للمسلمين الذين تقدموا وحاصروا المدينة وفتحوها بعد أن استشهد^(٢٢) ٢٩ شخصا من العرب . ويبدو أن أحد أسباب حملة المهدي ابن منصور على ذلك الجزء من بلاد الهند هو أن أهل اقليم كجرات كانوا

(٢٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء السادس من ٣٠ - ٣٢ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث من ٢٠٧ - ٢٠٩ .

قد بدأوا مرة أخرى فى مضايقة التجار العرب وأسرههم نتيجة للاضطرابات السياسية التى لم تهدأ فى هذه المناطق الشاسعة وما عكسته أحداث الصراع على السلطة بين ملوكها المحليين^(٢٣) على الجاليات العربية التى وقعت لها أضرار كثيرة ، ولذلك وجه الخليفة المهدي بن منصور فرقة بحرية الى هناك لمساعدة المسلمين وفتح هذه المنطقة .

مات أكثر من ألف جندي عربي^(٢٤) بسبب انتشار الأمراض الوبائية المسمومة والمعروفة فى شبه القارة الهندية ، مما جعل الرعب يستولى على قلوب العرب بسبب ذلك الوباء فتوجهوا بسفنهم الى بلاد فارس ، ولسوء حظهم ، عندما اقتربت من ميناء خليج العرب اشتدت الرياح وغرق معظم الجنود ونجا القليل وواصلوا بصعوبة الى العراق وكان بين الناجين قائد الحملة عبد الملك بن شهاب المسمى الذى تعين فيما بعد واليا على بلاد السند ، وبعد ذلك لم يفكر الخليفة المهدي فى ارسال حملة أخرى الى بلاد السند ، وقد أدى هذا الانفصال بين الخلافة العباسية وبلاد السند الى بدء عهد من الفوضى وعدم الاستقرار السياسى فى هذه البلاد حيث تعاقب على حكمها أحد عشر واليا ، وأحيانا كان يصل عدد الولاة الى ثلاثة فى السنة الواحدة وذلك لضعفهم وكثرة الفتن فى البلاد فضلا عن الخلافات القبلية بين العرب ويمكن تفسير تسلسل هذه الأحداث

(٢٣) تذكر كتب تاريخ اقليم كجرات ان الملك « كرشن » أحد أفراد أسرة « راشيت كوت » كان يحكم كجرات الجنوبية وان نزاعا قد وقع بين أفراد هذه الأسرة بشأن الحكم والعرش ، وعلى أثر ذلك قامت الاضطرابات .

(٢٤) ومنهم التامهى الجليل الربيع بن صبيح - رحمه الله - ، راجع : ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس من ص ٥٤ - ٥٦ .

على النحو الآتى :

أولا :

أمر الخليفة المهدي بتعيين روح بن حاتم لحكم بلاد السند سنة ١٥٩ هـ ، غير أنه لم يتمكن من تنظيم الأمور بسبب قيام قوم الزط الغلاظ بالفتن فى الأجزاء الغربية من البلاد، فعزله الخليفة - رغم كونه من أسرة قيادية معروفة - وعين أخاه يزيد بن عمرو التغلبى (١٥٩ - ١٦٠ هـ) ، ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله لأسباب سياسية رغم أنه تمكن من القضاء على الفتن والاضطرابات القائمة فى البلاد من طرف الزط وكان ناجحا فى إدارة شؤون الدولة ، ولاتفسر المصادر التاريخية^(٢٥) السبب الحقيقى لعزله .

ثانيا :

أمر الخليفة المهدي بعودة روح بن حاتم مرة ثانية الى ولاية بلاد السند فى سنة ١٦١ هـ ، غير أنه لم ينجح فى هذه المرة أيضا فى تدبير الحكم أو القضاء على فتن الزط التى تجددت بسبب ضعف شخصية الوالى . ثم تولى حكم بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى فى السنة ذاتها ولم يستطع هو الآخر القضاء على الاضطرابات الداخلية وفتن الزط حيث كان يسانداهم قوى خارجية وتمدهم بالمال والسلاح فى المناطق الغربية القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير . أما الوالى الثالث والرابع فى نفس العام لبلاد السند فكانا محمد بن سليمان الهاشمى وعبد الملك المسمى ،

(٢٥) قارن : الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ص ٤٧٠ .

وكان الصراع على السلطة فضلا عن عدم استتباب الأمور في العراق حيث يخضع له ولاية السند - وراء تعيين وعزل هؤلاء الولاة بهذه السرعة والكثرة في سنة واحدة .

ثالثا :

اختار والى العراق زبير بن عباس ليتولى حكم السند في سنة ١٦٢هـ وكان ينتمى الى أسرة سياسية عريقة ، لكنه لم يكن راضيا عن توليته هذا المنصب ولم تعجبه بلاد السند وأحوالها ، ولذلك لم يهتم بشئونها حتى الغريبة القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير ، أما والى الثالث والرابع هذه الفتن أن تقضى على سلطة العرب في تلك البلاد حتى تم عزله .

وقع الاختيار على مصبح بن عمرو التغلبي لخبرته الطويلة بشئون بلاد السند حيث كان الشقيق الأصغر لمصبح بن عمرو التغلبي ، وفي وقت قصير تمكن من القضاء على مواطن الفتن والاضطرابات عند قوم الزط ، غير أن الفتن اشتعلت مرة أخرى - ليس من جانب الزط وأهل السند - وإنما من جانب العرب بسبب تجدد الخلافات القبلية واحتدام الخصام والحروب الأهلية بين قبائل النزارية واليمانية ولم يتمكن مصبح بن عمرو بفض هذه المنازعات والقيام بالتالي بواجباته الادارية فاستقال أو عزل^(٢٦) .

رابعا :

للمرة الثالثة يتولى مضر بن محمد بن الأشعث الجزعى حكم بلاد السند (١٦٢ - ١٦٤هـ) ولا تذكر المصادر التاريخية فترته هذه الا

(٢٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء السادس من ص ٤٤١ - ٤٤٣ .

بإشارات سريعة وغامضة ، وبالرغم من توليته للمرة الثالثة الا أنه فشل في القضاء على الخلافات القبلية بين العرب في الوقت الذي تصاعدت فيه أيضا حدة الاضطرابات الوطنية لأهل السند ، وبوفاته تولى الشقيق الرابع لهشام بن عمر التغلبي حكم بلاد السند وكان يقيم فيها منذ مدة طويلة ويبدو أن حكمه كان لفترة وجيزة لحين وصول الوالي الجديد وهو الليث ابن طريف .

وكان الليث رجلا سياسيا لبقا وقائدا عسكريا موهوبا ، وفور وصوله بدأ بدراسة الأحوال السياسية والاجتماعية ووضع خطة لاصلاح أوضاع بلاد السند ونجح في ذلك الى حد كبير . وكان أول شيء فعله هو استقطابه زعماء القبائل العربية الى جانبه ، وتمكن بالتالى من تنظيم الأمور الداخلية ، غير أن الزط قاموا باضطرابات عنيفة على زعمائهم المفسدين والمشاغبين وعاد الأمن والاستقرار الى البلاد وتقدمت أحوالها الزراعية والتجارية خلال فترة حكمه التى استمرت نحو ست سنوات ^(٢٧) .

أما الخليفة المهدي بن المنصور فقد أراد فى سنة ١٦٨ هـ الخروج بجيش كبير الى جرجان لقتال المفسدين والمتمردين ، فلما وصل الى «باسيدان» أحس بالمرض يشتد عليه ، وتوفى هناك بعد فترة حافلة بالانجازات تجاه الأمة الاسلامية .

(٢٧) وذلك فى الفترة من ١٦٤ - ١٧٠ هـ حتى تولى هارون الرشيد الخلافة فعزله مع

بعض الولاة سنة ١٧٠ هـ راجع : - اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ص ص ٤٠٨ -

٤- من الهادى بن المهدي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) (٧٧٥ - ٧٧٦ م)
الى الرشيد بن المهدي (هارون الرشيد) (١٧٠ - ١٩٣ هـ)
(٧٨٦ - ٨٠٨ م) :

لم يطل عهد الهادى ، ومع ذلك فينسب اليه تضيقه على الزنادقة ،
وسار فى ذلك سيرة أبيه فى الفتك بهم ، وتخليص الاسلام من شرورهم
وتحريق كتبهم .

وفى عهده خرج الحسين بن على بن الحسن سنة ١٦٩ هـ من
المدينة . وكان والى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب ،
وتذكر المصادر أن سبب خروجه أن والى المدينة عمر ، أخذ ينكل بالعلويين
ومنهم الحسين ابن محمد النفس الذكية ، وزجهم بالسجن ، فاعترض
الحسين لامتهان كرامة أهله ، وقصد مع اتباعه دار الامارة فى المدينة ،
غير أن والى تحصن بها فكسروا السجن ، وأخذ جوا من فيه ، وبويع
الحسين .

غير أن المصادر تتضارب فى ذكر تاريخ ثورة العلويين وهل كانت فى
عهد المهدي بن منصور ، أم فى عهد خلفه الرشيد بن المهدي (١٧٠ -
١٩٣ هـ) (٧٨٦ - ٨٠٨ م) ، والأرجح أن هذه التمردات العلوية قد
امتدت فى عهد العباسيين من خليفة لآخر ، فقد لقوا اضطهادا كبيرا فى
عهد السفاح وصولا الى عهد الرشيد حيث ثار فريق من الشيعة وهزموا فى
« فح » بالقرب من مكة ، ونجا من هذه الواقعة يحيى بن عبد الله بن
الحسن ابن الحسن وفر الى وقد أغضب ذلك الرشيد ، وتمكن الطرفان من
المصالحة وقد حاول الرشيد أن يسلك مع مثيرى الفتن سبيل السلم واللين

وأن يستميلهم فأمر باخراجهم من السجون ، غير أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها المرجوة فثار من أرض الجزيرة ، ففتك بعاملها ، وهزم الجيش العباسى ، وأخذ سلطانه يتسع حتى بلغ أرمينية وأذربيجان ، وأخذ يهدد العراق ، فبعث الرشيد اليه جيشا تمكن من القضاء على الفتنة (٢٨) .

كانت الشام هى الأخرى مسرحا للفتن والتمردات الداخلية بسبب الانقسامات القبلية بين العدنانية والقحطانية . واضطربت الطرق التجارية ، وفى سنة ١٧٦هـ حدثت فتنة بين اليمانية والنزارية زعزعت الاستقرار فى البلاد ولم يستطيع عامل الشام موسى بن عيسى اخماد هذه الاضطرابات فأرسل الرشيد جيشا ، وتمكن موسى من اعادة الهدوء والصالح بين الطرفين ، غير أن الأحداث تصاعدت بين النزارية والقحطانية سنة ١٨٠هـ ، وبعث الرشيد جعفر بن خالد البرمكى ليقتضى على هذه الثورة .

وفى اليمن قامت فتنة قوية ضد الدولة العباسية سنة ١٧٩هـ ، حيث ثار الناس على واليهم حماد البربرى الذى كان شديد الجور ، فقام الرشيد بعزله (٢٩) .

واهتم الرشيد اهتماما بالغا بالثغور الاسلامية المتأخمة للبلاد البيزنطية لنشر النفوذ الاسلامى وتقوية حدوده ، ولم تخلو سنة من سنوات حكم هارون الرشيد من غزو أو صحائف أو شات يشنه على الروم

(٢٨) الدكتور أحمد قاعود، الدكتور شحاده الناطور ، ص ١٥٢ .

(٢٩) الطبرى ، الجزء العاشر ص ٦٥ .

البيزنطيين ، ومع ذلك فلم تكن لديه - على الأرجح - خطة مرسومة لفتح بلاد الروم لكثرة الفتن والمشكلات الداخلية في عهده ، ويذكر الطبرى وابن الأثير تفصيل هذه الأحداث التى قامت فى الفترة ١٧٠ هـ - ١٨٦ هـ^(٣٠) ، وفى سنة ١٨١ هـ بلغ جيش الرشيد انقرة ، وفتح الرشيد بنفسه حصن الصفصافة ، وحصل أول تبادل للأسرى بين الروم والمسلمين ، كذلك قبل الرشيد أن يعقد صلحا مع الامبراطورة رينى فى سنة ١٨٣ هـ ، ويذكر الطبرى أن عيسى بن موسى مات فى أرض الروم بعد أن نجح فى حصار حسنى قره وسان ، وأن خطاب ورد الى الرشيد مما استفزه وأغضبه ، ورد على نقفور امبراطور الروم ملقبا اياه بكلب الروم ، وسار الرشيد بنفسه لقتاله وهزم الجيش الرومى هزيمة منكرة ، وقبل نقفور أن يدفع الجزية ، وكان تبادل آخر للأسرى فى سنة ١٨٩ هـ حيث لم يبق بأرض الروم مسلم ألا فودى الطبرى ١٠ - ٩٧ ، ومرة أخرى فقد نقض نقفور العهد مستغلا انشغال الرشيد بحوادث الفتنة فى خراسان ، فذهب اليه الرشيد بجيش قوامه ١٣٥ ألف ففتح هرقله وسبى أهلها ووقع فى أيدي المسلمين عدد كبير من الأسرى ، فاضطر نقفور أن يعرض الصلح ويدفع الجزية عن رأسه وسار على ذلك أهم بلده . وفى سنة ١٩١ هـ ولى الرشيد هرثمة على خراسان . ويذكر ابن الأثير أن الرشيد كان قد عزل^(٣١) واليها على بن عيسى بن ماهان .

أما علاقات الرشيد الخارجية فقد أحرزت الدولة الاسلامية

(٣٠) راجع ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء السادس ، ص ص ١١٤ - ١٧٥ .

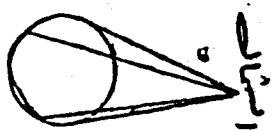
(٣١) راجع تفصيل أسباب هذا القول فى ابن الأثير ، مصدر سابق ، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

فى عهدہ تقدما لم تشهدہ من قبل بالعلاقات السیاسیة الاسلامیة مع الفرنجة وإیفاد بعثة من الملك شارلمان - ملك فرنسا - الیه وأهداف الرشید من ضرورة إقامة علاقات ودية معه مما لا یتعلق بمجال هذه الدراسة^(٣٢) أما العلاقات التجاریة والفكریة مع الهند والصین فى عهد الرشید ، فالملاحظ أنها توطدت أكثر حیث بعث ملك الهند الى الرشید بالعید من الهدایا الرمزیة القیمة ، وكان للبرامكة فضل كبیر فى ارساء دعائم العلاقات الفكریة والاقتصادیة والسیاسیة مع الدولة العباسیة حیث أطلق الرشید لهم العنان الى أن فتك بهم سنة ١٧٣هـ وكان الرشید أول من عهد الى یحیی بن خالد البرمكى بالوزارة وكان یحیی عالما كاتباً عاملاً حازماً نهض بأعباء الدولة على خیر وجه ، واهتم الرشید بحفظ الأمن فى العاصمة والأقالیم وقام بتنظیم موارد الدولة المالیة ، وكلف قاضی القضاة الأمام أبو یوسف بمسؤولیة ترتیب أمر بیت المال ، فألف كتابه المشهور « الخراج » الذى یتبر مصدرراً أميناً لدراسة الشؤون المالیة والحسابیة فى هذه الفترة .

وعموماً فقد ازدهرت الدولة الاسلامیة عامة ، والعراق خاصة فى عهد الرشید فى نواحی العلم والفكر والفن ومجالات الحضارة وصارت بغداد قبلة الباحثین عن العلم ، وكفى بشرف دولته أن اجتمع بیابه الوزراء ،

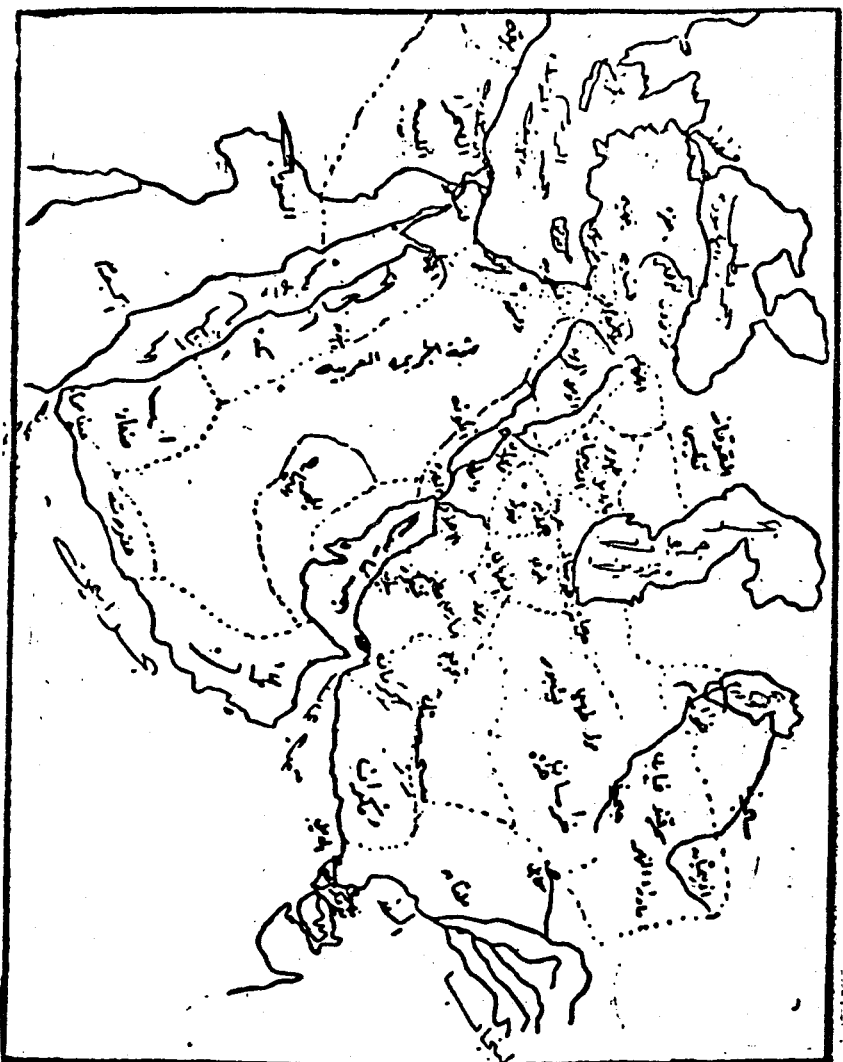
(٣٢) حول العلاقة بین المسلمین والفرنجة فى عهد الرشید راجع : - ابن الأثیر ، مصدر

سابق ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاریخ العرب ، المجلد الثانى ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ -



الدولة العباسية
فيما بين
سنة ٧٨٦ - ٨٠٩ م
مناطق الحكم
بـ

اعداد:
شماره الشماره



المصدر : دكتور احمد قانور ، دكتور شحادة الشاطور ، مرجع سابق .

والأمراء ، والقواد ، والعلماء ، والفقهاء ، والأدباء ، والخطباء ، والمحدثين ،
والشعراء ، مالم يجتمع على باب خليفة غيره ، وكان هؤلاء أو معظمهم
من الأئمة الذين يرجع اليهم الفضل فى تدوين كتب العلم والفن ، التى
أصبحت مراجع الحضارة العربية الاسلامية ، كما ازدهرت فى عصره
الحركات العقلية الفلسفية ، وعلى الصعيد الاجتماعى توافرت لسواد
الشعب حياة مقبولة ، وهو ما يستدل عليه مما ورد فى كتاب
الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهاني ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب
الفهرست لابن النديم ، وجمع عصر هارون الرشيد بين العقل والعلم ،
والسياسة والعناية بشئون الدولة والجهاد فى سبيل الاسلام ورفع شأن
الخلافة .

شئون بلاد السند :

لم يحدث تغيير سياسى مهم فى بلاد السند فى عهد الخليفة الهادى بن
المهدى ، أما فى عهد هارون الرشيد فقد انعكست مظاهر الرخاء ونهضة
البلاد العربية على الولايات التابعة للخلافة العباسية فى المجالات العلمية
والسياسية والتجارية . غير أن الخلافات القبلية العربية ظلت مستمرة فى بلاد
السند رغم الجهود الجبارة التى بذلها الخليفة للقضاء عليها ، غير أن وقوع
البلاد السندية فى أماكن نائية عن مقر الخلافة فضلا عن ضعف الولاة
الذين حكموها فى الماضى القريب ، كل ذلك جعل جهود الخليفة تذهب
سدى . وقد شهدت فترة خلافة الرشيد تولية عدد من الأحكام على بلاد
السند بدءا بسالم التونسى (١٧١ - ١٧٤ هـ) الذى حاول نشر الاستقرار
والأمن وجمع شمل القبائل العربية وقد تمكن من الحكم لمدة أربعة سنوات

بدون مشكلات سياسية أو اجتماعية . ثم اسحق بن سليمان العاشمي (١٧٤هـ) ولكنه لم يعيش كثيرا ليستفيد أهل السند من خبرته حيث توفي في نفس عام توليته قام الخليفة بعدها بتولية طيفور بن عبد الله الحميري (١٧٥ - ١٧٥هـ) ولكونه يمينا فقد تجددت الخلافات القبلية بين العرب فور حضوره الى بلاد السند ، ولما اشتدت هذه الخلافات بين الثمانية والنزارية قام الخليفة بعزله ^(٣٣) .

تولى جابر بن الأشعث الطائر (١٧٥ - ١٧٦هـ) حكم بلاد السند ، ولكنه فشل في ادارة البلاد فتم عزله ، ويلاحظ اليعقوبي خلال تلك الفترة انفصال بعض المناطق التي تقع في الجهة الشرقية لنهر السند عن الحكم العربي مثل برهمنا باد ، والور وقيام حكومات محلية سندي بها ، ويعزى اليعقوبي ذلك لانشغال العرب بالخصومات القبلية ، في حين كانت المدن والمناطق الواقعة في الجهة الغربية لنهر السند كلها تقريبا في ايدي العرب .

أما كثير بن مسلم بن قتيبة (١٧٦ - ١٧٩هـ) فقد تمت توليته من خلال أخيه سعيد بن مسلم بن قتيبة والى العراق ، لكنه انشغل بنفسه ولم يعمل لمصلحة بلاد السند اعتمادا على منصب أخيه فعزل وأعقبه محمد ابن عدى التغلبي (١٧٩ - ١٨١هـ) الذي أثار العصبية القبلية بين العرب وخشى على نفسه من البقاء في العاصمة المنصورة ، وأراد التوجه الى مدينة الملتان بأقليم البنجاب فمنعه أهلها ، واستمرت العصبية القبلية بين اليمانية والنزارية حتى عزله الخليفة هارون الرشيد الذي اختار رجلا اسمه

(٣٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٧ - ٤١٠ .

عبد الرحمن (١٨١ - ١٨٢ هـ) وفشل فى القضاء على الخلافات القبلية فتم عزله وأمر الخليفة بتولية أيوب بن جعفر (١٨٢ - ١٨٤ هـ) وحاول جهده عقد صلح بين القبائل العربية ، غير أنه فشل ووصلت الحروب القبلية بين العرب فى المنصورة عاصمة بلاد السند الى درجة خطيرة وبحث الخليفة عن شخصية قوية ، ووقع اختياره على المغيرة بن يزيد المهلبى (١٨٤ - ١٨٥ هـ) غير أن أهل المنصورة سدوا الأبواب فى وجهه ومنعوه من دخول المدينة حيث أنه من اليمانية وسوف تثور العصبية القبلية باضطهاده النزارية وهو ما حدث بالفعل ، حيث كتب الى أخيه داود بن يزيد المهلبى الذى دخل مدينة المنصورة بالقوة وطرد وسجن الكثير من النزارية ، غير أن هذا الحزم كان ضروريا لاستتبات الأمن طوال فترة ولاية داود بن يزيد التى استمرت عشر سنوات نشطت فيها أيضا العلاقات المختلفة بين أهل السند والعرب فى ميادين الطب وعلوم الرياضية والفلك .

وبانتهاء خلافة هارون الرشيد التى اتسمت بالتقدم والرخاء وتولى كل من الأمين والمأمون والمستقيم الخلافة من بعده فقد تدهورت الأحوال السياسية فى عهده على الصعيد الداخلى وبين الأسرة الحاكمة ذاتها مما عكس تأثيراته على الصعيد الخارجى تجاه الولايات الاسلامية فى آسيا بصفة خاصة على نحو سيتم التعرض له تفصيلا فى موضع لاحق .

الفصل الثاني

الفترة الداخلية وانعكاساتها الخارجية

- من الأمين بن الرشيد ١٩٣ - ١٩٨ هـ الى المأمون ١٩٨ هـ -
- ٢١٨ هـ والمعتصم ٢١٨ - ٢٢٧ هـ .
- الفتن واحداث التمرد والعصيان في عهد المأمون .
- العلاقات الخارجية في عهد المأمون .
- المعتصم بن الرشيد ٢١٨ - ٢٢٧ هـ .
- العلاقات الخارجية في عهد المعتصم .
- شئون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠ هـ .

الفصل الثانى

الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية

- من الأمين بن الرشيد (١٩٣-١٩٨هـ) (٨٠٨-٨١٣م) الى المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) ، والمعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) (٨٣٣-٨٤٢م) :

يرتبط عصرا الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد ارتباطا وثيقا ، والدتهما مختلفتان ، لكنهما ولدا فى سنة واحدة ، وبدأت الفتن بينهما بسبب تولية الأمين الخلافة لتدخل أمه ، خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وولى ابنه موسى ، فلما علم المأمون ذلك قطع صلته بأخيه ، وأخذ يستعد للدفاع عن خراسان بجيش من الفرس وأهل خراسان ، فى حين استعد الأمين بجيش من العرب ، ومن هنا احتدام النزاع بين الفرس والعرب ، غير أن جيش الأمين قد هزم ، فى حين تقدم جيش المأمون يستولى على الأقاليم ، اقليما اقليما حتى وصل الى بغداد وحاصرها سنة كاملة هدمت خلالها الأسوار ، وخربت المباني وانتشرت المجاعات ، ونفذت أموال الأمين وكانت شخصيته تتسم بالمجون ، فصمم قادة جيش المأمون على اقتحام بغداد وأحتلالها ، ونصح الحلفاء الأمين بالتنازل لأخيه عن الخلافة ، لكنه قتل وأرسلت رأسه الى أخيه المأمون ، وانتهى عصره الذى استمر خمس سنوات من الفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار السياسى ، ويعزى المؤرخون مغزى هذه الفتنة بين الآخرين الى أسباب عديدة أدت الى نتائج وخيمة .

كان هارون الرشيد قد كتب عهدا لأولاده ، يصفه المؤرخون بأنه عمل غير طبيعى لأن استقلال المأمون بخراسان والولايات الشرقية استقلالا تاما

يعنى تمتعه بخيرات هذه البلاد ، والسيطرة عليها ، واحتمال الانفصال عن سلطة الخليفة فى بغداد ، وكان سلطان الخلافة ينحصر فى بقعة محددة بجنوب العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر ، ومع ما ينبغى أن يتوفر للخليفة من سلطات وقوة فى عهد الرشيد ، فلم يكن طبيعيا أن تنتقص الدولة الاسلامية من سيادتها الشاملة على أقاليمها .

هناك نتيجة أخرى أدت اليها الفتنة التى مزقت وشائج صلة الرحم بين الأخوين ، حيث انتهز الفرس هذه الفتنة ، وخاصة من جانب المأمون - ابن أختهم - لأن أمه فارسية ، فتذكر المصادر ^(١) أن الفضل بن سهل شجع المأمون على الوقوف فى وجه أخيه لأنه ، نازل فى أخواله ، وبيعته فى عنقهم ، أما الأمين فان جماعته كانوا من الهاشمين والعرب بصورة عامة وقد أدت أطماع ذوى الطموح السياسى للوصول الى السلطة فى اتباع الفرقة بين الأخوين وتقطيع أوصال امارة المأمون ، فالفضل بن الربيع كان من أبرز هؤلاء الطامعين فى السلطة من خلال افساد ملك بنى العباس ، فهو الذى أوقع بين الرشيد والبرامكة ، وبين الأمين والمأمون أيضا ثم تخلى عن الأمين بعد ذلك ، فلما استقر الأمر للمأمون عاود سيرته فى نفاقه والتقرب اليه .

وعلى صعيد مطامع الخلفاء العباسيين فى نقل الخلافة الى أولادهم من بعدهم وليس لأصحاب الحق فى ولاية العهد ، فقد كان هذا سببا آخر فى

(١) الجيهنارى ، محمد بن عبيدوس الكوفى المتوفى سنة ٣٣١ هـ . كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم لآييارى وعبد الحفيظ الشلبى - مكتبة مصطفى البابى الحلبي . القاهرة

تصعيد الفتن والاضطرابات التي أضعفت من سلطة الدولة المركزية ،
ويلاحظ أحد المؤرخين ^(١) أن أيا من خلفاء بنى العباس كان له ولد ، فانه
كان يسعى حثيثا لخلع صاحب الحق سواء أكان عما أو خالا أو أخا أو ابن
عم ، ثم وضع ابن الخليفة فى غير موضعه غير مراعى فى ذلك خير الأمة
الاسلامية .

وكان لهذه الفتنة نتائج مادية ومعنوية ، لعل من أهمها أنها أضعفت
تمويل بيت المال فضلا عن الضرر الذى لحق بالسكان وأحييت نار العصية
بين أهل خراسان من الفرس وبين العرب بصورة عامة وانعكس ذلك على
الاسلام والعروبة ، ومع ذلك فان الآثار الأدبية الرائعة كانت نتاجا لهذه
الفترة من جانب أعلام المؤرخين أمثال الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وابن
طباطبا وغيرهم ممن تركوا تراثا اسلاميا رائعا فى الأدب السياسى والشعبى
لا يزال - وسيظل - منهلا للدارسين والباحثين .

- الفتن واحداث التمرد والعصيان فى عهد المأمون :

سواء تعلق الأمر بثورة الطالبين أو فتنة بغداد فقد قام هرثمة ابن أعين
بدور بارز فى القضاء على هاتين الحركتين ، فقد خرج محمد ابن ابراهيم
بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن على بالكوفة ، قام بأمر أحد رجال
هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا بن منصور الشيبانى ، فأرسل الحسن بن
سهل والى العراق من قبل المأمون جيشا بقيادة زهير بن المسيب ، فهزمه أبو
السرايا وتمت تولية محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين ابن سهل
جيشا ، لكن النصر كان حليف أبى السرايا فارتفع شأن الطالبين - انصار

(٢) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، ص ١٤٢ .

على بن أبي طالب - ثم وجه الحسن بن سهل هرثمة بن أعين الى أبي السرايا ، فانتصر عليه ، وقتله وأعاد الكوفة الى سلطة الدولة ، وعندما علم أتباع أبي السرايا فى مكة بقتله ، اجتمعوا ، حول محمد ابن جعفر الصادق ، وبايعوه بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين ، فأرسل المأمون اليهم هرثمة لتخليص مكة منهم ، وانتصر الجيش على العلويين ، وطلب محمد بن جعفر الأمان ثم خرج من مكة لتدخلها الجيوش العباسية .

عقب انتهاء هرثمة من القضاء على فتنة العلويين ، أراد أن يذهب الى مرو عاصمة خراسان ليطالع المأمون على دسائس الفضل بن سهل ، غير أن الفضل تمكن أن يوغر صدر المأمون عليه باتهامه بأنه وراء كل الفتن ، ولم يصغ هرثمة الى نداء المأمون بتوليته الشام ، وعند دخوله مدينة مرو ، لم ينصت المأمون لحججه ، بل عذب ، وسجن ، ثم قتل ، فلما علم أهل بغداد ثاروا على الحسن بن سهل ، وطردوه من بغداد ، وولوا منصور ابن المهدي أمر بغداد ولم يكن لديه جيش قوى ، وعمت الفوضى البلاد وأخفى الفضل بن سهل عن المأمون هذه الأخبار ، وفى هذه الأثناء اختار المأمون لولاية العهد على الرضى بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ، وسماه الرضى من آل محمد ، ويعزى المؤرخون^(٣) ذلك لتربية المأمون بين أهل خراسان والبرامكة ، غير أن أهل بغداد اتهموا الفضل بن سهل بذلك ، واجتمع العباسيون واتفقوا على مبايعة ابراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة وكان ذلك فى سنة ٢٠٢ هـ ،

(٣) دكتور أحمد قاعود ، دكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص

ولكن على الرضى أخبر المأمون بأحداث فتنة بغداد ، وبانجازات الفضل بن سهل ، ومع ذلك فقد قتله المأمون وترك ابن الأثير^(٤) ليسرد أحداث وظروف هذه الفتنة : ففي سنة ٢٠٢ هـ سار المأمون من مرد الى العراق واستخلف علي على خراسان غسان بن عباد ، وكان سبب مسيره أن علي بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتنة والقتال ، منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار ، وأن أهل بيته والناس قد نعموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون : مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم ابن المهدي بالخلافة .

« فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وانما صيروه أميراً يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وابراهيم ، والناس ينقمون عليه مكانه ، ومكان أخيه الفضل ، ومكانى ، ومكان يقيقك لى من بعدك » . « فقال : ومن يعلم هذا ؟ قال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر فأمر بادخالهم ، فدخلوا ، فسألهم عما أخبر به علي بن موسى ، ولم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن يعرض اليهم . فضمن لهم ذلك ، وكتب لهم خبر به ، فأخبروه بالسعة لابراهيم بن المهدي ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان علي بن موسى فيه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة انما جاء لينصحه ، فقتله الفضل ... » .

ويستطرد ابن الأثير قائل : « فلما تحقق ذلك أمر بالرحيل ، فعلم

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ من ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .

الفضل بالحال ، فبغتهم ، حتى ضرب بعضهم ، وحبس بعضهم ، ...
فقال على بن موسى للمأمون فى أمرهم ، فقال : أنا أدري ، ثم ارتحل ،
فلما أتى سرخس وثب قوم بالفضل بن سهل ، فقتلوه فى الحمام
وهربوا ... فجاء بهم العباس بن الهيثم الدنيورى ، فقالوا للمأمون : أنت
أمرتنا بقتله ، فأمر بهم ، فضربت رقابهم .

أما فتنة الزط فقد شكلت هى الأخرى ازعاجا وتوترا شديدا للمأمون ،
ويعرف الزط بالنور ، وينتسبون الى هندو آسيا وكانوا يسكنون شواطئ
الخليج العربى ، واستولوا على الطريق الى البصرة خلال فتنة الأخوين الأمين
والمأمون ، فلما استقرت الأمور للمأمون ارسل اليهم عيسى ابن يزيد
الجلودى سنة ٢٠٥هـ غير أنه لم يحرز انتصارا يذكر ، وفى سنة ٢٠٦هـ
ارسل اليهم المأمون داود بن ماسجور ، ولم يحقق هو الآخر انجازا يذكر ،
واستمر أمرهم حتى سنة ٢١٩هـ فى عهد المعتصم الذى ارسل اليهم
عجيف بن عنبة بعد أن عاثوا فسادا بالقرب من البصرة فحاصروهم وأسر
وقتل الكثيرين ، ثم انقطعت أخبارهم حتى عادوا للظهور فى أيام
المتوكل .

وقد واجه المأمون أيضا فتنة بابك الخرمى الذى خرج ٣٠١هـ (٨١٦م)
من شمالى ايران فى « مازندران » بالقرب من أذربيجان ، فأعلن تمرده على
الاسلام ، وأحياء دين مزدك والدعوة الى دين الفرس^(٥) . وقد ظهر

(٥) شرح ابن النديم فى كتاب الفهرست ، والبندارى فى كتابه الفرق بين الفرق ما دعا اليه بابك
وان الحزمية أو الحزمدينية (الأولون) ويسمون أيضا الحمرة ، وصاحبهم مزدك أباح التابعة
تناول اللذات ومزاولة الشهوات ، والمشاركة بين الناس فى الطعام والحرم والملل ، وتحريم =

بابك بحركته ، والبلاد لم تكن قد استقرت بعد فى عهد المأمون ، ولما كثر انصاره ودخل المأمون بغداد ، بعث يحيى بن معاذ لمحاربتهم عدة مرات ، غير أنه فشل فى أسر بابك الذى أخذ سلطانه يقوى فى أذربيجان وهمذان ، وأصفهان ، وماسندان حتى مات المأمون وفتنة بابك فى ثمتها وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم^(٦) بالقضاء على الخرمية .

- العلاقات الخارجية فى عهد المأمون :

لم تستأثر الشؤون الخارجية باهتمام المأمون فى أول عهده ، ولكنه بعد عودته الى بغداد جدد سياسة اعادة غزو الروم فتوجه سنة ٢٠٥ هـ لغزوهم ، مارا بالموصل فانطاكية وطرطوس باعتبارها نفرا قويا حيث عبأ قواه وسار الى بلاد الروم ففتح حصن قره ، وأعتق أسرى المسلمين بعد شرائهم ثم فتح قواده حصون سندس وستان ، ثم قفل راجعا الى الشام ، وكان ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل قد هجم على طرطوس والمصيصة^(٧) ، فعاد المأمون وقاتله وأخضعه ، وافتتح عددا من الحصون^(٨) وهدم القلاع وطلب تيوفيل

= القتل وقد حاربهم الملك كسرى أنوشروان ، وقتل صاحبهم ، وقد أطلق عليهم فيما بعد لفظ « البابكية » نسبة الى بابك الحرمى وكان يقول أنه آله وأنه يجدد دين الحمرة ويبيع لأتباعه قتل مخالفهم .

راجع : دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثامن من ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٦) الحضرى ، تاريخ الأمم الاسلامية ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٧) راجع فى تفصيل ذلك : ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى المغربى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٩٧١ .

(٨) راجع فى تفصيل ذلك : اليعقوبى ، الجزء الثالث من ١٩٢ ، الطبى ، الجزء العاشر من ٢٨١ .

الصلح مع المأمون نظير عدة شروط لم يوافق عليها المأمون حيث جدد غزوه سنة ٢١٧هـ لبلد تيوفيل ، وعاود الغزو سنة ٢١٨هـ حيث جمع جيشا من العواصم والشغور فى العراق والشام ومصر وخراسان وبلاد العرب استعدادا لحرب طويلة ، ويصف اليعقوبى هذه الاستعدادات قائلا : « استعد المأمون لحصار عمورية ، وقال أوجه الى الغرب ، فأتى بهم من البوادرى ، ثم انزلهم كل مدينة مفتوحة حتى أخرب القسطنطينية ، فلما بلغ امبراطور الروم ذلك طلب هدنة بينهما رفضها المأمون ، وقصد بلاد الروم ، ونزل طرطوس ، يستعد لحملة الحرب الكبرى ، غير أن المنية وافته .

وفى تقويم المأمون بشأن ادارة علاقاته الخارجية عموما ، يقول المسعودى : « كان حسن التدبير ، لاتخذعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، ولم يكن يعاب فى حكمه بشىء سوى تهاونه بالأمر بعد استخلافه فترة ، وتركه السلطة لآل سهيل يفعلون ما يريدون ، كما يعاب عليه تقريبه الأعاجم وتبعيده للعرب ^(٩) » .

أما ابن الأثير فيقول : « تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا ، وقال : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له : أكثرت على ، والله ما أنزلت قيسا من ظهور خيلها الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببتنى قط ، وأما قضاة فساداتها تنتظر السفينانى حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطه على ربها منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا وخرج أحدهما سائسا أعرف مثل الله بك ... » ، ويستدل من قول هذين المؤرخين

(٩) المسعودى : مروج الذهب ، الجزء الأول ص ٣٠٤ .

العملاقين أن السياسة الأعجمية قد غلبت على المأمون على حساب العرب ، ومع ذلك فإن عصر المأمون يعتبر خاتمة للدولة العباسية القوية في المشرق ، وفترة ازدهار عربية اسلامية ، وهو ما نصح به المأمون ولي عهده المعتصم بشأن محافظته على نسل على بن أبي طالب قائلا : « .. هؤلاء ولد عملك من أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم ، فلا تغفلها كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى ... » .

وتكتمل الصورة الاسلامية المشرقة في عهد المأمون عند استعراض الأحوال الادارية ، والحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في عهده ، فقد كانت الوزارة في عهد الأول وزارة تفويض من خلال تواجده في مرو ، فقد فرض أمرها الى الفضل بن سهل ، الذي كان له الفضل في ايصاله الى الحكم ، فأطلق يده في الدولة وسماه ذا الرياستين ، رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ، وفي تقويم هذا التفويض يرى طلس^(١٠) أن بقاء المأمون في خراسان وتقليم أظافر العرب في ديارهم وتقويته مخالب الفرس ، لم يكن في حقيقته سوى تأييد للسياسة الفارسية ، واحياء للدولة الكسروية ، وفي أواخر أيامه استعان المأمون بوزير كفاء هو ابن سويد حيث اطمأن اليه ، وقد سار لمأمون في الأمور المالية من خراج ، وجباية ، وضرائب على سيرة ابيه مستنيرا بكتاب الامام القاضي ابن يوسف ، فازدهرت البلاد اقتصاديا في عهده ، وقد شهد ابن خلدون في تاريخه وثيقة قيمة ذكرها في المقدمة نقلًا

(١٠) الدكتور محمد سعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ -

عن كتاب جراب الدولة عدد الاقاليم الاسلامية فى عهد المأمون ومقدار
جبايتها^(١) .

أما الحياة الفكرية والعقلية فقد ازدهرت ، ويعتبر عصر المأمون العصر
الذهبى الرائع للحضارة الاسلامية ، وهو عصر الازدهار بالفعل حيث نقب
عن المخطوطات الاغريقية والأجنبية فجمعها وعمل على ترجمتها وأغدق
على المترجمين ، وبلغت العلوم الاسلامية ذروتها ونبغ علماءها فى الفقه ،
والأصول ، والحديث ، والكلام ، واللغة ، والأدب ، والشعر ، ونقل
الفلاسفة السورىون فى حران وانطاكية علوم الأولين الى العربية ، وجمع
المأمون فى دار كتبه المسماة بيت الحكمة كنوز العلم وأثاره من اسلامية ،
وغير اسلامية ، وكان المأمون متفتحا على الثقافات المختلفة فلم يؤثر
مذهبا أو عرقا خاصا فأباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع
المتعلمين على اختلاف أديانهم ، كما أنشأ مجلسا استشاريا للدولة يتألف
من ممثلى جميع الطوائف من مسلمين ويهود ومسيحيين وصائبيين على
حد سواء .

واستمرت الحياة الاجتماعية كما كانت فى عصر سلفه الرشيد ، لولا
أن الفتنة بين الأخوين (الأمين والمأمون) قد تركت بصماتها لفترة
فأفسدت مظاهر الحياة الاجتماعية الى حد ما ، فى حين انتعشت الحياة
الاقتصادية كثيرا فى عصره وهو ما انعكس على الزراعة والتجارة والصناعة ،
ومهما يكن من شىء . فقد كان المأمون خليفة عظيم الشأن ، ولو طال
أجله لكان شأنه أعظم .

(١) المرجع نفسه ص ١٥٩ - ١٦١ نقلا عن مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٩ - ٣١١ .

- المعتصم بن الرشيد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) - (٨٣٣ - ٨٤٢ م) :

شهدت فترة خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) (٨٨٣ - ٨٤٢ م) العديد من الفتن الداخلية والتمردات ثم الحروب مع الروم . ففي عهده تمرد محمد بن القاسم بن علي من الزيدية ، في خراسان ، والتف حوله الناس ، فأرسل اليه عبدالله بن طاهر أمير خراسان الجيوش الى أن هزمه ، وأسره ، وأرسل الى المعتصم حيث سجن في سامراء سنة ٢١٩ هـ .

وفي عهده قوى الزط ، وهم قوم من أخلاط الشعوب الآرية والسامية وأخذوا يعبثون في الأرض فسادا ، ويقطعون على السابلة طريقهم ، بين البصرة ، وواسط ، وبغداد ، حتى انقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل اليها من السفن ^(١٢) ، وقد حاربهم المعتصم حتى استأمنوا له . كما واجه المعتصم ثورة مازيار الكارين آخر الأمراء القارنيين الذي أخرجه شهر يار ابن شيرويه من طبرستان ، فالتجأ الى المأمون ، وأسلم على يديه ، غير أن اسلامه كان سطوحيا ^(١٣) . ولما قوى أمره أعلن استقلاله عن الخليفة الذي كان قد ولاه على طبرستان وما والاها ، فأعلن عصيانه ، واستولى على أملاك العرب ومواليهم ، وأغرى فلاحى تلك البلاد على قتل أصحاب الأراضي من العرب قائلا : « انى قد أبحتكم منازل أرباب الضياع ، وحرمتهم ، فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك ، ثم خذوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم ^(١٤) » .

(١٢) راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ص ٣٨١ - ٣٨٤ .

(١٣) راجع : المسعودى ، البلاذرى ، البغدادى ، الطبرى ، وذلك لمزيد من التفصيل .

(١٤) نقلا عن الطبرى ، الجزء العاشر ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

ويرى طلس أن تمرد أو ثورة مازيار كانت فارسية ، خرمية ، ترمى الى هدم الدين الاسلامي والخلافة العربية ، وقد اعتنق كثير من الايرانيين أفكار مازيار ، واضطر الخليفة أن يبعث اليهم الحسن بن الحسين ، وحيان ابن جبلة ، ومحمد بن ابراهيم ، لمعاونة عبد الله بن طاهر في القضاء عليهم ، واستطاع الجيش الاسلامي أسره ، وارساله الى سامراء حيث صلب الى جانب بابك سنة ٢٢٤هـ وهو ما يستدعي وقفة للتفسير .

فقد سبقت الاشارة أن المأمون أوصى المعتصم قائلا : « والخرمية فأغزهم ذا ضرامة وصرامة ، جلدا فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك » ، فلما قويت شوكة بابك الخرمي وكاد يسيطر على بلاد فارس ، لولا أن الخليفة المعتصم اختار لحرب بابك قائدا كبيرا هو حيدر بن كاوس الأشروسني الملقب بالأفشين ، وبعثه اليه في سنة ٢٢٠هـ ، وتمكن هذا القائد من أسره بابك واسرته واحضاره الى سامراء ، وما لبث أن قتل وصلب على نحو ما سبقت الاشارة اليه ، ويروى الطبري أن عدد من قتلهم بابك في عشرين عاما بلغ ما يزيد على ربع مليون مسلم ، في حين يقول المسعودي : « ان من ادراكه الاحصاء ممن قتله بابك في ٢٢ سنة من جيوش المأمون والمعتصم من الأمراء ، والقواد ، وغيرهم من سائر طبقات الناس في القول وقيل أكثر من ذلك » ، وترجح المصادر العربية ^(١٥) تقدير الطبري باعتباره أقرب الى الصواب لأنه كان يطلع على

(١٥) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، ص ١٨٢ .

الوثائق الرسمية .

أما الأفشين ذلك القائد الذى أسر بابك ، فقد قام هو الآخر بفتنة حيث طمع فى الاستقلال بأشروسنة ، فساءت ظنون الخليفة به ، وهرب الأفشين الى أرمينية عبر طريق الموصل ، وقام بمؤامرة لقتل الخليفة نفسه ، لكنه فشل فى تحقيقها ، وعقد المعتصم محكمة للأفشين^(١٦) ، واعترف بذنبه ، فسجن حتى مات سنة ٢٢٦هـ .

- العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم :

لم يثق المعتصم فى جنود بغداد ، فأحضر الأتراك وأسكنهم بغداد وأعجبه شجاعتهم ، واستغنى عن جيوش العرب ، وأسقطهم من الدواوين ، واستكثر من الفراغة ، والأشروسنية ، فكثر جيشه ، ولما تعاظم خطرهم ورأى المعتصم انهم سيثيرون له المشكلات ، بنى لهم مدينة أسماها سامراء سنة ٢١٩هـ ، وترك ابن الأثير ليحكى ظروف هذه المدينة^(١٧) قائلا :

« فى هذه السنة خرج المعتصم الى سامراء لبنائها ، وكان سبب ذلك أنه قال : انى أتخوف هؤلاء الحرية أن يصبحوا صيحة فيقتلوا غلمانى ، فأريد أن أكون فوقهم ، فان رابنى منهم شيء ، أتيتهم من البر والماء ، حتى أتى عليهم ، فخرج اليها ، فاعجبه مكانها » .

« وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك ،

(١٦) راجع تفصيل محاكمة الأفشين فى الطبرى ، مصدر سابق .

(١٧) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلا ، ذلك أنهم كانوا جفاة ،
يركبون الدواب ، فيركضونها الى الشوارع ، فيصدمون الرجل والمرأة
والصبي ، فيأخذهم الأبناء على دوابهم ، ويضربونهم ، وربما هلك أحدهم
فتأذى به الناس .

ويضيف ابن الأثير قائلا :

« ثم أن المعتصم ركب يوم عيد ، فقام اليه شيخ ، فقال له : يا
أبا اسحق ! فأراد الجند ضربه ، فمنعهم وقال : يا شيخ مالك ،
مالك ؟ قال : لا جزاك الله عن الجور خيرا ، جاررتنا ، وجئت
بهؤلاء « العلوج » من غلمانك الأتراك ، فأسكنتهم بيننا ، فأميئت
صبياننا ، وأرملت به نسواننا ، وقتلت رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك ،
فدخل منزله ، ولم يركب الى مثل ذلك اليوم ، فخرج فصلى بالناس
العيد ، ولم يدخل بغداد ، بل سار الى ناحية القاطول ، ولم يرجع الى
بغداد . »

« ... ولما خرج المعتصم الى القاطول استخلف ببغداد ابنه
الواثق ، وكان المعتصم قد اصطنع قوما من أهل الحوف بمصر ،
واستخدمهم ، وسماهم المغاربة ، وجمع خلقا من سمرقند ،
وأشروسنة ، وفرغانة ، وسماهم الفراغة ، فكانوا من أصحابه ،
ويقوا بعده ، وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة إحدى وعشرين
وماثنين . »

وقد انعكست هذه الظروف على علاقاته الخارجية خاصة وهو يحارب الروم ، حيث الفتن الداخلية عاقته عن الاستمرار فى حربهم ، وتذكر المصادر أن بابك قال للملك الروم : ان ملك العرب قد وجه أعظم جيشه الى ، ولم يبق على بابه أحد ، فاغتنم الفرصة ، فلم يلبث ميخائيل بن تيوفيل حتى خرج فى جيش عظيم فأتى « زيطرة » فقتل أهلها وسبى نساءها وأحرقها ، ثم مضى الى ملطية ، فأغار على أهلها ، وبلغت هذه الأخبار مسامع المعتصم ، فسأل : أى بلاد الروم أعظم أو أمنع ؟ ، فقالوا له : (عمورية) ، وهى مسقط رأس تيوفيل ، فجهز جيشا وسار بنفسه عليه ، وانتصر عليه ، وسار الى أنقرة ودخلها ، وسار الى عمورية سنة ٢٢٣هـ ، واشتد القتال بينه وبين الروم ، واقتحم المسلمون المدينة وغنموا مغنم كثيرة ، ويذكر المسعودى أن المعتصم أراد المسير الى (القسطنطينية) وفتحها برا وبحرا ولكنه ما لبث أن غادرها بعد أن اكتشفت مؤامرة لقتله واستخلاف العباس ابنه مكانه ، فسجن العباس وقتل القادة المتآمرين .

وهكذا ارتبط الجيش بالوقعات الخارجية وخاصة فى بلاد الروم ، فالمعتصم نفسه كان عسكريا ، وقد سبقت الإشارة الى استكثاره من الموالى الأتراك وعدم وثوقه فى أهل خراسان وأقصى العرب عن الجندية ، واهتم بمدينة سامراء اهتماما كبيرا حتى صارت قلعة عسكرية تعتبر من أعظم الحواجز الاسلامية . غير أن عهده قد بدأ به بما يسميه المؤرخون بعصر الضعف والتفكك فى الدولة العباسية ، كما ينسب الفضل فى محافظته على الأسرى المسلمين الى الواثق بالله ابنه حيث كتب ملك الروم اليه يطلب منه تبادل الأسرى ، فاستجاب الواثق لطلبه ، وتم تبادل الأسرى

على نهر اللامس وكان عدد الأسرى من المسلمين ٤٦٠٠ ومن أهل الذمة ٥٠٠ (١٨)

- شعون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠ هـ :

كان والى بلاد السند داود المهلبى لايزال يحكمها حين تولى الخليفة الأمين ، ورغم الاضطرابات التى سادت دار الخلافة وبعض ولاياتها الاسلامية - على نحو سبقت الاشارة اليه تفصيلا - فان الأوضاع كانت هادئة ومستقرة فى بلاد السند ، وبمقتل الخليفة الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وتولى شقيقه المأمون الخلافة قرابة عشرين عاما ، فقد نشطت العلاقات الثقافية والتجارية مع بلاد السند .

تولى بشر بن داود المهلبى (٢٠٥ - ٢١٢ هـ) ولاية بلاد السند وكانت أسرته قد بلغت حدا من القوة والنفوذ والسيطرة فى هذه البلاد ما جعله يشعر بالغرور ولم يهتم بدار الخلافة وامتنع عن دفع الخراج فقرر الخليفة عزله (١٩) وعين مكانه حاجب بن صالح سنة ٢١٢ هـ ، وقد حدثت خلافات مع شقيق بشر حاكم اقليم مكران ، وكان على حاجب أن يتوجه الى العاصمة المنصورة وهو ما جعله يخشى الأخوين معا ، فتقاعس وفشل فى مهمته ، وعندما علم الخليفة بقوة بشر بن داود الجبارة فى بلاد السند ، وقع اختياره على قائد كبير من نفس قبيلة بشر « آل المهلب » يسمى غسان ابن عبادة المهلبى ، ولما وصل غسان الى بلاد

(١٨) الحضرى ، تاريخ الأمم الاسلامية ص ٢٥٣ .

(١٩) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ، ص ١٠٩٨ - ١١٠١ .

- البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٤٢ - ٥٤٥ .

السند ، قدم له بشر واعتذر على ما حدث من التباس مع حاجب ، كما أبدى اعتذاره لتأخره عن دفع الخراج لدار الخلافة وسلم اليه حكم بلاد السند والذي سلمه بدوره الى ابن يحيى البرمكى ^(٢٠) كتعليمات الخليفة .

تسلم موسى بن يحيى بن خالد البرمكى زمام الحكم فى المنصورة ببلاد السند واستمر فى الفترة ٢١٦ - ٢٢١ هـ ، وفى عهده تم أخمد اضطرابات وفتن انفصالية حيث نشبت معركة بين الجيش العربى والجيش السندى وتمت هزيمة الأمير السندى حيث أمر الوالى بقتله ، واستطاع موسى البرمكى توطيد العلاقات التجارية والتعليمية بين العرب وأهل السند رغم قلة الخراج الذى أرسلته الى دار الخلافة .

وفى عهد موسى البرمكى قام الفضل بن ماهان أحد حكام العرب بحملة على مدينة سندان الهندية القريبة من بلاد السند ، وفتحها وظل يحكمها مستقلاً ، وكان هذا بمثابة انجاز كبير للعرب وشجعه الخليفة ، وبموت الفضل بن ماهان تولى ابنه محمد زمام الأمور فى هذه الدولة العربية الاسلامية الصغيرة ، ونجح فى توسيعها بمنطقة مجاورة حيث فتح مدينة قالى الهندية - بالقرب من سندان - غير أن أخاه ماهان أستولى على حكم سندان خلال تغيبه ، وكتب الى الخليفة المعتصم راجياً المساعدة ، ولكن ماهان استطاع الحصول على تأييد أهل السند المقيمين هناك وغدر بأخيه وقتله ، وقد انتهز حكام بلاد الهند فرصة الفرقة بين الأخوين وقاموا بهزيمة جيوش ماهان ثم قتلوا ماهان نفسه وهكذا

(٢٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس من ص ١١٤ - ١١٦ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٣ - ٢٥٦ .

زالت هذه الدولة الاسلامية الصغيرة فى تلك البقعة الهامة من بلاد الهند .

أما فى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) فقد حدثت فتنة هددت دولته وهى فتنة السند المعروفين بالزط الذين كانوا يسكنون بالبطائح بين البصرة وواسط بالعراق منذ عهد الخلفاء الراشدين حيث قام الزط بقطع الطرق ونهب أموال التجار والمسافرين ثم استولوا على طريق البصرة وفرضوا المكوس الجائرة ، وحالوا دون وصول المؤن الى بغداد حتى تمكن الخليفة من هزيمتهم ونفيهم^(٢١) الى آسيا الوسطى بحملة عجيف ابن عتبة أحد قواد العرب .

تولى عمران البرمكى ولاية بلاد السند بعد وفاة والده موسى سنة ٢٢١هـ واستمر فى الحكم حتى سنة ٢٢٦هـ ، ولم تمض أيام قلائل على استلامه الحكم حتى قامت القبائل الزطية السندية بالفتن والاضطرابات ضد العرب فى كل مكان وخاصة فى المناطق الغربية لنهر السند ، وقد قاتلهم عمران البرمكى وانتصر عليهم ونشر الأمن والاستقرار هناك ، ثم بنى مدينة فى منطقة بوقان أسمها « البيضاء » وهى بمثابة حصن منبع كى يراقب الجنود العرب هؤلاء الزط ، ثم تكررت الفتن من أهل قندايل وحاكمها العربى « محمد بن الخليل » ، فقاتله عمران وانتصر عليه وفتح المدينة ، وشبت فتنة ثالثة من قوم الميد المنافس لقوم الزط فهزموهم عمران ، أما الفتنة التالية فجاءت من العرب أنفسهم ومن داخل

(٢١) وقد ظلوا هناك حتى أسرههم البيزنطيون سنة ٢٤١هـ ، راجع الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء العاشر ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .

المنصورة عاصمة بلاد السند وهي تجديد العصبية القبلية بين الفريقين والخصمين اللدودين : النزارية واليمانية حيث عمل النزارية على اسقاطه والقضاء عليه وكان قائدهم عمر بن عبد العزيز الهبارة حفيد أحد الثوار العرب العظماء . وبالفعل تمكن من قتل عمران البرمكى سنة ٢٢٦ هـ .

عكست هذه الفتن والاضطرابات آثارها السيئة على استمرار الأوضاع فى بلاد السند وتشتت شمل العرب وهو ما انتهزته قبائل الزط والميد للقيام بالفتن ضد العرب الذين ازدادوا فرقة ، فى حين استقل بعض الحكام العرب والسند بقلاعهم ومناطقهم^(٢٢) .

تولى عنبه بن اسحق الضبى^(٢٣) حكم بلاد السند الذى اهتم بتهدئة الخلافات القبلية بين عرب المنصورة ، لكنه لم يعاقب عمر بن عبد العزيز الهبارى على قتل عمران البرمكى ، وربما يرجع ذلك الى تلك القوى البشرية الهائلة التى وقفت وراءه واختارته زعيما لها مما أدى الى سكوت الخليفة والوالى الجديد معا . وينسب الى عنبه بن اسحق الضبى أنه قضى على نفوذ حكام الاقاليم وزعماء القبائل العربية وزعماء القبائل السندية وبنى سجنا كبيرا للمتمردين منهم فى مدينة الديبل الشهيرة وفى موقع حصين سنة ٢٣٤ هـ وبذلك استطاع نشر الأمن والاستقرار فى بلاد السند^(٢٤) .

(٢٢) اليمقوبى ، تاريخ اليمقوبى ، الجزء الثانى من ص ٥٨٤ - ٥٨٦ .

(٢٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث من ص ٥٤٢ - ٥٤٥ .

(٢٤) المصدر نفسه من ص ٤٣٥ - ٤٣٨ .

ترك عتبة الضبي ولاية بلاد السند بعد تولى الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) وتم تعيين هارون بن خالد المروزي حاكم البلاد في الفترة ٢٣٥ الى ٢٤٠ هـ ، وتجددت الخصومات بين النزارية واليمانية حتى قتل هارون نفسه فاستولى عمر بن عبد العزيز الهباري زعيم النزارية على الحكم في المنصورة سنة ٢٤٠ هـ ، وأبدى اخلاصه وولاءه للخليفة المتوكل على الله فوافق على توليته حكم بلاد السند ، غير أنه - أى عمر بن عبد العزيز الهباري - سلك سياسة جديدة تهدف الى استقلال حكم تلك البلاد عن دار الخلافة ونجح في ذلك لأن الظروف ساعدته ، وظل ابناؤه من بعده يرثون حكم دولته - التي كانت عاصمتها « المنصورة » - لمدة أكثر من قرن في تبعيتهم للخليفة العباسي ، وبذلك ظهرت حكومة عربية جديدة في المنصورة .

وتجدر الإشارة الى قيام دولة عربية ثانية في الملتان باقليم البنجاب باسم الدولة العربية في الملتان ، ومعنى ذلك أن الحكم العربي ببلاد السند قد انقسم الى حكومتين شبه مستقلتين عن الخلافة العباسية منذ سنة ٢٤٠ هـ ، وهو ما سوف يتم التعرض له في اطار الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية في موضع لاحق من الدراسة .

الفصل الثالث

من عصر الانحلال الأول إلى بروز الولايات الإسلامية الانفصالية في آسيا

- خلفاء عصر الانحلال الأول .
- شئون الخلافة .
- بروز الولايات الإسلامية الانفصالية الاستقلالية .
- ١- الدولة الصفارية ٢٤٧ - ٢٨٩ هـ
- ٢- الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ
- ٣- من الدولة السامانية ٢١٦ - ٣٨٩ هـ
- الى الدولة الغزنوية ٢٥١ - ٥٨٢ هـ
- ٤- دولة آل بوية ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ
- ٥- الحمدانيون ٢٩٣ - ٤٠٢ هـ
- ٦- من الدولة الزيدية ٢٠٣ - ٢٥٣ هـ
- الى الدولة الزيدية ٢٥٠ - ٣٥٥ هـ
- ٧- الدولة الهبارية ٢٤٠ - ٤١٦ هـ
- ٨- الدولة الملتانية ١٥١ - ٤٠١ هـ

الفصل الثالث

من عصر الانحلال الأول الى بروز الولايات الاسلامية الانفصالية فى آسيا

لعل الهزات التى تعرض لها العالم الاسلامى ابتداء من القرنين الثالث والرابع الهجريين ، - قد أثرت سلبيا على حركة التاريخ الاسلامى ، فالأحداث الخطيرة والمتلاحقة أضعفت الدولة العباسية ، بل وصلت الى درجة الانهيار فى الفترات اللاحقة سواء تعلق ذلك بالتطورات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية والعقائدية . وقد شهدت الدولة العباسية مراحل انحلالها ثم سقوطها ، حتى القناع الدينى قد سقط هو الآخر ، فقوى المتمردون وانسلخوا عن جسد الدولة السياسى بأقاليمهم ، وخاصة فى آسيا وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة ، فاليمن انسلخت بقيادة يعفر ابن عبد الرحيم ، كما انفصلت سجستان على يد الأسرة الصفارية ، واستقلت خراسان ، وما وراء النهر بزعامة الطاهريين ، والسامانيين ، وآلت الموصل ، وشمال الشام وديار بكر الى زعامة بنى حمدان ، وفى فترات لاحقة سيطر الهوهميون والسلاجقة ثم المغول على مركز الخلافة ذاتها .

ولما كانت هذه الدراسة تجمع بين المنهجين التاريخى والتحليلى فسوف يتم استعراض خلفاء العصر العباسى الثانى بتسلسلهم ، ثم نستعرض فى اطار المنهج التحليلى السمات البارزة التى مرت بها هذه الفترة بدءا بالانحلال الأول ٢٣٢ - ٣٢٠ هـ بما شملته بمجالات الانحلال التى امسكت بالجسد السياسى ، أى الدولة ، مروراً بنتائج هذا الانحلال والتى كان

أهمها الحركات الانفصالية وظهور العديد من الدويلات فى آسيا (الطاهرية ، الزيدية ، الصفارية ، السامانية ، الساجية) وانتهاءً بعصرى الانحلال الثانى ٣٢٠ - ٤٢٢ هـ ثم سقوط الدولة العباسية نهائيا سنة ٦٥٦ هـ نتيجة لما عكسته الأوضاع الداخلية على علاقاتها الخارجية من ناحية وعلى صعيد العلاقات السياسية الاسلامية - وهذا هو الأهم من ناحية أخرى - لتفسير وتحليل فكر أصحاب الدعوات المخالفة لمذهب الخلافة مثل الاسماعيلية والقرامطة والحركات « العقائدية » الأخرى غير أننا نبدأ أولا فى هذا الفصل بخلفاء عصر الانحلال الأول .

- خلفاء عصر الانحلال الأول :

تتفق المصادر ^(١) أن الخليفة فى هذه الفترة كان أسيرا فى يد الأتراك فان شاءوا أبقوه ، أو خلعوه ، أو قتلوه ، ويعتبر المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ - ٨٦١ م) هو بداية ما اصطلاح المؤرخون على تسميته بدور الانحلال ^(٢) فى الدولة العباسية ، وكان المتوكل يكره العلويين ، وأمر فى سنة ٢٣٧ هـ بصدم قبر الحسين ابن على بكرىلاء ، وفى عهده تصاعدت غازت الروم على الثغور الاسلامية وقاموا بنهبها واسر الكثير من سكانها ، كما قوى نقوذ الأتراك فى عصره وامتد ليشمل جميع مرافق الدولة حتى تأمروا عليه وقتلوه .

تولى ابنه محمد المنتصر الخلافة بعد مقتل والده ، وفى عهده (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ٨٦١ م زادت هيمنة الأتراك وسيطرتهم على الدولة

(١) راجع على سبيل المثال : دكتور حسن على ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسى ، القاهرة ١٩٧٣ ، دكتور على حسنى الخربوطلى ، الدولة العربية الاسلامية . البانى الحلى القاهرة

(٢) دكتور محمد أسعد طلس . تاريخ العرب ، الجزء السادس ، عصر الانحلال ، مرجع سابق ، ص

ف عزلوه ، وبايعوا المستعين أحمد بن المعتصم سنة ٢٤٨هـ . ولم يلبث الأتراك أن استولوا على أمور الدولة كلها ، وتولى أحد القواد الأتراك الوزارة ، وبعد مضي أربع سنوات ، اضطروا المستعين أن يخلع نفسه ثم قتلوه سنة ٢٥٢هـ وفي عهده اضطربت الأحوال على الثغور ، واجتاح الروم البلاد قتلا ونهباً في عهد خلفه المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) (٨٦٦ - ٨٦٩م) حيث قتل ، ويصف ابن طباطبا هذه الفترة قائلاً : « لم يكن المعتز بالله بسيرته وعقله بأس ، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وأن شاءوا خلعه ، وأن شاءوا قتلوه ، ولو جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه ، وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش ، وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالجلس بعض الظرفاء ، فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك ^(٣) . »

ثم تولى الهندي (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) (٨٦٩ - ٨٧٠م) الخلافة حتى خلعه الأتراك ، وكان متدينا ناهجا نهج الخلفاء الراشدين ، وروى ابن طباطبا أنه قال : « انى استحي من الله أن لا يكون فى بنى العباس مثل عمر ابن عبد العزيز فى بنى أمية ... » .

وتجدر الإشارة أن الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية قد ظهرت فى هذه الفترة ، ثم تصاعدت حدتها ، نتيجة الفوضى والاضطراب فى العاصمة ، ففي سنة ٢٤٩هـ ثار عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على فى الكوفة ، واجتمعت اليه الزيدية ، ودعا الى «الرضا من آل محمد» وفى سنة ٢٥٠هـ ثار الحسن بن زيد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد ابن على فى طبرستان ، فتملكها ، كما تملك جرجان الى سنة ٢٧٠هـ ، ثم

(٣) راجع : ابن طباطبا ، صفى الدين محمد بن على . المتوفى سنة ٦٦٠هـ ، الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

قام أخوه محمد بن زيد من بعده فضم اليه مملكة الديلم أيضا ، وبقي يحكمها الى أن قضى عليه السامانيون سنة ٢٨٧هـ ، وفي سنة ٢٥٥هـ كانت ثورة صاحب الزنج التي أفلقت الخليفة ، وأضعفت أركان الدولة ، وكاد الثوار أن يفوزوا على جيش الخليفة لولا أن أخا الخليفة الموفق طلحة قد تمكن من القضاء على هذه الثورة سنة ٢٥٠هـ - ٨٨٣م بعد أن استمرت أربع عشرة سنة ، وتركت أثارا مخيفة من التدمير والفساد^(٤) .

تولى المعتضد الخلافة في الفترة ٢٧٩ - ٢٨٩هـ - ٨٩٣ - ٩٠٢م عقب وفاة أخيه الهندي ، وفي عهده ثار العرب في جزيرة الفرات لكنه تمكن من القضاء على هذه الثورة ، ثم ظهرت فتنة حمدان بن حمدون الذي سيطر على قلعة ماردين ، غير أن المعتضد استطاع أن ينتصر عليه واحضاره الى بغداد^(٥) ، كما ظهر هارون الشاري الخارجي ، فأرسل عليه الحسين بن حمدان الذي انتصر عليه وأحضره أسيرا الى بغداد ، وظهر القرامطة بالبحرين والعراق والشام وكانوا من القوة بحيث استمروا فترة من الزمن يقلقون المسلمين والخلافة كما سيأتي ذلك في موضع لاحق من الدراسة ، وفي عهد المعتضد خرج عليه رافع بن هرثمة ، واحتل نيسابور

(٤) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، الجزء السادس ، المجلد الثاني ، مرجع سابق ، ص ١٠ نقلا عن كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٥ .

(٥) ابن الجذري ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ، المتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الجزء الخامس ، حيدرآباد ، الهند ١٣٥٨هـ ص ص ١٤٦ - ١٤٨ .

وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي ، ففضى عليه عمرو بن الليث وأرسل كتابا الى المعتضد مع رأس رافع ، وكان رافع قد طالب أن يوليه الخليفة بلاد ما وراء النهر وعزل اسماعيل بن أحمد الساماني ، ووقعت مناوشات عديدة انتهت بوضع الشرق كله تحت حكم الأسرة السامانية كما سيأتى تفصيل ذلك .

ولما مات المعتضد سنة ٢٨٩هـ ، تولى الأمر ابنه المكتفى بالله ، وتصفه المصادر بأنه من أفاضل الخلفاء ، وأراد إعادة مجد الخلافة الاسلامية ، ولكنه فشل ، ففي عهده ازدادت فتنة القرامطة اشتعال ، ولقى الاسلام بلاءا جسيما ، كما استقر الأمر للدولة السامانية فى بلاد خراسان وفارس ، فاقتطع جزء كبير من دولة الخلافة وخاصة حول بغداد والبصرة وفى سوريا واليمن ، وعقب موت المعتضد تولى الأمر ابنه المقتدر ، وكان فتى لم يتجاوز الثالثة عشرة ، وقد أثار توليه الخلافة بعض الاضطرابات بل أهل الرأى والفقهاء ، وما لبث أن عزل ، ليتولى عبد الله بن المعتز الذى لم يلبث سوى يوما ، استطاع أنصهار المقتدر اعادته الى الخلافة ، وفى عهده ٢٩٥ - ٢٢٠ هـ - ٩٠٨ - ٩٣٢ م ، تدخلت النساء فى أمور الدولة وازداد نفوذهن ، والأهم من ذلك أن القرامطة قوى شأنهم كثيرا عن ذى قبل ، وضعف شأن الخلافة ضعفا لم تشهده الخلافة الاسلامية من قبل ، وكان مواليه من الأتراك يديرون أمر الدولة ، ويصف المؤرخون فترة حكمه بأنها أسوء فترة مرت بالدولة العباسية منذ تأسيسها ، ومن سوء حظ الأمة أن عهده دام خمسة وعشرين عاما تقريبا استشرى الفساد خلالها ، وانتشرت الفتن داخل وخارج البلاد حتى مقتله سنة ٣٢٠هـ - ٩٣٢م حيث طغت

على الدولة العباسية موجة من الاضطرابات والفتن والجراح التى لم تلتئم الا بعد فترة طويلة ، أما الفترة التالية حتى سنة ٣٢٢هـ - ٩٣٤م فقد شهدت هى الأخرى المزيد من الفتن فى عهد القاهر بالله حيث ثار عليه الجنود ، وقام كبار رجال دولته بعزله وجبسه حتى مات سنة ٣٣٩هـ^(٦) .

- شئون الخلافة :

سبقت الإشارة أن الخليفة العباسى فى العصر الأول كان رأس الدولة ومصدر السلطة ، ومرجعاً لكل شئون الدولة ، وقد أحيطت شخصيته بالرهبة ، فضلاً عن العظمة ، مما دفع الخلفاء الى عدم امامة الناس فى الصلاة ، أو خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون ، وتلقب الخليفة العباسى بلقب أمام ، مما حمل فى مضمونه تأكيد المعنى الدينى فى الخلافة وأنهم الأئمة .

هناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة وهى مركز الوزير حيث اتخذ العباسيون منصب الوزير من نظام الحكم الفارسى ، فكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى فى جميع شئون الدولة باسمه ، وكان له الحق فى تنصيب العمال وصرفهم ، والاشراف على كافة شئون الدولة ، الى جانب نصيح الخليفة ومساعدته ، غير أن هذه الوظائف جعلت المخاطر محفوفة بمركز الوزير ، وقد سبقت الإشارة أن أبا سلمة الخلال لقى حتفه على يد السفاح ، وكذلك يحيى البرمكى وأسرته على يد هارون الرشيد .

(٦) القلقشندى ، أهر العباس أحمد بن على المتوفى سنة ٨٢١هـ ، صبح الأعشى فى صياغة

الانشا ، الجزء الثالث ، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

وعلى الرغم من الهيبة التي كان الوزراء يظهرون بها في أعين الناس ،
الا أن ضعف الوزراء لدى الخلفاء كان أمرا طبيعيا ، فضل عن أن المنصب
نفسه قد تطور بالتالي في فترة الانحلال الأولى حيث كان اطمئنان الخلفاء
الى العنصر التركي في مناصب الاستيزار والمناصب العامة الأخرى ، وكان
من نتائج ذلك تسلط هذا العنصر على مرافق الدولة واهمال أصول الدعوة
العباسية من سياسة ، وإدارية ، وثقافية ، ودينية ، وحين انقسم الأتراك
فضعف أمرهم أراد خلفاء الدولة العباسية في فترة الانحلال استيزار عناصر
جديدة من رجال العلم أمثال بنى خاقان ، وبنى الفرات ، وبنى وهب ،
وبنى قبيله ، وبنى مخلد ، غير أن المنافسات بينهم لتولى المراكز القيادية
الحقت فسادا بالدولة لا يقل عن الفساد الذي ألحقه الأتراك .

وتذكر المصادر ما ردهه الخليفة الراضى بشأن سوء أحوال الخلافة قائلا
: « وكأني بالناس تقول : رضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى حتى
يتحكم فى المال ، ويتفرد بالتدبير ، ولا يدرون أن هذا الأمر قد فسد قبلى ،
وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ... » .

وقد استخلص زعيم القادة الأتراك وظيفة إمامة الأمراء ، وصار بموجبها
أكبر رئيس فى الدولة الإسلامية تاركا المظاهر الشكلية للخليفة ، وقد اتفق
ابن رائق أمر الجيش مع القادة الكبار أن يتولى بنفسه - فى سنة ٣٠٤هـ -
إدارة الدولة ورئاسة الجيش معا ، وصار منصب الخليفة شرفيا فقط حيث
يتسلم راتبه الشهري ، ومع ذلك فقد بقيت بعض المزايا الخاصة بالخليفة
رمزية على الأقل ، وحرص أمير الأمراء التركى أن يحفظ للخليفة هذه
المظاهر الشكلية بما لا يجرح شعور العامة ، فالمراسيم والقوانين تصدر باسم

الخلافة ، وهو مرجعهم الدينى الذى يلجأون اليه فى الشدائد « ويتوسلون به الى الله » .

وكان لتدهور أوضاع الخلافة أن قوى أيضا منصب الوزارة ومع ذلك كان الخلافة يقصى الوزير عن منصبه أو يقتله اذا ارتاب فى تصرفاته ، وكان هذا المعنى هو السائد فى الفترة الأولى للدولة العباسية ، أما فى فترة انحلال الدولة فقد تبوأ منصب الوزير درجة عالية من الأهمية ، وربما نافس الوزير صاحب السلطة العسكرية نفسه ، أى أمير الأمراء ، بل لقد أصبحت الوزارة

فى مرحلة لاحقة وراثية فى بعض القبائل ، مثل آل الفرات ، وبنى وهب ، وبنى متلة كما سبقت الإشارة .

- بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية :

أما نتائج هذا الانحلال فقد عكست تأثيراتها بشدة ، على انقسام الدولة العباسية الى دويلات ، ومن ناحية أخرى فقد قوى أمر أصحاب المذاهب والتيارات المخالفة لمذهب الخلافة ، فكان طبيعيا أن تتجزأ الدولة الى دويلات ، أو بمعنى أبسط ، فقد نجحت الدعوات الانفصالية من الناحية الواقعية ، مع الإبقاء اسميا على الخلافة كرمز ، وكانت هذه الدويلات التى استقلت فى آسيا استقلالا حقيقيا عن دولة الخلافة على النحو الآتى :

١ - الدولة الصفارية : (٢٤٧ - ٢٨٩ هـ) :

تعارض المصادر ^(٧) في فترة حكم هذه الدولة التي تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار الذي أغار على الدولة الطاهرية في خراسان والتي كان قد أسسها طاهر بن الحسين في عهد المأمون سنة ٢٠٥ هـ ، ففي حين تذكر إحدى الدراسات أن هذه الدولة قد امتدت من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٨٩ هـ ، فان مصادر أخرى تذكر أنها شملت الفترة من ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ ، والواقع أن الخوارج حينما ثبتوا أقدامهم في سجستان منذ زمن أبعد من ذلك ، ومن الأرجح أنهم منذ أوائل القرن الثالث الهجري قد أغاروا على السكان في قسوة ، ولم تتمكن الدولة العباسية من اخضاعهم ، لدرجة أنهم استولوا على العاصمة نفسها لسجستان .

شهدت الفترة ٢٤٧ - ٢٥٣ هـ أحداث غارات متعددة وقتال تجاه الخوارج انتهت باستيلاء يعقوب بن الليث على هراة ، وبوشنج ، ثم قاتل أمراء الترك ، والدياليم المتاخمة لسجستان حيث أذعن له هؤلاء الأمراء ومعهم أمراء الملتان ، وذابلستان ، والسند ، ومكران ، وفي سنة ٢٥٦ هـ استولى على كرمان ، بعد أن ضم إقليم فارس اليه ، وفي سنة ٢٥٩ هـ استولى على نيسابور قاعدة الطاهرية ^(٨) ، وحارب الحسن بن علي مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهزمه ، وكتب يعقوب الى الخليفة العباس أن

(٧) قارن : المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الرابع ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ ومن المراجع الحديثة ، دكتور محمد أسعد طلس ص ٢٨ ، دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ص

(٨) كما سيأتي تفصيل دولة الطاهرية في موضع لاحق من الدراسة .

يوليه شرطة بغداد فأجابه أخ الخليفة الى ما طلب ، غير أن يعقوب أراد أن يهاجم بغداد نفسها ، ففشل ، وأخذ يحارب بعض ولاه الخليفة واستولى على الأهواز .

توفى يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥ هـ ، وخلفه أخوه عمر بن الليث ، حيث استقرت له بلاد المشرق وطمع فى بلاد ما وراء النهر ، وطلب من الخليفة المعتضد أن يوليه اياها ، فكانت تلك الولاية سببا فى القضاء عليه ، حيث ولاه الخليفة بالفعل هذه البلاد ، ويذكر الطبرى أن كتاب الخليفة يعزل اسماعيل بن أحمد السامانى عن ما وراء النهر قد قرىء فى بغداد وأن عمرا قد تولى مكانه ، فلما جاء رسول الخليفة الى عمرو يخبره بذلك قال عمرو : ما هذا ؟ فقال الرسول : هذا الذى سألت ، فقال عمرو ، وما أصنع به ؟ فان اسماعيل بن أحمد لا يسلم الى ذلك الا بمائة ألف سيف ، فقال الرسول : أنت سألته ، فشمّر الآن لتتولى العمل فى ناحيته ، وتذكر المصادر أن السامانيين^(٩) قد حاربوا عمرا فى ربيع سنة ٢٨٧ هـ وهزموه شر هزيمة ، وحملوه أسيرا الى بغداد ، وتولى الحكم بعده حفيده طاهر بن محمد بن عمرو لكنه قبض عليه هو الآخر وأرسل ، مع أخيه الى بغداد ، وكان هذا ايدانا بانتهاء هذه الدولة التى ظلت دولة قوية قرابة النصف قرن ، وبالرغم من أنها كانت حركة انفصالية فى ظاهرها ، الا أن أمراءها لم يقطعوا كل الصلات مع الخليفة ، وأن كانوا قد استمتعوا بالاستقلال وذكرت أسماؤهم مقرونة باسم الخليفة على المنابر ، وكانوا شديدي الحرص على بيت المال وضبط موارده ، وكان

(٩) سوف يأتى تفصيل الدولة السامانية فى موضع لاحق من الدراسة .

عمرو عادلا فى حكمه مساويا بين رعيته ، على جانب من الدهاء وحسن
الادارة .

٢ - الدولة الطاهرية : (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) (٨٢٠ - ٨٧٢ م) :

أسس هذه الدولة الأمير طاهر بن الحسين بن مصعب الخراسانى ، وهو
أحد قواد المأمون ، وادى دورا هاما فى الفتنة بين الأخوين ، الأمين
والمأمون ، ويرجع اليه الفضل فى فوز المأمون على أخيه ، فكافة المأمون
بتوليته الجزيرة وجانبى بغداد ، ثم ولاء أمر خراسان ، وما اليها الى أقصى
الشرق ، ومن الأرجح أن الثقة التى وثقها المأمون بطاهر جعلته يطمع فى
الانفصال عن الدولة العباسية ، وبالفعل أعلن عصيانه على الخليفة سنة
٢٠٧ هـ مما جعل الأمور تسوء بينهما ، ولكن الخليفة ادرك قوة سلطان
طاهر فى اقليمه ، فأحجم عن الاضرار به ^(١٠) ، ويظهر أن المأمون قد سلط
عليه فيما بعد من دس السم ، فهلك ، ويتابع ابن طباطبا تطور العلاقات
بين الخليفة المأمون وطاهر الخراسانى قائلا ^(١١) : « كان المأمون ، لما ولى
طاهر بن الحسين خراسان ، استشار فيه أحمد بن أبى خالد الأحوال وزيره ،
فضرب أحمد رأى فى توليته طاهر ، فقال المأمون لأحمد : أنى أخاف أن
يغدر ويخلع ، ويفارق الطاعة ، فقال أحمد : الدرك فى ذلك على ، فولاء
المأمون ، فلما كان بعد مدة ، أنكر المأمون عليه أمورا ، وكتب اليه كتابا
يتهدده ، فكتب طاهر جوابا أغلظ فيه للمأمون ، ثم قطع اسمه من الخطبة
ثلاث جمع ، فبلغ ذلك المأمون ، فقال لأحمد : أنت الذى أشار بتولية

(١٠) ابن الأثير ، الجزء السادس من ٢٥٥ .

(١١) ابن طباطبا ، الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الاسلامية من ١٩٨ - ٢٠٠ .

طاهر ، وضمنت ما يصدر عنه ، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته ، وال ضربت عنقك ، فقال أحمد : يا أمير المؤمنين طب نفسا ، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه ... » ، ويضيف صاحب الفخرى قائلا : « ثم أن أحمد أهدى لطاهر هدايا فيها كوامخ مسمومة - طعام فيه بهارات - وكان طاهر يحب الكامخ ، فأكل منها فمات من ساعته » .

وكان عبد الله بن طاهر هو أبرز أمراء آل طاهر ، وقد ولاه المأمون محاربة شيث بن ربيع ، ثم ولاه شرطة بغداد ، ثم بعث به الى مصر لتوطيد الأمن هناك ، وفي سنة ١٣ هـ تولى عبد الله بن طاهر خراسان وما اليها من بلاد المشرق ، فثبت أركان ودعائم حكم الأسرة الطاهرية فيها ، والتي توسعت حدودها حتى بلغت تخوم الهند ، ونقلت العاصمة من مرو الى نيسابور ، وظلوا في الحكم حتى استيلاء الصفاريين على بلادهم ، كما سبقت الإشارة ، غير أن الدولة الطاهرية رغم هذا التوسع وتوطيد أركانها ، فانها كانت تدين اسميا لدولة الخلافة ، أما من الناحية الفعلية فقد استقلت بالبلاد ، واعتبرت أولى الدول الفارسية المنفصلة عن الدولة العباسية ، وكان تعاقب الطاهريين على الحكم كالآتي : طاهر بن الحسين (٢٠٥ - ٢٠٧ هـ) طلحة بن طاهر (٢٠٧ - ٢١٣ هـ) ، عبد الله بن طاهر (٢١٣ - ٢٣٠ هـ) وطاهر بن عبد الله (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ) ، ومحمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩ هـ) .

٣- الدولة السامانية (٢١٦ - ٣٨٩ هـ) (٨٧٤ - ٩٩٩ م)

والدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ هـ) (٨٦٢ - ١١٨٦ م) :

تنسب الدولة السامانية الى أسرة فارسية ، وكلمة « سامان » هي لقب ديني لجد هذه الأسرة الذي كان كاهنا ثم اسلم في العصر الأموي على يد أسد بن عبد الله القسري والى خراسان ، واتصل به ، وسمى ابنه الأكبر باسمه ، وكان لأسد بن سامان أربعة بنين وهم : نوح ، وأحمد ، ويحيى ، والياس ، وقد ارتفعت مكانتهم في دولة المأمون ، فولاهم والى خراسان ، غسان بن عبادة تلبية لأمر الخليفة ، على بعض الأقاليم ، فكان نوح أميراً على سمرقند ، وأحمد أميراً على الشاش ، وأشروسنة ، والياس على هراة ، وعاش أحمد أكثر من أخوته ، فصار اليه حكم سمرقند ، وهراة ، والشاش ، وأشروسنة اضافة الى بلاد فرغانة . وأخذ سلطانه يتسع حتى امتد الى بلاد الصفد ، وفي سنة ٢٦١ هـ خلعه ابنه نصر ، وكان أول حاكم استقل عن الدولة ، ومقره سمرقند ، واضطر الخليفة المعتمد أن يبعث اليه تقليداً بولايته على كافة بلاد ماوراء النهر .

وتضطرب المصادر حول ذكر اسماء حكام هذه الدولة الذين توارثوا السلطة ، غير أن اسماعيل بن أحمد بن أسد هو الذي اشتهر وخلف أباه على سمرقند ثم بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ وكانت هذه الجهود المثمرة أساساً في تكوين هذه الدولة . وفي سنة ٧٢١ هـ اضطربت بخارى ، وطلب أهلها من نصر أن ينقذهم ، فبعث اليهم أخاه اسماعيل فوطد الأمن فيها ، وحكمها بالنيابة عن أخيه ، وفي سنة ٢٧٢ هـ عهد الخليفة المعتمد بولاية كافة بلاد بخارى والمشرق الى نصر ، الذي تمكن بمساعدة

اسماعيل من القضاء على الثورات والفتن المحلية ، غير أن الفتنة نفسها امتدت الى الأخوين نصر ، واسماعيل حيث تغلب جيش هذا الأخير على جيش نصر ، وتم أسره ، لكن الأخوين تصافيا ، وصار نصر حاكما على سمرقند الى أن مات سنة ٢٧٩ هـ .

برز نجم اسماعيل فى الفترة التالية ، فوطد أركان دولته ، والتي اتسعت حتى بلغت أقصى حدود المشرق ، وقضى على عمرو بن الليث الصفار أمير خراسان ، كما قضى على محمد بن يزيد العلوى صاحب طبرستان ، وبموت اسماعيل سنة ٢٩٥ هـ فى مدينة بخارى ، فقد تعاقب الأمراء على حكم هذه الدولة حتى سنة ٣٨٩ هـ ، وهو ما استدعى وقفة لتفسير أحداث هذه الفترة ، لما عكسته من تأثير على أحوال الأقاليم الاسلامية فى آسيا .

فقد تولى الحكم بعد اسماعيل ابنه أحمد ، وأمره الخليفة على ولاية ابيه ، واستطاع أحمد القضاء على الدولة الصفارية ، كما سبقت الإشارة الى ذلك ، ثم ضم ^(١٢) الأقاليم التى كانت لها ، غير أنه توفى فى سنة ٣٠١ هـ وتوسعت الدولة السامانية أكثر فى عهد أبو الحسن بن نصر فضمت قزوین وقم ، وهمذان ، ونهاوند ، والدينور ، وفى عهد نوح بن نصر بدأ النزاع بينه وبين بنى بويه ، واستطاع نوح أن يسترد الرى ، وبلاد الجبل من بويه ، لكن الفتن ما لبثت أن اشتعلت مع البويهيين وأدت الى حروب عديدة بينهما انتهت بالصلح ، ثم تعرضت الدولة السامانية لأزمة أخرى بعد عام ٣٦٦ هـ حيث ثار القادة على أميرهم ، فاستنجد بأل سيكتكين الغزنوية - أصحاب غزنة - وانتصرت جيوش السامانيين بالقرب

(١٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء العاشر ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

من هراة ، واستعاد الأمير نوح الثانى بن منصور اقليم نيسابور وولى عليه وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة ، ولما توفى نوح بن منصور سنة ٣٨٧هـ قام بعده ابنه منصور ابن نوح ، وفى عهده وقع الخلاف بينه وبين محمود بن سبكتكين الغزنوى الذى ثار عليه وقضى ابن سبكتكين الغزنوى على الدولة السامانية لكى تقوم الدولة الغزنوية ، والواقع أن هذه الفترة قد شهدت أيضا تعاظم نفوذ الحرس التركى الذين تدخلوا فى السياسة وأسقطوا هيبة هذه الدولة ، وكان ظهور آل بويه فى الغرب ، والأتراك القرخانيين فى الشرق بقبائلهم الطورانية النازحة من آسيا الوسطى ، ايدانا بسيطرتهم على العالم الاسلامى وهو ما يستدعى التعرض للغزنويين وبنى بويه التى ظهر فيها أقطاب الأدب والعلم المسلمين أمثال الخوارزمى ، والفارابى ، والمتنبى ، وابن سينا ، والطبيب الفيلسوف الرازى وغيرهم .

ان تقويم أوضاع الدولة السامانية ، وما عكسته من بصمات واضحة فى تاريخ العلاقات الاسلامية السياسية يتضح حينما تمكن ألب تكين التركى ، أحد قواد السامانيين أن يفصل عن جسد الدولة السامانية سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢م ويؤسس دولة مستقلة عن غزنة ، وخلفه سبكتكين سنة ٣٦٦ هـ - ٩٧٧م فأعلن ولاءه للسامانيين ، وفى سنة ٣٨٤ هـ - ٩٩٤م استطاع ابنه محمود اخمد فتن السامانيين ، وسمى بأمير خراسان .

مد سبكتكين سلطانه فى الشرق ، واتخذ من مدينة بيشاور^(١٣) ، ثم

(١٣) عاصمة الاقليم الشمالى الغربى من باكستان وتقع على الحدود الأفغانية وتباعد عن كابل

عاصمة أفغانستان بحوالى ٩٠ كيلو مترا ، وكانت بيشاور تابعة لأفغانستان حتى القرن =

استولى على خراسان ، فولاه عليها نوح بن سامان سنة ٣٨٤هـ ثم استولى على جزء كبير من الهند وعلى كابول فى أفغانستان ، وقد استقل سبكتكين فعليا عن السامانيين ، غير أنه من الناحية المظهرية كما يعترف لهم بالسيادة ، ولما تولى ابنه اسماعيل زمام الأمور ، فقد اتسم عهده بالصراع على السلطة مع أخوته ، ولم يلبث أخوه محمود أن سيطر على الحكم فاستولى على غزنة ، وخراسان سنة ٣٨٧هـ - ٩٩٧م . وأرسل اليه الخليفة القادر لينعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين النقود مقترنا باسمه بالقبالة الجديدة ، وانتهاز محمود فرصة اشتعال الاضطرابات والفتن فى الدولة السامانية ، فخلص خراسان من حكمهم وجعل نيسابور مقرا له ، وقضى حياته فى الجهاد فى سبيل الاسلام ، ونشره فى بلاد الهند ، فقام بعدة غزوات من سنة ٣٩١هـ - ١٠٠٠م ، وارتفعت راية الاسلام فى مناطق شاسعة من قلب آسيا وكتب الى الخليفة فى بغداد عن أخبار فتوحاته الاسلامية وتمكنه من بسط نفوذ الدولة الاسلامية على جزء كبير من البنجاب وبلاد الأفغان ، وبعد وفاته بدأ الضعف يتسلل الى الدولة حتى كانت نهايتها سنة ٥٧٨هـ على أيدي السلاجقة بزعامة طغرل بك . وفى تقويم الدولة الغزنوية يمكن القول أنها كانت دولة سنية ، متشددة ، وربما يعزى نجاحها فى نشر الاسلام فى قلب آسيا والهند وأفغانستان الى طبيعة حكم أمرائها الذين كان بأيديهم جميع الأمور ، فضلا عن فعالية النظام الادارى وأساليب الحكم فى الاقاليم الخاضعة لها ، وما يجدر ذكره ما

= التاسع عشر كما سأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من الدراسة ، راجع القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى ، المتوفى سنة ٦٨٥هـ ، أخبار الدول وأثار الأول ، مكتبة المثنى ، القاهرة .

قامت به من حملات ناجحة على طائفة الاسماعيلية ، وهو ما جعل الخليفة العباسي راضيا عنها .

وفيما يتعلق بالحركة الفكرية والثقافية ، فقد شهدت هذه الفترة نشأة الأدب الفارسي ، ففيه نظم الفردوسي (الشاهنامة) ، وفيه نقل الوزير العالم البلعمي كتاب تاريخ الطبري الى اللغة الفارسية ، ويصف كارل بروكلمان هذه الحركة الفكرية والثقافية قائلا ^(١٤) : « ... وفي هذا الوقت ، تفتح الوعي القومي عند الفرس من جديد ، بعد أن استعبدتهم سياسة العرب السياسية والدينية زمنا طويلا ، ومع أن الفرس تفوقوا على العرب في ادارة الدولة وفي النواحي الثقافية ، منذ ابتداء الدولة العباسية ، فقد كانت خدماتهم ذات فائدة للعرب فيما بعد ، اذا لم يعد من الممكن اقصاء لغة التنزيل عن الشؤون العامة وعن الأدب ، غير أن الفرس تذكروا شرف لسانهم القومي وعظمته ... وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس فن انشاء الشعر . ، ... فقد لمع رودكي أول شاعر غنائي فارسي ... ، وعلى الرغم من أن شعره لم يخل من الكلمات العربية ، وأن الأوزان التي ابتكرها كانت مشابهة لشعراء الفرس ومفرغة من القوالب العربية ، - على الرغم من ذلك - فقد دعا أودكي في منظومته الى فلسفة في الحياة ، بعيدة عن الهم ، والغم ، فأسس بذلك ملحمة تعليمية هي من أخصب فروع الأدب الفارسي ، ويضيف بروكلمان قائلا : « ... وبلغت الجغرافية الغربية ذروتها حيث ألف الوزير الجيهاني كتابا في وصف البلدان

(١٤) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ، منير البعلبكي ، دار العلم

للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ .

المجاورة ، ووضع ريد البلخي مصورا جعراويا وجعله ديلا لأطلس
اسلامى .

وفى تقويم الدولتين السامانية والغزنوية معا فقد سبقت الاشارة الى الدور
الذى قام به سبكتكين وابنه محمود فى وقف سيل الأتراك الفرخانيين
عندما أرادوا التسرب الى الدولة السامانية ، واستطاع الغزناويون بعد
ذلك توطيد أقدامهم فى جيحون حتى خراسان بعد مؤازرة الأتراك
للغزناويين وغزوهم الهند والتوغل داخل البنجاب ولاهور وملتان
والعراق وخراسان وطخارستان وبلخ وما وراء النهر وسجستان ،
واتخاذ « غزنة » مقرا لهم ، وقد توسع ابن الأثير^(١٥) فى سرد أحداث
الفترة اللاحقة على سنة ٣٦٦هـ ، ثم الاستيلاء على قلب آسيا سنة
٤٢٢ هـ .

غير أن الصراع على السلطة بين أبناء سبكتكين على السلطة ، قد
أضاع هيبة الدولة الغزنوية ، ثم انقسمت الى امارات ، وفى مرحلة لاحقة
تمكن الأجانب منها مثل التركستان وسلاجقة فارس - كما
سيأتى تفصيل ذلك - واستطاع الغوريون أصحاب أفغانستان
توجيه ضربة قاصمة الى الغزنويين ففقدوا عليها سنة ٥٨٢ هـ -
١١٨٦ م .

والواقع أن هذه الدولة لا تختلف عن الدولة السامانية ، أو الدولة الصفارية
من حيث أساليب الحكم التى لا تعتمد الا على القوة ، ثم يدب الضعف

(١٥) راجع : ابن الأثير ، المزمع الثامن من ص ٢٢٥ - ٢٢٨ . التاسع من ص ٤٥

فى جسد الدولة حتى تنهار حدث هذا للدول الثلاث ، الصفارية ،
والسامانية ، والغزنوية غير أن ظهور وبرور هذه الأخيرة كان بمثابة أول
نصر للعنصر التركى على العنصر الايرانى فى ميدان زعامة العالم الاسلامى
فى حين انتقلت أهمية العنصر العربى تماما من مركز الدائرة الى محيطها ،
وتذكر المصادر علو شأن العلماء . والحكماء ، والفلاسفة ، والشعراء
وأبرزهم فى هذه الفترة - المؤرخ العربى « اعتبى » والمؤرخ الفيلسوف
العالم أبو الريحان محمد البيرونى الذى قام بعدة رحلات علمية الى
أقاليم الهند الشاسعة ليحيط بهذه الثقافة الفنية ويسجلها فى مؤلفيه
الفيمين « تحقيق ما للهند من مقولة » ، و « الآثار الباقية عن القرون
الخالية »

٤ - دولة آل بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) (٩٤٥ - ١٠٥٥ م) :

ينتسب البويهيون الى أبى شجاع بويه الذى ينتهى سبه الى يزدجرد من
آل ساسان ملوك الفرس ، وقد سكنت هذه الأسرة ^(١٦) فى الديلم فى
الجنوب الغربى من بحر قزوين ، وتسمى هذه البلاد أيضا بلاد جيلان ،
وسكانها قسمان الجيل ، وهم سكان السهول ويسمون أيضا الجيلان ،
والديلم ، وهم سكان الجبال ، وكانت أهم أقاليمها روزبار ، والجيلان
والديلمة ليسوا فرسا ، وإنما هم عنصر خاص ، وقد فتحت بلادهم فى عهد

(١٦) ونسبهم بعض المؤرخين الى بهمد جور أو سابور الملك الساسانى ، راجع : ابن الجوزى ،
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص ٢٧٠ . وراجع أيضا : ابن خلكان شمس الدين ، أبو العباس
أحمد بن حطاط الشافعى ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق
محمد محى الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ابن الأثير ، الجزء الثامن ص

عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولما ظهر الحسن بن على لأطروش
فى بلاد طبرستان دعا الديالملة الى الاسلام ، فاعتنقه معظمهم ، وامتد
سلطان الزيدية - كما ستأتى الاشارة - من طبرستان الى بلاد الديلم .

كان لأبى شجاع ثلاثة أولاد هم : أبو الحسن على ، وأبو على
الحسن ، وأبو الحسين أحمد ، وقد عمل الثلاثة فى خدمة جيش مرداويج
بن زيار الذى اعتمد عليهم لكفائتهم العسكرية ، فولى أبا الحسن على
مدينة « كرج » - بين أصفهان وهمذان - سنة ٣١٩هـ - ٩٣٠م ،
وهاجم أصفهان واحتلها سنة ٢١هـ - ٩٢٣م ، ثم استولى على أرجان
ووجه أخويه لاحتلال الاقاليم المجاورة ، فتم الاستيلاء على كازرون ،
وسجستان ، وشيراز ، وبذلك سيطر بنو بويه على بلاد فارس ، وتذكر
المصادر أن أبا الحسن أرسل الى الخليفة الراضى^(١٧) بالله بالطاعة والمطالبة
أن يعهد اليه بما فى يده من البلاد ، ويعث اليه بألف ألف - مليون -
درهم ، فأجيب الى طلبه ، فلما بلغ ذلك مرداويج بن زيار ، غضب وسار
الى أصفهان ثم الى اصطخر للاستيلاء عليها وتم له النصر فى الأهواز
فصالحه ابن بويه سنة ٣٢٢هـ ، ثم فكر مرداويج فى السير الى بغداد ،
والقضاء على الدولة العباسية ، وانشاء مملكة فارسية ، ساسانية مركزها

(١٧) راجع : العيني ، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى ، المتوفى سنة ٨٥٥هـ ، عقد
الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، أو تاريخ العيني « مخطوط » ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ص
٢٨١ - ٢٨٤

- البهيمى ، الامام أحمد بن محمد المعروف بابن حجر الهيتمى ، المتوفى سنة ٩٧٤ ، كتاب
أخوان الصفا بنيد أخبار الخلفاء ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص ٩١ - ٩٣

« طيسفون » ، وهى عاصمة الدولة الكسروية قبل الفتح الاسلامى . ويذكر ابن الجوزى ^(١٨) قول مرداويج : « أنا أرد دولة العجم ، وأبطل ملك العرب » ، غير أن تخطيطه فشل وعاجلته المنية سنة ٣٢٣هـ - ٩٣٥م ، فاستولى بنو بويه على ما كان تحت يده ^(١٩) .

ضعفت الدولة العباسية وأنهكتها الاضطرابات والفتن فطمع على أبو الحسن فى احتلال بغداد ، فسير جيشا الى الأهواز فتملكها ثم سيطر على بغداد سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م فخلع عليه الخليفة المستكفى بالله ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه أبا الحسن عليا عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقاب الأخوة على النقود ، وهكذا سقط السلطان العباسى سقوطا رسميا على حد قول طلس ^(٢٠) ، وأصبح الخليفة رئيسا دينيا فقط ، ولم يعد له وزن ولا هبة . وكان بنو بويه يدينون بالمذهب الشيعى وهو ما أوجد خصومة مستمرة مع الخليفة العباسى الذى أصبح فى خطر منهم ، لاسيما وأن بنى بويه كانوا يعتبرون العباسيين مغتصبين للسلطة من أصحابها الشرعيين ، أى العلويين ، فلما أصبح منصب الخليفة رمزيا فقط ، استمر بنو بويه يسيطرون على الحكم فى بغداد ، وكان عضد الدولة أعظم شخصية فى بنى بويه ، فقد ورث ملك عمه معز الدولة وملك أبيه الحسن الذى توفى سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦م . وملك عمه عماد الدولة الذى توفى سنة ٣٣٨هـ - ٩٥٠م ،

(١٨) ابن الجوزى ، المتنظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السادس ص ٢٦٨ .

(١٩) الصولى : أبو بكر محمد بن يحيى ، المتوفى سنة ٣٣٥هـ ، أخبار الراضى بالله والنفى بالله ،

دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٠ .

(٢٠) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ص ٩٧ - ٩٩ .

ووجد المملكة البويهية تحت سلطانه ، وبلغت فى عهده أوج عظمتها حيث
سار الى بغداد سنة ٣٦٧هـ وخلع ابن عمه بختيار ، ثم سار نحو الموصل
فطرد أبا تغلب الحمدانى منها ، واستولى على ملك الحمدانيين ، وبث
جنوده فى طلب أبى تغلب فهرب هذا الأخير الى بلاد الروم ، وسيطر عضد
الدولة على ديار ربيعة وديار بكر ، وديار مضر ، وهكذا امتدت سيادته
لتشمل ايران ، والعراق ، والجبال ، والرى ، والحجاز ، وما اليها ، ومات
عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ ببغداد .

تولى العديد من بنى بويه السلطة بعد عضد الدولة بدءا بصمصام الدولة
ومرورا بشرف الدولة ، وبهاء الدولة ، وفى عهده عاود الأترك والديلم
التصادم مع بعضهم البعض ، كما خلع الخليفة العباسى الطائع وولى القادر
الخلافة بدلا منه ، ويشيد بن الأثير وابن خلكان بمآثر عضد الدولة الفكرية
، فلما مات خلفه ابنه سلطان الدولة الذى انتزع منه شرف الدولة الحكم ثم
خلفه جلال الدولة حيث شهد بنو بويه فى عهده تردى أوضاع الحكم الى
درجة كبيرة حيث سيطر الأكراد على البلاد ثم خلفه ابن أخيه أبو كاليجار
المرزبان ، فأبى نصر فيروز الملقب بالملك الرحيم والذى أقام ملكا الى سنة
٤٤٧هـ حين قدم السلطان طغرك بك السلجوقى مستوليا على بغداد ،
وهكذا زالت الدولة البويهية التى حكمت قرابة قرن وسيطرت على العراق ،
وفارس ، واتخذت شيراز عاصمة لها ، وبغداد مقرا لأمرائها^(٢١) ، والتى
بلغت أوجها فى عهد عضد الدولة ، الذى سيطر على أرجاء واسعة فى آسيا
واعتنق سكانها الاسلام .

(٢١) راجع : الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن على ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، تاريخ بغداد ،

مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ١٩٣١ ص ١٠٤ - ١٠٦ .

٥- الحمدانيون (٢٩٣ - ٤٠٢ هـ) :

تداخلت دولتا بني يويه والحمدانيين في فترتي حكميهما ورغم اختلاف واختلاط أماكن حكمهما في نفس الوقت ، فقد شهد القرن الهجري الرابع أزهر عصور الاسلام في العلم والأدب والحياة الفكرية عموما في ظل الدولتين ، فقد ذكر يعقوب الحموي أن أبا القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلی ، الفقيه الشافعی ، أسس دارا للعلم في بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ، كما تحدث ^(٢٢) ابن النديم عن انشاء دارى كتب أحدهما بالقصر ، والأخرى برامهرمز وكان في الثانية أستاذ يدرس الكلام على مذهب المعتزلة ، وفي حلب جعل سيف الدولة من جامعها ، ومن قصره دارى علم ، يجتمع فيهما أئمة الأدب والدين في عصره ، وذكر أبو الفداء ^(٢٣) أن سيف الدولة أجرى على أبى نصر الفارابي الفيلسوف الذائع الصيت ، أربعة دراهم كل يوم ، وروى ابن خلكان ^(٢٤) أن ابن خالويه النحوى كان خشنا ، فوقع بينه وبين المتنبي كلام في مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على ابن الطيب ، وضرب وجهه بمفتاح كان معه ، فخرج من المجلس ودمه يسيل على وجهه ، وكان أبو الطيب المتنبي من أشهر الأدباء والشعراء في بلاط الحمدانيين والذي ضم الكثيرين ممن ذاع صيتهم أمثال أبو الفرج الاصفهاني ، وابن نباته

(٢٢) ابن النديم ، محمد بن اسحق أبو الفرج ، المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢٣) أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد عمر ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٥٨ .

(٢٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ص ٦٤ = ٦٦ .

الفارقي ، ومن الأئمة أبو الفتح بن جنى الموصلی ، والشاعر أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبری الانطاكي ، والأمير الفارس أبي فراس الحمداني .

والحمدانيون أنفسهم كانت لهم امارتان ، امارة الموصل و امارة حلب ، ويتنسب الحمدانيون الى حمدان بن حمدون الذي يرجع نسبه الى قبيلة تغلب التي هاجرت من نجد في الجزيرة العربية الى الجزيرة الفراتية ، وبرز حمدان حينما ثار على الخلافة العباسية ، واستولى على قلعة ماردين سنة ٢٨٣ هـ - ٨٩٥ م ، غير أن الخليفة المعتضد قضى على تمرده وزجه في السجن^(٢٥) ، وتذكر المصادر^(٢٦) بروز نجم هذه الأسرة في عهد الخليفة المكتفي بالله الذي عين عبد الله بن حمدان أميراً على الموصل ، وما يليها سنة ٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م ، وقد تعرضت امارة الموصل للعديد من مؤامرات الأتراك وبنى بويه على السواء ، لكن الحمدانيين صمدوا وخاصة في عهد ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، واستمرت هذه الأمارة الحمدانية حتى قضى عليها بنو بويه سنة ٣٦٨ هـ^(٢٧) - ٩٧٩ م - كما سبقت الإشارة - وتزخر الفترة من سنة ٣٣٣ هـ الى سنة ٤٠٢ هـ بغزو الحمدانيين لبلاد الروم والتوغل فيها وهزيمة الروم في وقعات كثيرة وخاصة في عهد سيف الدولة ، وحين خلفه ابنه سعد الدولة فانه لم يقم

(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الجزء الخامس ص ١٤٧ .

(٢٦) الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولي ،

مرجع سابق ص ١٩١ .

(٢٧) أبو الفداء ، الجزء الثاني ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

بعمل يذكر ، أما أبو الفضائل سعيد الدولة ابن سعد الدولة فقد كان صغير السن ، فتولى الأمر مولاه لؤلؤ ، فطمع الخليفة العزيز الفاطمي بتملك حلب ، وجهز جيشا ، واستنجد لؤلؤ بملك الروم فأجده بجيش كبير ، لكن قائد الجيشين فضلا الصلح في حين رفضه الخليفة العزيز الفاطمي ، ووصلت الدولة الحمدانية الى درجة كبيرة من الضعف والتفكك حتى كانت نهايتها على أيدي الفاطميين سنة ٣٩٣هـ - ١٠٠٢م ، وأصبحت حلب جزءا من الدولة الفاطمية .

وفي تقويم هذه الدولة ، يمكن القول بقدر معقول من الشقة ، أنها كانت دولة عربية خالصة بعيدة عن العناصر الأعجمية وقضت وقتا طويلا تؤثر القتال في سبيل الاسلام على الرغم من أن أمراءها كانوا يتبعون المذهب الشيعي ومع ذلك فانهم لم يفرضوه على رعاياهم ، بل تركوا لهم حرية الدين والمذهب وهو ما يوضح ما سبقت الاشارة اليه من النهضة الفكرية الاسلامية الشاملة في عهدها .

٦ - من الدولة الزيدية ٢٠٣ - ٢٥٣هـ الى الدولة الزيدية ٢٥٠ - ٣٥٥هـ والدولة الساجية ٢٦٦ - ٣١٨هـ :

في تتبع مرحلة انحلال الدولة العباسية ونتائجه من حيث انقسامها الى دويلات ترتبط بها اسميا ، لابد من التعرض الى دولتين احدهما في اليمن والأخرى في الكوفة ، والانتان تشابهان في ظروف انفصالهما رغم ان الدولة الزيدية لن تستمر سوى ما يقرب من نصف قرن ، في حين استمرت

الدولة الزيدية أكثر من قرن من الزمان .

فقد كان أهل اليمن منذ نشأة دولة بنى العباس لا يقرون بها ، لأنهم يميلون الى آل على ، ويرون أن آل العباس قد ظلموا العلويين ، وفتكوا بهم ، وقد انعكست عليهم هذه الأحداث ، فلم يخضعوا خضوعا تاما لحكم العباسيين ، وكانوا يتحينون الفرصة المواتية لتأسيس الخليفة المأمون بقائد عربى قوى هو محمد بن ابراهيم الزيادى أحد أبناء زياد بن أبى سفيان ، وولاه اليمن سنة ٢٠٣هـ ونجح فى اخضاعها جميعا ، وتصادعت سلطته ونفوذه ولكنه استمر فى ولائه للعباسيين ، وطال حكمه لليمن ، وآل الحكم من بعده الى أبنائه ، وأحفاده حتى سنة ٢٥٣هـ ، وكانت هذه الدولة هى الأولى فى العباسية على اليمن منذ ذلك الحين فى فرض مذهبها ، وقامت بعد الدولة الزيدية دول علوية الهوى ، زيدية المذهب الى أيام الفتح العثمانى .

أما فيما يتعلق بالدولة الزيدية والتى استمرت فى الفترة من سنة ٢٥٠هـ الى ٣٥٥هـ ، فثأنها شأن ظروف قيام الدولة الزيدية حيث كان العلويون ينتهزون أى فرصة للتمرد على الدولة العباسية لحقهم هم فى الخلافة ، وفى أيام الفتنة بين الأخوين - المأمون والأمين - قاموا يطالبون بحقوقهم ، ويعلنون الثورة على العباسيين ، وكانت لهم حركات تمرد وعصيان أخرى ، وأهمها حركة أبى السرايا السرى بن منصور ، الذى ثار بالكوفة ، ومعه ابن طباطبا سنة ١٩٩هـ وهو محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن ، وامتد نفوذه حتى بلغ الحجاز ، ولولا

موت^(٢٨) ابن طباطبا ، ثم موت أبي السرايا نفسه سنة ٢٠١ هـ ، لكن لهذه الحركة العلوية شأن آخر على حد رأى طلس^(٢٩) ، غير أن الحركة العلوية شهدت ثورة محمد ابن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي في الكوفة خلال فترة حكم المعتصم ، وذاع صيت محمد بن القاسم في خراسان ، وهو يدعو (الرضا من آل محمد) واستقطب الكثيرين حوله ، ووقعت بينه وبين أمير خراسان عدة وقعات ، ثم أسر محمد وسبق الى المعتصم ، فحبسه في سامراء سنة ٣١٩ هـ ، غير أنه تمكن من الهرب ، ولم يعلم أحد عنه شيئا بعد ذلك ، وأثار غيابه فجأة اعتقاد الكثيرين بأنه حي ، لكنه غائب ، وأنه سيعود ليملا الأرض عدلا .

وفي أيام المتوكل ، الذي كان يعلن عداؤه لآل علي ، وشدة كراهيته لهم ، وهدم قبر الحسين وما حوله ، ثار يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد ابن علي بن الحسين ، فتمكن المتوكل منه ، وحبسه في بغداد ، غير أن يحيى تمكن هو الآخر من الفرار ، واستقطب الكثيرين حوله ، ولكنه لم يوفق في الوصول الى هدفه ، وقضى سهل بن هارون على حركته ، ومع ذلك فقد تمكن من الاستيلاء على الكوفة وبلغت دعوته بغداد ذاتها أيام خلافة المستعين ، حيث قوى سلطان يحيى كثيرا وانضم اليه الكثيرون ،

(٢٨) وهو يختلف عن طباطبا ، صفى الدين محمد بن علي ، المتوفى سنة ٦٦٠ هـ ومؤلف الكتاب الشهير الفخرى في الأداب السلطانية والدول الاسلامية والذي أشرنا اليه في العديد من الحواشي .

(٢٩) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، مرجع سابق ص ٢٧ ، حيث استعرض تفصيلا أيضا ظهور العديد من الدويلات الجديدة في المغرب العربي وتونس ومصر وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة .

فبعث المستعين بجيش قضى عليه ومثل بجثته ، فلما بلغت أخباره الحسن بن زيد بن محمد ابن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ، ثار بطبرستان واستولى على عاصمتها آمل ثم على سائر أقاليمها ، وعلى الديلم ، واستطاع الحسن بن زيد ان يؤسس دولة قوية دامت نحو قرن ، تولى فيها فى الفترة ٢٥٠ - ٥٧٢هـ ثم أعقبه محمد بن زيد المعروف بالقائم بالحق فى الفترة ٢٧٠ - ٢٧٨هـ وتمكن خلالها من ارسال دعائه لنشر دعوته الزيدية فى أقاليم متعددة من آسيا ، حتى تغلب السامانيون عليه ووطدوا أركان الدولة السامانية (كما سبقت الاشارة) .

وفى سنة ٣٠١هـ تمكن الحسن الأطروش بن على بن الحسين بن على ابن عمر بن زين العابدين أن يعيد سلطان الزيدية من جديد على بلاد طبرستان والديلم ، وظل الى سنة ٣٠٤هـ ، ثم خلفه الحسن بن القاسم ابن على ابن عبد الرحمن ، ومعه أولاد الأطروش فى الفترة من سنة ٣٠٤هـ الى ٣٠٥هـ حين انتهى أمر الدولة الزيدية .

وفى آسيا قامت فى أذربيجان سنة ٢٦٦هـ حركة تمرد أخرى بقيادة يوسف بن أبى الساج عامل أرمينية وأذربيجان فى عهد المقتدر حيث قوى مركز يوسف . فثار على بغداد وأعلن انفصاله عنها ، ولم تفلح جهود المقتدر فى القضاء على هذه الحركة ، وتمكن ابن أبى الساج من القضاء على جيش الخليفة ، فأرسل هذا الأخير جيشا آخر ، ومع ذلك تمكن ابن أبى الساج من فرض ارادته ، وتقوية نفوذه فى أرمينية ، وأذربيجان ، والرى ، واستمر حكم هذه الأسرة على بلاد أذربيجان الى سنة ٣١٨هـ .

٧- الدولة الهبارية (٢٤٠ - ٤١٦ هـ)

هى دولة عربية قامت فى المنصورة ببلاد السند ، فى الفترة من سنة ٢٤٠ الى سنة ٤١٦ هـ وتتسب الى صحابى جليل هو هبار بن أسود أحد قبيلة بنى أسد المتفرعة من قبيلة قريش الذائعة الصيت ، وقد أسلم هبار فى سنة ٨ للهجرة ، وقدم حفيد المنذر بن زبير الى بلاد السند فى معية الحكم بن عوانة الكلبي الوالى الأموى على بلاد السند فى سنة ١١٢ هـ (كما سبقت الاشارة) .

(٣٠)
ويعتبر عمر بن عبد العزيز الهبارى مؤسس الدولة الهبارية العربية وقد شغل مناصب مرموقة فى الدولة الأموية ثم فى الدولة العباسية وقد استفاد من الخلافات القبلية بين العرب المقيمين فى السند حتى تزعم الحجازية ، واستولى على حكم المنصورة بالقوة بعد نجاحه فى قمع الاضطرابات القبلية (أحداث مقتل عمران البرمكى سنة ٢٢٦ هـ ، أحداث قتل هارون المروزي سنة ٢٤٠ هـ) ، وقد كان تابعا اسميا للدولة العباسية واستمرت معها العلاقات الطيبة فى المجالات السياسية والثقافية والتجارية حتى أن الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) قد وافق على ولاية عمر بن عبد العزيز الهبارى كأمر واقع فى بلاد السند لقوة نفوذه هناك ، وبالمثل حينما تم تعيين أخيه حاكما عاما على الولايات الشرقية سنة ٢٦١ هـ .

وتذكر المصادر التاريخية الشيء الكثير عن ولاية عمر الهبارى لبلاد السند سوى دخول أحد الهند ملوك الاسلام واهدائه جواهر نادرة له حيث قام بدوره باهدائها للخليفة العباسى ، كذلك فقد وحد عمر الهبارى بلاد

(٣٠) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ٣٢٧ .

السند برمتها ونشر فيها الأمن والاستقرار حتى توفي سنة ٢٧٠ هـ

وبوفاته أصبح الحكم وراثيا فى الأسرة الهبارية ، وكان الخليفة يوافق مضطرا ، وبذلك انقطعت سلسلة مجيء الولاة من العراق الى بلاد السند^(٣١) .

فقد تولى عبد الله بن عمر الهبارى (٢٧٠ - ٣١٠ هـ) أمور بلاد السند ووقعت فى فترة ولايته حادثتان كبيرتان ، الأولى أن ملكا سنديا (مهروك بن رائك) بعث اليه مستفسرا عن تعاليم الاسلام ، فأرسل اليه عبد الله عالما عراقى الأصل أقم عنده ثلاث سنوات يلقيه تعاليم الاسلام وتفسير القرآن الكريم باللغة السندية حتى أسلم الملك وأمر بكتابة التفسير باللغة السندية وهو ما يعتبر أول تفسير للقرآن الكريم باللغة السندية فى بلاد السند . أما الحادثة المروعة الثانية فقد حدثت بمدينة الديبل التى كانت لها أهميتها الاستراتيجية عند العرب باعتبارها قلعة الاتصال بين بلاد السند والبلاد العربية ، وفى سنة ٢٨٠ هـ خدفت الشمس وانتشر الظلام منذ النهار ، وفى نفس الوقت حدث زلزال عنيف دمر منازل الديبل كلها ، وبلغ عدد الموتى مائة وخمسين ألفا مما أفقد المدينة نشاطها التجارى ، وأمر الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) بمساعدة^(٣٢) سكان المدينة . وقد ظل عبد الله ابن عمر الهبارى يحكم بلاد السند نحو

(٣١) دكتور عبد الله مبشر الطرزي ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، لجزء الأول ، مرجع سابق ص ٢٩٨ .

(٣٢) السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القاطنين بأمر الطاعة ، القاهرة ١٣٥١ هـ ص ص ٣٧٩ - ٣٨٤

ثلاثين عاما استطاع خلالها أن يقر الأمن وينشر الرخاء ويقوم بتبليغ واسع للإسلام .

وبعد وفاة عبد الله الهباري في سنة ٣٠٠هـ تولى الحكم ابنه عمر الثاني ابن عبد الله الهباري (٣٠٢ - ٣٣٠ هـ) وقد كتب المؤرخ الاسلامي الذائع الصيب أبو الحسن علي المسعودي في مؤلفه القيم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يصف أحوال الوزراء والاستقرار والأخبار المختلفة عن المنصورة وأن عائلات عربية تنتمي الى علي بن أبي طالب تقيم هناك ، وأن عمر الثاني قد فتح من جديد بعض المدن الكبيرة حول المنصورة مثل مدينة الور ، وفي سنة ٣٧٥هـ كتب المقدس البشاري يصف الناحية المذهبية للسكان وأنهم سنيون تبعون مذهب أبي حنيفة ، وأن المذهب الظاهري الداودي بدأ ينتشر بين بعض العلماء هناك ^(٣٣) ، ويفسر الطرازي ^(٣٤) ذلك قائلا : « ومعنى ذلك أنه لم يكن قد ظهر بعد أثر واضح للشيعة في المنصورة حين زارها المقدسي ... » .

غير أنه وصل رجل شيعي من طرف الأمام عبيد الله المهدي وكان بمثابة أول داع شيعي يصل الى بلاد السند وأجرى اتصالات مع علماء السند المسلمين لنشر المذهب الشيعي ، ومن الأرجح أنه لم ينجح ، فانتقل الى اقليم الملتان ونجح هناك وبدأ الدعاة الشيعيون يفدون الى المنطقة حتى

(٣٣) البشاري (المتوفى سنة ٢٨٨هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدس البشاري ، أحسن

التقسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٤٧٩ .

(٣٤) الدكتور عبد الله مبشر الطرازي ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الجزء

الأول ، ص ٣٠١ .

استطاعوا بعد قرن من اقامة دولتهم فى الملتان ثم فى المنصورة فيما بعد ، واختار الخليفة العباسى عالما منيا كبيرا وأسرته بهدف الوقوف على التيارات الفكرية والسياسية الجديدة للشيعة فى بلاد السند واستطاعت هذه الأسرة خدمة الدين الاسلامى ، وفى أحداث سنة ٤١٦ هـ ذكر ابن^(٣٥) الأثير أن سكان المنصورة قد دخلوا فى المذهب الشيعى منذ سنوات قليلة ، يؤكد الطرازى أن الشيعة لم يستولوا على الحكم بالمنصورة فى الفترة من ٣٧٥ الى ٤٠١ هـ حيث طرد السلطان محمود الغزنوى حكام الشيعة من الملتان ، ومن الأرجح - والرأى للطرازى^(٣٦) - بأن الشيعة الذين طردوا من الملتان أو هربوا منها ، قد جمعوا شتاتهم واستولوا على المنصورة سنة ٤٠١ هـ حيث كانت الدولة الهبارية قد ضعفت وظهرت تيارات سياسية عديدة فى بلاد السند .

وفى الفترة التى برز فيها محمود الغزنوى ، فانه حاول القضاء على سلطة الشيعة التى استمرت فى الفترة من سنة ٤٠٢ الى سنة ٤١٦ هـ وذلك عند عودته من بلاد الهند بعد أن فتح سومنات وعاد الى غزنة حيث سار فى طريقه الى الملتان ومنها الى المنصورة ، غير أن جيشه تعرض لغارات حكام المنصورة ومع ذلك تمكن السلطان محمود الغزنوى من اسقاط دولة الشيعة بعد أن قتل الكثيرين منهم وغرق آخرون فى نهر السند ، وانتقل الحكم منذ سنة ٤١٦ هـ الى أيدي الحكام

(٣٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ص ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

(٣٦) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء

لأول ، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

الغزنويين التابعين للدولة الغزنوية ، وخرجت بلاد السند والملتان من أيدي
الحكام العرب لتنتقل الى الحكام الغزنويين فى أوائل القرن الخامس
الهجرى .

٨ - الدولة الملتانية (١٥١ - ٤٠١ هـ) :

نسبة الى مدينة الملتان باقليم البنجاب ، وقد سبقت الاشارة الى أن
أول من فتح الملتان من العرب هو القائد الشاب محمد بن القاسم
الثقفى فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموى وكان والى العراق هو
الحجاج ابن يوسف الثقفى فى سنة ٩٤ هـ بعد فتحه لبلاد السند
سنة ٩٢ هـ .

وكان أول حاكم مسلم لاقليم الملتان هو داود بن وليد العمانى من
محمد بن القاسم الثقفى ، ولانذكر المصادر التاريخية اسم اقليم الملتان لمدة
خمسة وخمسين عاما بعد ذلك لكون هذا الاقليم اقليما كبيرا منفصلا
عن اقليم السند ، ومن الأرجح أن داود العمانى قد استقل بحكم اقليم
الملتان لنفسه أثر الاضطرابات السياسية التى قامت بعد مقتل محمد بن
القاسم الثقفى ، وبذلك انقطع الاتصال المباشر بين العرب فى اقليم السند ،
وبين العرب فى اقليم الملتان ، وظلت حكومة الملتان فى أيدي الحكام
العرب حتى أواخر العصر العباسى ، ولكنها لم تكن لحكم والى المنصورة
ببلاد السند وان كانت تظهر ولاءها - اسميا - للخلافة الأموية ثم العباسية
وتدعو لها فى الخطب .

شهدت الفترة من سنة ١٥١ الى ٣٣٥ هـ تولى عدد من الولاة
على الملتان وفى سنة ١٥١ هـ أشار بعض رجال الدولة على هشام

بن عمرو التغلبي باعادة الوحدة بين السند والمثلثان وقد سبقت الاشارة أن هشام عاد الى منطقة قندهار^(٣٧) للقضاء على الاضطرابات بدلا من مواصلة السير نحو بلاد الهند ، ولايتحدث المؤرخون لمدة ثلاثين عاما من هذا الحدث عن المثلثان ويبدو أن الحالة فيها كانت مستقرة .

خاف أهل المثلثان من اقامة محمد بن عدى التغلبي في مدينتهم نظرا لاحتمال اشتعال العصبية القبلية هناك مثل المنصورة ، ويذكر الطرازي^(٣٨) أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا لمدة تسعين عاما أخرى ، ثم اهتم المؤرخون والجغرافيون العرب بأخبار المثلثان في أواخر القرن الثالث الهجري عند انتقال الحكم من أسرة داود العماني الى حكام جدد يقال لهم « بنو سامة » وتوالت زيارات المؤرخين العرب لهذه المدينة وكتبوا عن حكامها وتطورات الأوضاع فيها مثل المسعودي الذي زارها سنة ٣٠٣ هـ ، والاصطخري الذي زارها سنة ٣٤٠ هـ ، وابن حوقل الذي زارها سنة ٣٦٧ هـ وكتب أن حكامها هم بنو منبه وأهلها على مذهب أهل السنة ، ثم البشاري المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ هـ وذكر أن حكام المثلثان أصبحوا من الشيعة^(٣٩)

(٣٧) راجع ص

(٣٨) دكتور عبد الله مبشر الطرازي ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، ص ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(٣٩) راجع : ابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧ هـ) - أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي البغدادى ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٠٠ م (باب السند) .

- المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الأول ص ٣٧٦ .

- البشاري (المقدس) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مصدر سابق ، ص ص ٤٨٠ - ٤٨٢

- الاصطخري (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري مسالك الممالك ، ليدن ١٨٧٠ م

نصرب المصادر التاريخية حول ذكر الفترة الزمنية التي استولى الشيعة فيها على الحكم في الملتان ، ويرجح الطرازي^(٤٠) من خلال الاشارات السريعة التي وردت في المصادر التاريخية أن الخليفة الفاطمي الثاني بمصر العزيز بالله (٣٧٥ - ٣٨٦م) هو الذى أسقط الدولة العربية السنية هناك بواسطة جلم بن شيبان الذى حكم الملتان فى سنة ٣٧٥هـ وأسس الدولة الشيعية فى الملتان وقام بتنظيم شئون الدولة اداريا وسياسيا والدعوة للمذهب الشيعى ، ثم تولى الحكم من بعده الشيخ حميد الذى عقد صلحا مع السلطان سبكتكين سلطان غزنة سنة ٣٨١هـ .

وكان السلطان سبكتكين قد قام بحملة على لاهور فى سنة ٣٨٠هـ فهزم أميرها وتم الصلح بين الطرفين ، لكن أمير لاهور خالف شروط الصلح ، وتعقبته جيوش سبكتكين حتى نهر السند وهزمته .

وقد سبقت الاشارة الى أن السلطان محمود الغزنوى الذى خلف السلطان سبكتكين انشغل فور تولية الحكم بمشاكل خراسان ، ثم بدأ الحملة على بلاد الهند سنة ٣٩٢هـ وفتح منطقة مجاورة لقندهار وكانت تابعة لأمير لاهور .

تولى أبو الفتوح داود بن نصر بن حميد الشيعى حكم الملتان سنة ٣٩٦هـ ، وحدثت مناوشات على حدوده بين حاكم لاهور والسلطان محمود الغزنوى الذى أنتظر مساعدة حاكم الملتان حسب نصوص معاهدة

(٤٠) دكتور عبد الله مبشر الطرازي ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . الجزء الأول
ص ٣٠٩ - ٣١١ ، نقلا عن : أبى ظفر ندوى ، تاريخ السند ، أعظم كدة الهند ١٩٤٧
ص ٢٥٦ (بالاردية) .

الصلح التي كانت بين الدولة الغزنوية ودولة الملتان ، غير أن حاكم الملتان أساء التصرف تجاه السلطان محمود الغزنوي وجيشه في الخفاء ، مما اضطره الى مفاجأة حاكم الملتان والقضاء على الشيعة الذين أصبحوا خطرا على الدولة الغزنوية ذاتها ، وأصبحت حدود المناطق التابعة لحكم السلطان وحدود الملتان متصلة ببعضها ، وأصبحت الملتان تابعة للدولة الغزنوية .

غير أن الشيعة في الملتان سرعان ما تمردوا على السلطان محمود الغزنوي ، الذي قام بحملة عنيفة على داود بن نصر بن حميد حاكم الملتان وقضى عليه وعلى الدولة الشيعية هناك وعين عليها حاكما سنيا سنة ٤٠١هـ وهكذا سقطت الدولة العربية السنية في الملتان باقليم البنجاب في سنة ٣٧٥هـ لتقوم مكانها الدولة العربية الشيعية ، وفي سنة ٤٠١هـ زالت الدولة الشيعية على أيدي الغزنويين ، وصارت الملتان جزءا من الدولة الغزنوية .

وقد حدث تطور آخر فقد استولى الشيعة الذين طردوا من الملتان بواسطة الغزنويين على المنصورة ببلاد السند سنة ٤٠٢هـ ، ومنها زحف الغزنويون الى المنصورة واستولوا عليها وخرجت بلاد السند والبنجاب من أيدي الحكام العرب .

الفصل الرابع

عصر الإنحلال الثاني وتحافظ دور الفرق الإسلامية

- الخلفاء .
- الفرق الإسلامية وتأثيراتها .
- ١- الخوارج .
- ٢- تجمع الفرق في حركات معقدة .
- ٣- الشيعة .
- ٤- المرجئة .
- ٥- القدرية والجبرية .
- ٦- المعتزلة .
- ٧- الاسماعيلية .
- ٨- القرامطة .
- الفرق الإسلامية في بلاد السند والبنجاب .

الفصل الرابع

عصر الانحلال الثانى وتعاضم دور الفرق الاسلامية

-- الخلفاء :

سبقت الاشارة الى ما أفرزه عصر الانحلال الأول من حركات انفصالية استفلت عن الخلافة العباسية بشكل أو بآخر ، والواقع أنه سواء تعلق الأمر بهذا العصر أو بالعصر الذى يليه فإن هذه الحركات الانفصالية - بالرغم من اختلافها سواء فى قياداتها أو فى دوافعها - قد ارتبطت فيما بينها بتسلسل الفترة الزمنية التى جعلت الدولة العباسية تتآكل حتى فنائها . وتأسيسا على ذلك فقد عالجنا ظهور وبروز العديد من هذه الدويلات وكأنما هناك علاقة وثيقة بينها على نحو ما سبقت الاشارة اليه حيث تداخل الفترات الزمنية : آل بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ، ودولة الحمدانيين (٢٩٣ - ٤٠٢ هـ) ، والدولة الغزنوية^(١) (٣٥١ - ٥٨٢ هـ) ، والدولة الهبارية (٢٤٠ - ٤١٦ هـ) ثم الدولة الملتانية (١٥١ - ٤٠١ هـ) .

وفيما يتعلق بخلفاء هذا العصر ، فإن تصاعد موجة الفتن التى طفت على جسد الدولة أصبحت بمثابة جرح لم يلتئم أودى بالعباسيين الى الانهيار تماما ، فقد سبقت الاشارة الى تضعضع شأن الخلافة بمقتل المقتدر ، واستخلاف أخيه أبى منصور محمد القاهر بالله ، وكان محبا لسفك الدماء ، وعم الفساد ، وساءت أحوال الدولة أكثر ، وخلعه الأتراك وحبسوه الى أن مات فى سنة ٣٣٧ هـ ، وخلفه أبو العباس محمد الراضى

(١) لاحظ تداخل الفترات الزمنية فى هذه الدويلات وهو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا من .

بالله بن المقتدر ، وكان سياسيا حازما ، وأراد إعادة مجد الخلافة العباسية ، وقد وصفه ابن طباطبا قائلا ^(٢) : « ختم الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة انفرد بتدبير الملك ... وآخر خليفة وصل اليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراعاة ، وخدمه ، وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين » ومع ذلك فقد كان جوهر السلطة فى أيدي القادة والوزراء ، ولم يستطع منفردا تدبير أمور الدولة ، فتقسمت البلاد ، واسترجع الروم عامة الثغور ، فأفسدوا دولته ، وفرقوا كلمته ، ويؤكد طلس ^(٣) أن أمور الدولة قد فسدت فى عهده ، وقد تجلت مظاهر هذا الفساد فى أمور منها ، أن ابن قيلة وزيره كتب الى يحكم التركى بطمعه ^(٤) فى الاستيلاء على بغداد ، ومنها أنه فى سنة ٣٢٢هـ استفحلت خطورة مرداويج صاحب أصفهان ، فعزم على ازالة الدولة العباسية ، غير أنه قتل ، ومنها أن أمراء الأقاليم قد قطعوا كل صلة لهم بالعاصمة ، فبلاد فارس كانت تحت سيطرة على ابن بويه ، فى حين سيطر الحمدانيون على الموصل ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، ومضر ، أمام مصر والشام فقد كانت تحت سلطان ابن طنج ، وبلاد خراسان والمشرق تحت سيطرة نصر بن أحمد الساماني ، وقد سبقت ^(٥) الاشارة تفصيلا الى هذه الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية .

(٢) ابن طباطبا ، تاريخ الفخرى ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، ص ٨٨ نقلا عن آراء ابن دحية ، التبراسى فى تاريخ بنى العباس .

(٤) وقد علم الخليفة الراضى لذلك فقطع يده ، ثم قطع لسانه .

(٥) راجع ص ص ١٨٤ - ٢٠٦ .

خلف اسحاق ابراهيم المتقى بالله أخاه الراضى الذى توفى سنة ٣٢٨هـ ، وكان عازفا عن أمور السياسة والحكم ، فازدادت البلاد اضطرابا وفوضى ، وقوى نفوذ الأتراك ، والديالة ، واستولى توزون الديلمى على العاصمة ، فهرب الخليفة الى الموصل ، غير أن توزون تمكن منه وخلعه . وكان الحمدانيون قد سيطروا على الجزيرة والشام ومصر ، وخلفه أبو القاسم عبد الله المستكفى بن المكتفى سنة ٣٣٣هـ ، وكان الديالة مسيطرين على الدولة ، بل أن ابن بويه قدم لاحتلال بغداد ، واستقبله الخليفة الذى لقب بمعز الدولة وأخوه المطيع بعماد الدولة ، وانتشرت نفوذ الديالة البويهيين فى بغداد حيث عانى سكانها من ظلمهم ، وقد تم خلع الخليفة ليحل محله ، عماد الدولة ، مع أن السلطة الفعلية كانت بيد أخيه معز الدولة ، وفى أيام عماد الدولة رد القرامطة الحجر الأسود الى الكعبة - كما سوف يرد تفصيلا فى موضع لاحق - كما استقل كافور الأخشيدي بالشام ومصر ، وفى سنة ٣٦٣هـ بويع ابن عماد الدولة بالخلافة حيث زاد امتهان البويهيين للخليفة وخلعوه مستخلفين أبا العباس أحمد القادر بالله ، وظلت السلطة على ما هى عليه بأيدي البويهيين ، ومع ذلك فقد رجع للخلافة العباسية بعض روثقها ، وارتفع قدر العلم ، وتصفه ^(٦) المصادر بأنه آخر خليفة من بنى العباس صحب العلماء ، ورفض الدنيا ، وظهرت العرب فى عهده ، وقام الاسلام أكثر اشراقا ، وكذلك فتحت السند والهند فى عهده على يد آل سبكتكين - كما سبقت الاشارة - غير أن السلاجقة قد استولوا على الخلافة ، وكانت أيام هذا الخليفة بمثابة صحوة ما قبل

(٦) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٥٤ .

موت « الدولة العباسية ، هذا الموت الذى سبقته العديد من مظاهر الوهن والضعف الذى انهك جسد هذه الدولة لفترة طويلة من الزمن ثم الفساد الذى استشرى فى رأس هذا الجسد ، ونعنى به الخلافة ذاتها والتى كان من الطبيعى أن تنهار انهيارا مزريا وخاصة فى أيام البويهيين .

ويلاحظ طلس ظهور وانتشار ظاهرة سمل عيون الخلفاء وتكحيلهم ، ويفسر سر ذلك أن من شروط الخلافة عدم النقص البدنى ، والعمى نقص بدنى ، فمتى سمل الخليفة أصبح غير صالح لخلافة المسلمين ، ويجب خلعه ، وكان بنى بويه ، شيعة ، زيدية ، لا يعترفون بحكم العباسيين الغاصبين من وجهة نظرهم ، فالغوا منصب الوزير ، واكتفوا بتسميته « كاتب الخليفة » وصار لهم اتخاذ القرار فى بيت المال ، سواء تعلق الأمر بجوهر الخلافة أو شكلها ، فقد استأثر آل بويه بجميع الصلاحيات والسلطات ، بل طمعوا فى الخلافة ذاتها وقد سبقت الإشارة الى ظهور دولتهم وبروزها فى الفترة من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ (٩٤٥ - ١٠٥٥) ، بالاضافة الى دولة الحمدانيين ٢٩٣ - ٤٠٢ هـ ، ودولة الغزنويين فى الفترة ٣٥١ هـ - ١١٨٦ م بما شملته فلسفة هذه الدولة بعناصرها المتباينة ، وقوة أمر أصحاب العقائد المناهضة لمذهب الخلافة بدءا بالفترة بعد قتل عثمان وتولية على بن أبى طالب ومرورا بالدولة الأموية والدولة العباسية فى عهدها الأول وانتهاء بأفول هذه الدولة وتمثلت هذه الحركات فيما عكسته الفرق الاسلامية على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها حول الخلافة وهو ما يقتضى التعرض لها فى تفصيل غير قليل .

- الفرق الاسلامية وتأثيراتها :

اشتد الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ، وتعددت وجهات النظر عقب وفاة الرسول ﷺ حيث لم يعين من يخلعه أو يبين كيفية اختياره ، وأسرع الأنصار قبل وفاته الى عقد اجتماع فى سقيفة بنى ساعدة للتشاور فى الأمر ، وحضر هذا الاجتماع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم ، واختلفت الآراء ، رأى يقول أن تكون الخلافة من الأنصار لأن النبى ﷺ عندما هاجر الى المدينة آمن به الأنصار ونصروه فى حين أن قوم مكة قد أذوه ، فى حين رأى فريق المهاجرين أن تكون الخلافة فيهم لأنهم من قريش ، والعرب لاتدين الا لهم ، واقترح فريق ثالث التوفيق بين الرأيين بمعنى أن يكون منهم أمر ، ومن المهاجرين أمير ، ورفض المهاجرون هذا الاقتراح وتمت بيعة أبى بكر الصديق التيمى القرشى .

لم يوافق على بن أبى طالب - الذى لم يكن حاضرا للاجتماع - حيث كان مشغولا باعداد العدة لدفن الرسول ﷺ - لم يوافق أبى بكر ، ولم يرض عنها ، ومنذ تلك اللحظة وقد تكون رأى رابع وهو أن تكون الخلافة فى بيت النبى وأن عمه العباس بن عبد المطلب ، وابن عمه ابن أبى طالب هما أولى الناس ، وأن كفه على بن أبى طالب ترجح ، فهو أول الناس اسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبى ﷺ وأنه لا يمكن انكار جهاده وعلمه ، ويفسر ابن أبى الحديد فى نهج^(٧) البلاغة هذا الموقف قائلا : ان عليا سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قائلا فماذا قالت قريش ؟ قالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ ، فقال على : « احتجوا

(٧) ابن ابن الحديد ، نهج البلاغة ، الجزء الثانى .

بالشجرة^(٨) ، و « أضاعوا الثمرة ! » - يعنى أن يحتج بأنه وأهل بيته ،
الثمرة ، وقريش الشجرة ، والثمرة غير ما فى الشجرة .

ويرى أحمد أمين^(٩) فى هذا التعبير صدقا عما فى نفس على ابن أبى
طالب ، وقد أيدته بعض بنى هاشم والزبير بن العوام وبعض الأنصار ، وكانت
محصلة ذلك أن عليا^(١٠) لم يبايع أبى بكر الصديق واستمرت النظرية بأولوية
على فى عهد أبى بكر وعمر ، غير أنها خمدت نتيجة لعدل أبى بكر وعمر
وعدم اثارتهمما للعصبية القبلية فضلا عن انشغال المسلمين بالفتوحات
الاسلامية - على نحو ما سبقت الاشارة اليه وما سوف يتم التعرض له
تفصيلا - مما جعل الناس لا يثيرون الفتن .

زاد تبرم أنصار على عندما تولى عثمان بن أبى عفان - وهو أموى -
وتشجيعه للعصبية القبلية حيث بث الشعور بأنه العرب وحده وحرك عوامل
العداء القديم الجاهلى بين بنى هاشم وبنى أمية ، وانتشرت الحركات السرية
فى آخر عهده تدعو الى خلعنه ، ومن أشهر هذه الحركات أو الجمعيات
السرية عبد الله بن سبأ - وكان من يهود اليمن وأسلم والذى تنقل بين
البصرة والكوفة والشام ومصر قائلا : « أنه كان لكل نبي وصى ، وعلى

(٨) يعنى أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبى ﷺ فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبي
بأنهم من ثمرة قريش ، راجع : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، در الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٩ .
(٩) المرجع نفسه ص ٢٥٣ .

(١٠) غير أن واقع الأحداث التاريخية يدل على أن عليا قد يبايع أبى بكر ، ولكن بعد تلكؤ ، كما يبايع
على عمر وعثمان من بعده ، ومع ذلك فان عليا كان يرى أنه كان أولى بالأمر منهم .

وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه ! وكان عبد الله بن سبأ من أكبر الذين ألّبوا عليا على عثمان حتى قتل عثمان .

بايع كثير من المسلمين عليا ، وأيده كبار المهاجرين ، وخرج عليه طلحة والزبير ومعاوية يلصقون به أن له ضلعا في قتل عثمان ، أو على الأقل تقدير أن كان في استطاعته رد الناس عنه ، واحتج بعضهم أنه - وقد بويع - فقد لزم عليه الاقتصاص من قتلة عثمان ، ولم تباع طائفة من كبار الصحابة عليا كما لم تباع غيره ولم تشترك في الجدل المثار وفضلت العزلة ومن أشهر هؤلاء الصحابة : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة ابن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، الذى قال : « ان رسول الله ﷺ أمرنى اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفى فأضرب به عرض أحد ، فاذا تقطع أتيت منزلى فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتينى يد خاطبة أو منية قاضية » .

قتل الطلحة والزبير بعد انهزامهما فى وقعة الجمل ، أما معاوية فكان أصعب مراسا اذ كان لديه جند الشام - كما سيأتى تفصيل ذلك - وكانت وقعة صفين ، ولما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح ، وطلب التحكيم الى كتاب الله - وبالرغم من هذه المقدمة التاريخية الموجزة لارتبط بمجال هذه الدراسة - الا أن هذه الظروف التاريخية قد رافقها تأسيس أكبر الفرق الاسلامية وهى الخوارج والشيعة والمرجئة .

١ - الخوارج :

تعرض على بن أبى طالب لكثير من مضايقات الناس بعبارة : « لاحكم

الاله « التي سرت سير البرق من خلال تشجيع معاوية ، وكان على كلما
خطب في المسجد وجد من يقاطعه قائلا : « لاحكم الا لله » ، وخرج أناس
خطب أحدهم قائلا : « أما بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ،
وينيبون الى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ... أثر عندهم من الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن من ضرر ... فأخرجوا بنا
أخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ... » ، ثم
خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة وسموا بـ « المحكمة » - أى الذين يقولون
لاحكم الا بالله - وهما اسمان يطلقان على الخوارج الذين أمروا عليهم
رجلا منه اسمه عبد الله بن وهب الراسبي ، أما اسم الخوارج فقد جاء
نتيجة لخروجهم على علي وصحبه ، وسموا أيضا « الشراة » « بمعنى
الذين باعوا أنفسهم لله » ، وقد حاربهم علي في وقعة النهروان وهزمهم
ولكنه لم يتمكن من القضاء على فكرتهم ، وزادتهم الهزيمة كرها في
على حتى قتلته أحدهم ^(١١) .

ظلت الخوارج شوكة أيضا في جنب الدولة الأموية ، قاموا بتهديدها
ومحاربتها باستمرار في شجاعة حتى كادوا في بعض مواقفهم القضاء على
الدولة ، وانقسموا فريقين : فريق بالعراق وما حولها قرب البصرة وكانت
لهم اسهاماتهم في الفتوحات الاسلامية باستيلائهم على اليمامة وحضرموت
واليمن ومن أشهرهم أبو طالوت ، ولم يتمكن الأمويون من التغلب على
هذين الفريقين الا بعد حروب طويلة استمرت طوال حكم الدولة الأموية .

(١١) وهو عبد الرحمن بن ماعجم الخارجي ، وكان زوجا لامرأة قتل كثير من أفراد أسرته في
موقعة النهروان .

تتلخص تعاليم الخوارج وآراؤهم فى صحة خلافة أبى بكر وعمر ، وبصحة خلافة عثمان فى سنواته الأولى ، فلما تغير وجب عزله ، كما أقرت الخوارج بصحة خلافة علي ولكنه أخطأ بقبوله التحكيم ، فحكموا بكفره لما حكم ، وطعنوا الخوارج فى أصحاب الجمل ،: طلحة والزبير وعائشة ، كما حكموا بكفر أبى موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، وبحث الخوارج فىمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمنا ومن لا يكون وقاموا بتشريح أعمال^(١٢) الخلفاء وأنصارهم ، وتفسير نظرية الخلافة عندهم هو وجوب أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فلا يصح أن يتنازل ، وليس بالضرورة أن يكون قرشيا ، بل يصح أن يكون من غير قريش ولو كان عبدا حبشيا ، فإذا تم اختياره صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع الخليفة تماما لأمر الله سبحانه وتعالى والا وجب عزله .

ويختلف الخوارج عن الشيعة الذين يرون بانحصار الخلافة فى بيت النبى: على وآله ، وأهل السنة القائلين ان الخلافة فى قريش ، وقد جعلتهم هذه النظرية - أى الخوارج - خارجين عن خلفاء بنى أمية ثم العباسيين لاعتقادهم أنهى ظالمون وغير عادلين ولا تنطبق عليهم شروط الخلافة ، واصطبغت نظرية الخوارج بالصبغة السياسية فى أول عهدهم ، وفى عهد عبد الملك بن مروان مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية ، حيث قرروا أن العمل بأوامر الدين - من صلاة وصيام وصدق وعدل - جزء من الايمان ، وليس الايمان هو الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد أن لا اله الا الله

(١٢) راجع الشهرستانى . الملل والنحل ، الجزء الأول ، ص ص ١٦٠ - ١٦١ .

وان محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارنكب الكبائر فهو
كافر .

اتسم الخوارج بالطبيعة البدوية العربية ولم يكونوا كتلة واحدة ، وكعادة
البدو فسرعان ما يختلفون وينضمون تحت ولايات مختلفة يضرب بعضهم
بعضا وهي سمة ظلت لاصقة بالبدو طوال فترات التاريخ ، ولو كان
الخوارج قد توحدوا لكانوا قوة لا يستهان بها ضد الدولة الأموية ، واذا ما
عدنا الى نظريتهم فى الخلافة وتفسيرها ، نلاحظ أن بعضهم يرى أنه لا
حاجة للأمة الى أمام ، وانما يجب على الناس أن يعملوا بكتاب الله من
أنفسهم ، وينقل عن على رضى الله عنه قوله عندما سمعهم يقولون :
« لاحكم الا لله » ، قال : كلمة حق يراد بها باطل . وتفرقت فرقهم الى
نحو عشرين^(١٣) فرقة كل منها تخالف الأخرى ، ومن أشهرهم الأزارقة
اتباع نافع بن الأزرق وكان من أكبر فقهاءهم وقد كفر جميع المسلمين
ماعداهم قائلا : « انه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدا من غيرهم
الى الصلاة اذا دعاهم اليها ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزاجروا
منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبداء الأوثان
لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف ، ودارهم دار حرب ويحل قتل أطفالهم
ونسائهم .

ومن فرق الخوارج الأخرى النجدات ، أتباع نجدة بن عامر الذى يرى أن
الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، ثم الأباضية نسبة الى عبد الله ابن

(١٣) راجع : الشهرستانى ، الجزء الأول ، ص ص ٢١٠ - ٢١٨ .

- البغدادى ، الفرق بين الفرق .

اباض التميمي ولا يزال أتباعه في المغرب وهم غير مغالين ويختلفون عن الأزراقة المتشددين ، وقالوا أن التزاوج يحل من غيرهم ، ويتوارث الخارجي وهم يميلون الى المسالمة ، ثم فرقة « الصفوية » أتباع زياد بن الأصفر وهم يتشابهون مع الأزراقة في آرائهم ، والفرق الأربعة السابقة هي أشهر فرق الخوارج .

وكان الحسن البصري يوافق الخوارج في آرائهم بخطأ على في قبول التحكيم ، غير أنه لا يعتنق مذهبهم ، وأكثر من اعتنق آراء الخوارج كانوا عربا بدوا ، ثم انضم اليهم بعض الموالي اعجابا بأرائهم بشأن الخلافة وخاصة أنه ليس بضروري أن يكون الخليفة من قریش ولا من العرب ، ويصفهم الشهرستاني بأنهم أهل صوم وصلاة ، ويرى المبرد بأنهم في جميع أصنافهم يبرأون من الكذب ، غير أن اعدامهم على سفك دماء معارضتهم هو أكبر ما شوه حركتهم .

أخلص الخوارج لآرائهم وقاتلوا دفاعا عنها ، وربما يفسر هذا نظرة الناس اليهم بعطف ، وروى عن علي بن أبي طالب قوله : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » . وروى عن عمر بن عبد العزيز قوله لبعض الخوارج : « انى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها » أما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فيقول : « ليس في الافراق - جمع الجمع لفرقة - كلها أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشهد اجتهدا ، ولا أوطن أنفسا على الموت ... » .

وللخوارج أدبهم الخاص الذى يمتاز بالقوة شعرا ونثرا ، وفصاحة فى الأسلوب ، واشتهر منهم الخطباء كأبى حمزة ، وقطرى بن الفجاءة ، ومن أشهر علمائهم فى الأدب أبو عبيدة معمر بن المثنى من البصرة ، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالى الذين اعتنقوا مذهب الخوارج رغم كونه من أصل يهودى فارسى وكان يكره العرب .

وفيما يتعلق بالثورة من وجهة نظر الخوارج ، فإن الواجب عندهم هو « انصاء احكام الشرع » فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ احكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه اذ لاحكم الا لله ^(١٤) . واتفق الخوارج على اختلاف فرقهم بوجوب الخروج على السلطان الجائر ، وهذا ليس مجرد حق للفرد عندهم ، وانما هو واجب يكلف به السلطان ، ويتحتم على المسلم مقاومة الامام الجائر بالخروج عليه جهارا ولو كان هلاك الجماعة الخارجة محققا لقوة السلطان ، فواجب النهى عن المنكر الذى يكلف به المسلم يقتضى ذلك ، وربما ترجع آراء الخوارج هذه الى أنهم لم يتأثروا - كما تأثر غيرهم من العرب - بفلسفة الاغريق وثقافة الفرس - وقد حافظوا على شجاعة البداوة فردا كأحد الناس يخطيء ويصيب ، فان أصاب فيها ولا وجبت مقاومته بحد السيف ^(١٥) .

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، الفصل السادس والعشرون .

(١٥) راجع : دكتور محمد نصر مهنا ، علوم السياسة . دراسة فى الأصول والنظريات ، دار الفكر

العربى ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ص ٨٦ - ٨٧ .

٢ - تجمع الفرق فى حركات معقدة :

تجمعت بعض الفرق بهدف تعقيد عقيدة الاسلام ، والواقع أن الخلفاء الأمويين كانوا سنيين ، يتسمون بالبساطة ، والفطرة العربية الخالصة ، ويفسر هذا مقاومتهم بشدة لأصحاب الحركات العقائدية المعقدة كالمعتزلة الذين عارضوا الأمويين باستمرار ، وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى أحقية على بن أبى طالب فى الخلافة بعد الرسول ﷺ ، غير أن المعتزلة اعترفوا بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، وقلدهم فى ذلك المعتدلون من الشيعة ، وبعض الخوارج ، وقد سبقت الإشارة الى تغيير فلسفة الحكم فى الدولة الأموية عن الدولة العباسية ، ففى حين عمل المعتزلة على اسقاط الدولة الأموية واحلال ذرية على بن أبى طالب مكانها ، فقد شجعت قيم الخلافة العباسية ومؤازرتها حتى عهد المتوكل ، وأيد الخلفاء العباسيون من جانبهم أفكار المعتزلة ، بل أنهم بالغوا فى مناصرة آرائهم ، ومعتقداتهم ، التى أجبروا الناس على اعتناقها ^(١٦) .

كما ظهرت العديد من الحركات المعقدة والميول المنحرفة ليس عن مذهب السنة فحسب ، وإنما عن الاسلام ذاته وجوهره ، ففى (راوند) بالقرب من أصفهان ظهرت الحركة الراوندية فى عهد المنصور ، وكانت تهدف الى احياء التقاليد الفارسية من دينية ، وديونية بشأن تقديس الملوك بل أنهم زعموا أن المنصور هو الههم وهناك حركة أخرى مشابهة هى

(١٦) اعتمدنا فى صياغة أفكار أصحاب هذه العقائد على التحليل القيم للدكتور محمد أسعد

طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، مرجع سابق ، ص ٤١ - ٦٤ .

« المقنعة » نسبة الى « المقنع الخراسانى » الذى اتخذ لوجهه قناعا من ذهب ، وادعى الألوهية ، واسقط الصوم ، والزكاة ، والحج ، ودعا الى تعاليم « مزدك » الأباحية ومبادئه التى انبثقت عنها أيضا الحركة « الخرمية » واسمها مأخوذ من « خرم ... دينان » ، الفارسية ، ومعناها الدين المفرح وقد مزج أصحاب هذه الحركة بين تعاليم الاسلام ، والمزدكية ، بشأن تناسخ ، واشتراكية المال والنساء ، ولعل أخطر هذه الحركات العقائدية هى البابكية التى قامت فى ايران أيام الدولة العباسية ، باعتبارها استمرارا للخرمية . وهذه الحركات المستمدة أصلا من الديانات القديمة بأفكارها الغربية عن البيئة الاسلامية والنفس العربية كانت خراسان مهدا ، وحقلا خصبا لها ، لأنه كثيرا من سكانها أسلموا رغبة فى منافع ، أو إيثارا للسلامة من البطش ، وكانت نفوسهم مشبعة بدياناتهم القديمة المتوارثة عن أسلافهم .

وقد سبقت الاشارة الى تمكن العباسيين بذهائهم من الوصول الى هدفهم السياسى ، وهو خلع العلويين ، وأن دعوتهم تهدف الى تسليم الأمر للرضا من (آل بيت محمد) ، والواقع أن كلمة (الرضا) . كلمة غامضة وقد خدع بها العباسيون العلويين ، وربما يرجع أصلها الى عهد الفتنة الكبرى التى وقعت بين يزيد بن معاوية ، وعبد الله بن الزبير ، فلما مات يزيد ، وعظم أمر ابن الزبير فى الحجاز ، ومصر ، والعراق ، وبايعه الناس فقد امتنع زعيما الهاشميين ، وهما محمد بن الحنفية ، وعبد الله بن العباس عن مبايعته ، فاضطهدهما ، وسجنهما ، وعادت الفتنة من جديد فى الكوفة بظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى الملقب بكيسان ، والذى

أخذ يدعو آل على ، فالتف حوله رؤساء الشيعة ، وجمع مؤيديه لقتال ابن الزبير ، الذى استطاع الفتك به ، لكنه لم يتمكن من القضاء على حركته التى ستظهر مستقبلا بشكل أو بآخر حيث اضطربت فى هذه الفترة أفكار الشيعة بموت ابن الحنفية ، فمنهم من قال بغيبته مؤقتا ، ومنهم من تبع ابنه أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذى اضطرب الى اللجوء الى بنى عمه من آل العباس المقيمين فى « الحميمة » بفلسطين .

ان المتعمق فى دراسة تاريخ الدولة العباسية - ابتداء من ظهورها وبروزها ومروا بانحلالها وانتهاء بسقوطها وانهارها - يلمس استفحال هذه الأفكار^(١٧) الغريبة عن الاسلام ، وخاصة ابان الحركات الانفصالية والتى سبقت الاشارة اليها تفصيلا ، فالدولة الزيدية (٢٥٠ - ٣٥٥ هـ) أعلنت ثورتها على العباسيين حيث ثار محمد بن القاسم بن على بن عمر ابن على بن الحسين بن على فى الكوفة ، واستقطب سكان خراسان ، وهو يدعو الى (« الرضا » من آل محمد) ، غير أن محمدا بن القاسم قد حبس بسامراء سنة ٢١٩ هـ ثم تمكن من الهرب ، ولا يزال الاعتقاد السائد فى أنه حى غائب ، وسوف يعود ليملأ الأرض عدلا ، ونورا .

(١٧) ان هذه الحركات العقائدية فى معظمها والتى بدأت فى الظهور من عصر الدولة الأموية وتضاعفت تأثيراتها فى عهد الدولة العباسية ، لم تكن فى الواقع سوى هدم للاسلام وأرجاع الملك الى الفرس وهو ما يستدل عليه ما سبق عرضه عن الرواندية والمقتنعة والحرمية .

والواقع أن هذه الأفكار الشيعية كانت سابقة على هذه الفترة ، القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وتختلف المصادر حول بداية التشيع ، ومن الثابت أن رسول الله ﷺ قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين دون أن ينصر عليها ، أو يعهد لأحد أن يخلفه ، فرأى الانصار أنهم أولى بها ، وكذلك المهاجرين ، فى حين رأى أصحاب على بن أبى طالب أن الخلافة ميراث أدبى ، ولو كان النبى ﷺ يورث فى ماله لكان أولى به قرابته . ويرى البعض أن عليا قد تباطأ فى مبايعة أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، غير أن هذا رأى يجب أن يؤخذ بتحفظ ، لأن عليا ابن أبى طالب كان زاهدا فى الخلافة وفى الأمور الدنيوية برمتها ، فلم يكن على بن أبى طالب محبا للسلطة ، ومع ذلك فإن هذه الآراء تستطرد فتذكر أن جمعا من الصحابة كان يرى أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، ومن هؤلاء الصحابة عمار ، وأبو ذر الغفارى ، وسمان الفارسى ، والعباس ، وابن كعب وغيرهم .

ثم تطورات الفكرة ، فأصبح على وبنوه يعرفون بأنهم شيعة ، ثم تبع ذلك ظهور فكرة الوصية ، ولقب على بالوصى ، وتفسير ذلك - طبقا لهذه الآراء - أن الرسول ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده ، وهكذا كل نبى وصى من قبله ، ثم انتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها دائما^(١٨) . ثم تطور الشيعة فى تعلقهم بعلى وجهم له ، فقالوا

(١٨) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٢٣٥ -

بعضمة الأئمة بدءاً بعلي ، ومن جاء بعده ، حيث لا يصدر عنهم الا الصواب .

ويرى الشيعة خطأ أبي بكر وعمر وعثمان بقبولهم الخلافة مع علمهم بأفضلية علي ، بل أن من الشيعة من وصلت بهم المغالاة الى تفسير حوادث التاريخ حسب مذهبهم ، حتى وصلوا الى القول : « هل في علي جزء الهى ، واتحد بجسده ، وبه كان يعلم الغيب اذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار ، وله النصر والظفر ، وبه اقتلع خير » وقوله : « والله ما قلعت به خير بقوة جسدانية ، ولا بحركة فدائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية ... » وتنقل المصادر^(١٩) الحديث قول الشيعة : « يظهر على فى بعض الأزمان ، والرعد فى صوته والبرق بسمته » . وكان عبد الله ابن سبأ أول من دعا الى تأليه علي فى حياة النبى ﷺ ، وهو الذى نقل الى أبى ذر الغفارى الدعاية للاشتراكية ، وهو الذى حرّض الناس على عثمان بن عفان ، ووضع تعاليم لهدم الاسلام ، فتم طرده من الكوفة ومن البصرة ، غير أنه ذهب الى مصر ، وأعلن آراءه الهدامة ، هناك ، ومنها الوصاية والرجعة ، وتعنى هذه الأخيرة أن محمدا ﷺ سيرجع ، وكان مما قاله : « العجب من يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع »^(٢٠) .

يروى البخارى عن ابن عباس أن عليا رضى الله عنه خرج من عند النبى

(١٩) المرجع نفسه ص ٢٩٩ .

(٢٠) الدكتور أحمد قاعود ، الدكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق نقلا عن ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٤ .

ﷺ في وجعه الذي توفي فيه ، فقال الناس : يا أبا الحسن ! كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وانى والله لأرى : رسول الله ﷺ سيتوفى من وجعه هذا ، انى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه ، وأن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال على رضى الله عنه : أما والله لئن سألتناه فمعناها ليعطيناها الناس بعده ، وانى والله لا أسأله .

وهكذا رأى جمع من الصحابة أن علياً أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، وتطورت هذه الأفكار فيما بعد ، فقال شيعة على : ان الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم بل هى ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولايجوز لنبى اغفالها ، ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر .

يرى ابن خلدون أن علياً رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤلونها بمقتضى المذهب الشيعى ، لا يعرفها أهل السنة ، بل أن أكثرها موضوع أو مطعون فيه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ، وتأسيساً على ذلك نشأت فكرة الوصية ، ولقب على بالوصى ، ومن وجهة نظرهم فان النبى ﷺ قد أوصى لعلى بالخلافة من بعده ، فأصبح على وصى رسول الله ، فهو - أى على - ليس اماماً بطريق الانتخاب ، بل بطريق من رسول الله . وعلى أوصى لمن بعده وهكذا كل امام وصى من قبله ، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها ،

واستقرت أمور منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم الا من كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر .

وظهر من الشيعة من يغالى ، ومنهم من يقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم أخطأوا اذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على ، وأنه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم ، وكفر من شايعهم لأنهم جحدوا « وصية » النبي ﷺ ومتعوا الخلافة مستحقها ، وقام أنصار المذهب الشيعى بتأويل الوقائع تأويلا غريبا ، فلم يقنعوا بأن عليا أفضل الخلق بعد النبي ﷺ ، بل قاموا بتأليهه ، فمنهم من قال : « حل فى على ضوء الهى ، واتخذ بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ... ويحارب الكفار ، وله لنصرة والظفر ، وبه قلع باب خير » .

وبهذا الخصوص قال : والله ما قلعت باب خير بقوة جسدانية ، ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية .. » .

وقال الذين « ألخوا » عليا أقوالا غريبة ^(٢١) .

ويحلل الأديب الاسلامى الذائع الصيت أحمد أمين هذه الوقائع متعجبا ومتسائلا ومستنكرا الأسباب التى دعت الى الاعتقاد بالوهية على « مع أن أحدا لم يقل بالوهية محمد ﷺ ، وأن عليا نفسه يصرح بالاسلام

(٢١) وقد سبقت الاشارة أن اليهودى عبد الله بن سبأ هو الذى دعا الى تأليه على وكان ذلك فى حياته ، وفى حين يذهب بعض الباحثين الى أن عبد الله بن سبأ خرافة لا وجود لها ، فان آخرين ينفون ذلك ويضيفون ان عبد الله بن سبأ هو الذى حرك أبا ذر الغفارى للدعوة للاشتراكية ، وهو من حرض الأنصار على عثمان ، وهو الذى وضع تعاليم لهدم الاسلام ، والف جمعية سرية لبث تعليمه واتخذ الاسلام ستارا يستتر به نوابه الخبيثة ، وتنقل بين البصرة الى الكوفة الى القاهرة حيث التف الناس حوله ونشر تعاليمه فى القاهرة حول الوصاية لتحريض أهل مصر على عثمان ، ثم الرجعة حيث زعم ان محمدا ﷺ يرجع وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى المتن .

وبتبعيته لمحمد ﷺ ، ويعزى أحمد أمين المبررات السابقة فى أن شيعة على قد ردوا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشئ الكثير ، وقالوا أنه كان يعلم كل شئ ، ووضعوا على لسانه قوله : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لاتسألوننى عن شئ فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها ، وقائدها ، وسائقها .. » (٢٢) ، وروا له أنه أخبر بمقتل الحسين ، وأخبر بكر بلاء ، وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، وبنى أمية وملكهم ، وأخبر بينى بويه وأيام دولتهم .

- انتشرت هذه الأخبار وأمثالها بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون أنه أخبر بما سيكون الى يوم الدين ، وتجدد الاشارة أن أكثرية شيعة على كانوا فى العراق الذى كان منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الغريبة وسادت فيهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ريسان ، ومعهم يهود ونصارى سمعوا المذاهب المختلفة فى حلول الله فى بعض الناس ، وهذه الأمور جعلت منهم من يؤله عليا ، هذا فى الوقت الذى كان العرب فيه أبعد الناس عن المذاهب الدينية،حياتهم بسيطة ، عقبتهم التي على الفطرة ترفض لصق الألوهية بمحمد ﷺ مؤمنين بما جاء فى القرآن الكريم : « انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » .

يتضح من هذا العرض السريع ان « الامام » هو عقيدة الشيعة فى الخلافة ، وأن عليا بن أبى طالب هو الامام بعد الرسول ﷺ ، ثم يتسلسل الائمة بترتيب من عند الله ، وطاعة الامام والاعتراف به جزء من الايمان ، والامام فى المفهوم الشيعى هو أكيد وعلم ، فالامام الاول على قد ورث علوم النبى ﷺ ، وهو ليس شخصا عاديا ، بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ ، وقد علم النبى عليا علم الظاهر ، وعلم الباطن ، فكان بعلم الباطن القرآن وظاهره ، وأطلععه على اسرار الكون ، وخفايا المغيبات وكل أمام

(٢٢) المبرد ، الكامل .

حدث . وهذه العلوم من بعده ، وكل امام يعلم الناس ما يستطيعون فهمه من أسرار في وقته ، ولا يؤمنون بالعلم ولا الحديث الا اذا روى عن هؤلاء الأئمة .

وتعتبر فرقنا الزيدية والامامية أهم فرق الشيعة ، فالزيدية هم أتباع زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان زيد يرى جواز امامة المفضل مع وجود الأفضل ، وقال بأن امامة أبي بكر وعمر صحيحة على الرغم من أفضلية علي بن أبي طالب ، ورأت عقيدة الزيدية بعدم وجود امامة بالنص ، وانه لم ينزل وصي يعين الأئمة ، بل أن كل واحد من أبناء فاطمة يجوز له أن يكون اماما بشرط أن يكون عالما زاهدا شجاعا كريما . وقد سبقت الإشارة الى أن زيدا ظهر في فترة حكم الخليفة هشام ابن عبد الملك ، وبويع بالخلافة ، فقاتل الأمويين حتى قتل سنة ١٢٢ هـ ولا يزال الزيدية في اليمن حتى الوقت الحاضر ، حيث يعتبر هذا المذهب اقرب الى أهل السنة وأكثر المذاهب الشيعية اعتدالا . أما الامامية فان أصحابها يقولون بأن النبي محمد ﷺ قد نص علي خلافة علي ، وأن أبا بكر وعمر قد « اغتصبا » الخلافة ، غير أن الامامية فرق تتعدد ، لاتتفق على أشخاص الأئمة ، فمنهم الاثنا عشرية ، سموا كذلك لايمانهم بتتابع اثني عشر اماما بدءا بعلي بن أبي طالب ، « المرتضى » ومرورا بالحسن « المجتبي » ، والحسين « الشهيد » ، وعلي زين العابدين « السجاد » ، ومحمد بن علي « الباقر » ، وجعفر بن محمد « الصادق » ، وموسى بن جعفر « الكاظم » ، وعلي بن موسى « الرضا » ، ومحمد بن علي « الجواد » ، وعلي بن محمد « الهادي » ، والحسن بن علي « العسكري » ، وانتهاء بمحمد بن الحسن « المهدي المنتظر » ، ويطلق الباحثون على هذه الفرقة أيضا الجعفرية ، وهذه الفرقة هي الأخرى ليست من الفرق المغالية الى التعقل في أمور الدين الاسلامي ، ومن أقربها بالتالي الى أهل السنة .

وسواء تعلق الأمر بتعاليم الخوارج أو الشيعة ، فقد اتفقت الفرقتان - على اختلاف توجهاتهما - على محاربة الخلفاء الأمويين ، وكان الخوارج

ظاهرين فى حروبهم فى حين كان الشيعة يحاربونهم سرا و جهرا حيث قال أكثرهم بالتفيد أى المدارة - ويعتقها أكثر الشيعة - والعمل سرا ونتيجة لللاضطهادات التى تعرض لها الشيعة فقد كتموا عملهم فى سرية تامة استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل ، ووضع الشيعة أحاديث كثيرة فى فضائل على وفى المهدي المنتظر ، وقد سبقت الإشارة الى اشتغال بعض علمائهم بعلم الحديث واطلق عليهم « الثقات » وحفظوا الأسانيد الصحيحة .

والواقع أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية ، وقد تستر الفرس - أو على الأقل بعضهم - بالتشيع ويقول المقرئى : « واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانت سمة الملك وعلو اليد ... وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا ... » ، وقد ذهب ولهوسن Weilhausin « الى أن العقيدة الشيعية بعت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية مستدلا بدور عبد الله بن سبأ وهو يهودى ، فى حين يرى « دوزى Dozy » أن التشيع أساسه فارسى لأن العرب تدين بالحرية فى حين يدين الفرس بالوراثة فى البيت المالك ولا يعرفون معنى لانتصاب الخليفة ، واعتاد الفرس أن ينظروا للملك « كاله » وقالوا : ان طاعة الامام أول واجب ، وأن طاعته اطاعة الله ، وعموما فان أكبر الأثر فى التشيع جاء من الفرس .

وفيما يتعلق بالثورة على الحاكم فقد اختلف الشيعة جذريا مع غيرهم من الفرق فى شأن مشروعية الثورة على الخليفة ، وقد سبقت الإشارة الى

قول بعضهم أنه قد حل في على جزء الهى واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ... وبه كان يحارب .

وإذا كان الأمام قد أصبح لدى الشيعة فوق البشر ، تحتّم أن يطاع طاعة عمياء ، فليس لأحد أن يناقش ما يفعل ، أو يعترض على ما يشاء بل أن مجرد التفكير في هذا يعد انكارا لعصمة الامام ، وتعديا على قداسته وخير مثال على ذلك قول ابن هانئ الأندلسى الشيعى موجها قوله للمعز لدين الله الفاطمى :

ماشت لا ما شاءت الأقدار

فأحكم فأنت الواحد القهار

وتأسيسا على ذلك فان القاموس الفكرى الشيعى يخلو من عبارة مقاومة الامام ، لأنه معصوم ومن ثم فلا وجود لعبارة مقاومة الامام فى فقه الشيعة .

٤- المرجئة :

شكلت المرجئة فى بداية تكوينها حزبا سياسيا محايدا ، ويروى ابن عساكر فى توضيح رأيهم « أنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان ... قالوا : تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل أصحابه ، وبعضكم يقول : كان على أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة وعندنا مصدق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجى أمرهما الى الله حتى

يكون الله هو الذى يحكم بينهما^(٢٣) ،

وتأسيسا على ما ذكره ابن عسكر فقد سموا المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، فى حين اشتق بعضهم اسمهم من ارجأ بمعنى بعث الرجاء لقولهم : لا تنصر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وعندما كفر الخوارج عليا وقالوا بالتحكيم ، ورأت الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وكل طائفة تدعى أنها على حق وأن من عداها كافر وضال ، فى هذه الظروف نشأت المرجئة كى تسالم الجميع قائلة ان الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، فبعضهم مخطئ وبعضهم مصيب ، وليترك أمرهم جميعا الى الله ، ومنهم بنو أمية حيث يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله ، فهم ليسوا كفارا ، بل مسلمين نرجى أمرهم الى الله ، وربما يفسر ذلك بأن المرجئة كان موقفهم مؤيدا للأمويين ، غير أنه تأييد سلبي وليس ايجابى .

وكانت نواة هذه الجماعة بين الصحابة ، فجماعة منهم امتنعوا عن التورط فى النزاع فى أواخر عهد عثمان بن عفان مثل أبي بكر ، وعبد الله ابن عمر ، وعمران بن الحصين ، وروى أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى اليها ، ألا فاذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له ابل فليلق بابله ، ومن كان له غنم فليلق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلق بأرضه ، قال : فقال رجل : يا رسول الله من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد

(٢٣) ابن عسكر .

الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج ان استطاع النجاة .

تغير اسلوب المرجئة من حزب سياسى الى البحث فى أمور لاهوتية منها تحديد « الايمان » و « للكفر » و « المؤمن » و « الكافر » وقد دعاهم الى البحث فى هذه الأمور أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، ومثلهم الشيعة ، وتغالى كل من الخوارج والشيعة ، حيث عدت الخوارج كل كبيرة كفرا ، وعدت الشيعة الأمام ركنا أساسيا من أركان الايمان ، وكان تساؤل المرجئة : ما الكفر وما الايمان ؟ ، ورأى كثير منهم أن الايمان هو المعرفة بالله ورسله ، فمن عرف أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فهو مؤمن ، وهذا رد من المرجئة على قول الخوارج : ان من آمن بالله ورسله ، وترك الفرائض وارتكب شيئا من الكبائر فانه كافر ، فى حين أنه مؤمن عند المرجئة ، ورد أيضا على الشيعة الذين يعتقدون أن الايمان بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، هنا فان بعض المرجئة قد تغالوا أكثر من ذلك قائلين : « ان الايمان هو الاعتقاد بالقلب ، وأن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الاسلام ، وعبد الصلب وأعلن التثليث فى دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل ، ولى الله عز وجل ، من أهل الجنة ^(٢٤) » .

لاحظ أحد المستشرقين أن هناك شىء من الغموض قد أحاط بطائفة المرجئة ، وعلل ذلك بأن الدولة العباسية قد دمرت هذه الطائفة ، وكان أبرز شعراء بنى أمية من قالوا بالارجاء ويتسم شعرهم ^(٢٥) فى معظمه بقولهم :

(٢٤) ابن حزم ، الجزء الرابع ص ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢٥) مثال ذلك قصيدة أبو الفرج الأصفهاني فى الأغاني وجاء فيها : =

انهم لا يحكمون على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب ، وأن الذنب
 مهما عظم لا يذهب بالايمان ، وأنه لا يفسد دم أحد من المسلمين الا
 دفاعا عن نفسه ، وأنه اذا اشتبهت الامور وكفرت كل طائفة الأخرى فيما
 فعلت فإنه يرجأ أمرهم جميعا الى الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا
 فيه يختلفون ، فى حين أن الجو البين والعناد الواضح والأعمال
 الظاهرة لا بد أن تصدر الأحكام عليها صراحة لا يوضح الخطأ من
 الصواب ، فالخوارج أخطأوا اذ حكموا على عثمان وعلى الكفر ،
 فهما عبدان لله ، لم يشركا به منذ عرفاه ، وما بينهما لم يخرج بهما
 عن الايمان ، فليترك أمرهما لله سبحانه وتعالى يقدر عملهما ،
 ويكافىء عليه .

٥ - القدرية والجبرية :

عندما تعمق الفلاسفة فى العصور المختلفة للبحث فى مسألة العقل ، فقد

= يا هذا فاستمعى لى أن سيرتنا
 أن نعبد الله لم نشرك به أحدا .
 = فرجى الأمور اذا كانت مشبهة
 ونصدق القول فيمن جار أو غدا
 المسلمون على الاسلام كلهم
 والمشركون استروا فى دينهم قددا
 ومن ذلك ما قاله عمرو بن عبد الله بن علقمة بن مسعود :
 فأول ما أفارق غير شك
 أفارق ما يقول فرجعه
 وقالوا مؤمن دمه حلال
 وقد حرمت دماء المؤمنيننا

واجهتهم مشكلة الجبرية والاختيار : هل ارادة الانسان حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء أم أن الانسان مجبر على عمل ما يعمل فلا يستطيع عمل غيره ؟ وبمعنى أبسط : هل الانسان مخير أو مجبر ؟ . وقد برزت هذه المشكلة في الفكر الاسلامي عندما انتهى المسلمون من فتوحاتهم وظهر قوم يقولون بحرية الارادة معارضين في ذلك الأفكار الشائعة بأن الانسان مسير وليس مخير ، روى عن نافع قوله : « حاء رجل الى ابن عمر ، فقال : ان فلانا يقرأ عليك السلام ، فقال ابن عمر : انه قد بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام » .

مسمى هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة - أى له قدرة على أعماله - بـ « القدرية » ، وسماهم خصومهم بذلك لحديث ورد : « القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الذين يقولون بحرية الارادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الانسان من خير وشر . قال ابن نباتة في « سرح العيون » : « قيل أن أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي » ، وكان غيلان الدمشقي يسكن دمشق ، وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان ، قال الأوزاعي : « قدم علينا غلام القدرى فى خلافة هشام بن عبد الملك ، فتكلم غيلان وكان رجلا مفوها ، ثم أكثر الناس الوقعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر ، وأثاروا عليه هشام بن عبد الملك فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه » .

انتشرت الأقوال فى القضاء والقدر فى عصر هشام بن عبد الملك ، واشتد

الجدل ، واحتلف الباحثون فى منبع هذه الحركة : هل هو العراق أو الشام ؟ وذهب فريق الى أن العراق منبع ذلك واستولوا على ذلك بأن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وكان يسكن البصرة ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباتة فى « سرح العيون » من أن منشأ القول فى ذلك نصرانى من العراق وأخذ عنه معبد الجنى وفيلان الدمشقى فى حين يذهب آخرون الى أن الحركة ظهرت فى دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى فى بيت الخلفاء كبحىي الدمشقى ، ويؤيد الأديب والمفكر الاسلامى أحمد أمين القول بأن القضاء والقدر انتشر فى كل من العراق والشام معا ، ويسبقه فى هذا رأى ابن تيميمة الذى قال : « أن أكثر الخوض فى القدر كان بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة المنورة » .

انبثقت فرقة أخرى من القدرية حسمت الخلاف حول هذا الموضوع هى طائفة « الجبرية » ، وكان منهم بن صفوان رئيسها ، ومن هنا تسمى هذه الفرقة « الجهمية » حيث يقول : ان الانسان مجبور لا اختيار له ، ولا قدرة ، انه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لا بد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق فى الجماد ، فكما يجرى الماء ، ويتحرك الهواء ، ويسقط الحجر ، فكذلك تصدر الأفعال عن الانسان يصدرها الله فيه ، وتنسب الى الانسان مجازا كما تنسب الى الجماد ، فكما يقال : كتب محمد ، وقضى القاضى ، وأطاع فلان ، وعصى فلان - ، كلها من فعل واحد - عن طريق المجاز ، والشواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدر لفلان فعل كذا ، وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية ، وقدر أن يعاقب .

أشتهر بهذا القول جهنم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان ، من
الموالي ، وأقام بالكوفة . وكان حصييا جذابا ، ظهر مذهبه في ترند ، وكان
وزيرا للحارث بن سريح الذي كان قد خرج على بنى أمية في خراسان
واتبعه كثير من أهلها ، وكان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ،
وقد هزم الحارث وأسر جهنم بن صفوان فقتل ، ثم قتل الحارث سنة
١٢٨هـ

قتل الجهم لأمر سياسى لا علاقة له بالدين الاسلامى ، لكنه مع ذلك
قد اشتهر بأمر لا يقل خطورة عن مسألة الجبر ، حيث نفى أن يكون لله
سبحانه وتعالى صفات غير ذاته - وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة على
صفات الله سبحانه وتعالى من سمع وبصر ... - ويقول الجهم أن ما ورد
في القرن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره
يدل على التشبيه بال مخلوق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك
قائلا : لا يصح وصف الله سبحانه وتعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك
يقتضى التشبيه ، وأضاف : ان القرآن الكريم « مخلوق » خلقه الله ، وكان
ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات ، فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن
كلام الله القديم الا على التأويل ، وانما خلقه الله ، كما أنكر الجهم أن
الله يرى يوم القيامة قائلا : « ان الجنة والنار تغنيان بعد دخول أهلها
فيهما ، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجحيمها .. » .
وبالطبع فقد قاوم كثير من علماء المسلمين حركتى الجبرية ... والمغالاة من
جانب الجهم وردوا بأن مسألة الجبر تدعو إلى التعطيل وترك العمل والركون
إلى القدر ، وفي مسألة المغالاة في تأويل الآيات التى تثبت له صفات -

خطر على القرآن الكريم وتفهم معانيه .

٦ - المعتزلة :

ذابت القدرية والجهمية فى المذاهب الأخرى ، وانبثق أثر ذلك مذهب المعتزلة ، وكثيرا ما يطلق عليها القدرية لأن أصحابها وافقوا القدرية فى قولهم : « أن للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى » ، ونفوا أن تكون الاشياء بقدر الله تعالى وقضائه ، وأحيانا يلقب المعتزلة بالجهمية فى نفى الصفات عن الله ، وفى خلق القرآن ، وقولهم : ان الله لا يرى (بضم الياء الأولى) ، وقد ألف البخارى والأمام أحمد بن حنبل كتابين فى الرد على الجهمية ، وعنيا بهم المعتزلة ، والمعتزلة يראون من هذين الاسمين ، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية ، ويقولون أن مثبت القدر أولى بالانتساب اليه من نافية .

لقب المعتزلة بهذا الاسم لأن واصلا ، وعمرو بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن البصرى واستقلا بأنفسهما على تأكيد رأى القائل أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقا ، ولا هو كافر مطلقا ، بل هو وسط بين الاثنين ، غير أن هذا رأى فى تسمية المعتزلة - على حد قول أحمد أمين - يتسم بالعنف ، لأن انتقال واصل أو عمرو بن عبيد من حلقة مسجد الى أخرى ليس بالأمر الهام لتغيير أفكار فرقة اسلامية كلية ، فضلا عن أن الرواة اختلفوا ، فبعضهم ينسب حادثة الانفصال الى عمرو بن عبيد ، فى حين ينسبها آخرون الى واصل ، وهناك فريق ثالث ينسب هذه التسمية الى الحسن البصرى ، أما الفريق الرابع حينما يتكلم عن شخص فانه يقول : « كان يقول بالاعتزال ، أو هو من أهل الاعتزال » ، وهذا يدل

على أن اسم الاعتزال مذهب ذو مبادئ وليس مجرد انفصال مجلس الى آخر ، وأنه - أى الاعتزال - معنى من المعانى .

هناك رأى آخر يرى أن المعتزلة سميت كذلك « لاعتزالهم » كل الأقوال المحدثه ، بشأن مرتكب الكبائر ، ذلك أن المرجعة كانت ترى أنه مؤمن ، والأزارقة من الخوارج كانت تقول أنه كافر ، فى حين وصفه الحسن البصرى بأنه منافق وخالف واصل بن عطاء هذه الأقوال كلها قائلا : « ان مرتكب الكبائر ليس مؤمنا وليس كافرا ، وذهب عبد القادر البغدادي فى كتابه « الفرق بين الفرق » ، ان الحسن البصرى لما طرد واصل من مجلسه ، واعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم الى صديقه عمرو ابن عبيد ، فقد قال الناس أنهما قد اعتزلا قول الأمة ، وسمى أتباعهما بالمعتزلة .

يقول السمعاني فى كتابه « الأنسان » : « المعتزل نسبة الى الاعتزال وهو الاجتناب ، والجماعة المعروفة بهذه العقيدة قد سمو بهذا الاسم لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد أحدث ما حدث من البدع ، واعتزل مجلس الحسن البصرى ومعه جماعة فأطلق عليهم « المعتزلة » .

أما المسعودى^(٢٦) فيقول : « أنهم سمو بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة - فى رأيه - هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة ، وتذكر المصادر التاريخية أن كلمة اعتزال ومعتزلة واعتزل استعملت كثيرا فى صدر الاسلام بمعنى خاص هو أن يرى الرجل فئتين متقاتلتين أو متنازعتين ثم هو لا يقتنع برأى أحدهما . ولا يريد أن

(٢٦) المسعودى ، مروج الذهب .

يتورط فى النزاع بينهما سواء تعلق ذلك بعدم تكوين رأى أو أن كلا الطرفين المتنازعين غير محق ، وهناك من المؤرخين من يربط ذلك بالقتال بين على وعائشة فى حرب الجمل ، وأيضاً على الذين لم يتدخلوا فى النزاع بين على ومعاوية ، وجاء فى تاريخ الطبرى^(٢٧) ذكر كلمة المعتزلين ، ومثله فى ابن الأثير وأبى الفداء الذى يقول : « وسموا هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعه على » ويعنى هذا أن كلمة « المعتزلة » أطلقت على فئة خاصة قبل مدرسة الحسن البصرى بنحو مائة عام ، وأن إطلاقها على مدرسة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد كان أحياءاً للاسم القديم وليس ابتكاراً ، ويتردد أحمد أمين فى هذا رأى .

وكذلك الحال بالنسبة للذين لم ينغمسوا فى حرب الجمل ولم يشتركوا فى وقعة صفين ، حيث دار القتال حول مسائل سياسية هى القصاص من قتلة عثمان واستحقاق على للخلافة وعما اذا كان معاوية هو أولى بالخلافة من على .. فهذا الانقسام أدى الى وجود أحزاب سياسية متنافرة ولكنها مصبوعة بالصبغة الدينية ، وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن الطائفة أو الحزب الذى أطلق عليه اسم « معتزلة » كان يمثل فى هذه الفترة فكرة سياسية مصبوعة بالدين .

والواقع أن فرقة المعتزلة كانت أجراً الفرق على تحليل أعمال الصحابة ونقدهم ، بل والحكم عليهم ، ففرقة المرجئة تحاشت الحكم بتاتا ، فى حين كانت أحكام الخوارج قاصرة على مسائل محدودة كالتحكيم وعلى ومعاوية ، أما المعتزلة فلهم أحكامهم على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى

(٢٧) الطبرى ، الجزء الأول .

ومعاوية وعمر بن العاص ، وكانوا يتسمون بالصراحة فى ابداء آرائهم ، فواصل ابن عطاء ، كما يذكر الشهرستانى : « لم يجوز قبول شهادة على وطلحة والزبير ، وجوز أن يكون عثمان وعلى على الخطأ » وقد اعتبرت الدولة الأموية آراء المعتزلة بمثابة تأييد لها لأن نقد الخصوم ووضعهم موضع التحليل وتحكيم العقل فى الحكم لهم أو عليهم قد أزال فكرة التقديس التى كانت شائعة ومع ذلك فإن المعتزلة وضعوا معاوية وأصحابه موضع النقد أيضا ، بل أن أكثرهم قد تبرأ من معاوية وعمر بن العاص .

ويصل أحمد أمين الى نتيجة مفادها وجود شبه كبير بين فئة المعتزلة الأولى - على وعائشة وطلحة والزبير ، ثم على ومعاوية - وبين فئة المعتزلة الثانية التى رأت أن الخروج ليسوا على حق بشأن آرائهم فى التكفير والحرب والقتال ، وكذلك موقف المرجئة الذى يتسم باللين والتسامح ، فالمعتزلة - من وجهة نظره - سموا كذلك لاعتزالهم قول الأمة ومع ذلك فلم يرض كثير منهم عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ويمكن تلخيص آرائهم فى قولهم أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا بمؤمن لكنه فاسق يستحق النار ، وهم يقولون بالقدر وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلق أفعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم ونفى المعتزلة أن يكون لله سبحانه وتعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، وقولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، كما تعرضوا للأمور السياسية التى سبقت عصرهم قائلين أن الصحابة أنفسهم كان يخطئ بعضهم بعضا ويحارب بعضهم بعضا .

وعموماً فقد نشأ الاعتزال في البصرة كما سبقت الإشارة - وانتشر بسرعة في العراق ، واعتنق تعاليمها خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفي العصر العباسي تكونت مدرستان للاعتزال هما مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، وكان المعتزلة أسرع الفرق الإسلامية التي استفادت من الفلسفة اليونانية وصبغتها صبغة سياسية ، وهم الذين ابتكروا علم الكلام في الإسلام - علوم السياسة فيما بعد - من تنشيط حركة الجدل في المذاهب الدينية والآراء السياسية التي لها صبغة دينية بصفة خاصة وكان لها تأثير كبير في الأدب والسياسة بأبحاثهم ومذاهبهم العميقة .

٧ - الاسماعيلية :

تعتبر الاسماعيلية من الفرق الشيعية ، وهي الفرقة التي قالت بامامة اسماعيل بن جعفر (الصادق) - كما سترد الإشارة تفصيلاً - وفي اعتقاد أصحاب هذه الفرقة - فشأنها شأن الشيعة - ان وصاية النبي ﷺ كانت لعلی بن أبی طالب فی غدیر خم - مكان بين مكة المكرمة والمدينة المنورة - بهدف بقاء الامامة في بيت على الى يوم القيامة ، وعقيدتها تتلخص في عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله ، على ولي الله » ، غير أن الفرق بينها وبين غيرها من الفرق الأخرى : الشيعة والزيدية والامامية ، أن الامامة تكون بالنص ، أي وجوب تعيين الإمام لخلفه ، وان الامامة في الاعقاب ، فموت اسماعيل سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م في حياة ابيه جعفر (الصادق) ١٤٨هـ - ٧٦٥م يجعل النص ينتقل الى ابنه محمد ، وليس لأخيه موسى (الكاظم) ، لذلك عرفت الاسماعيلية اسماعيل ، والفرق بينها وبين الامامية الاثنا عشرين من حيث ترتيب الأئمة

فالاثنا عشرية لم تعترف بامامه اسماعيل وانتقلوا بالامامة من جعفر الصادق الى ابنه موسى الكاظم الى آخر الأئمة الاثنا عشرية على الترتيب ، فى حين جنحت الاسماعيلية الى المغالاة بسبب ما تعرض له الشيعة من اضطهاد الأمويين ، والتنكيل بهم وتعذيبهم ، فالأمويون سجنوا كل من عرفوا بالشيعة ، ونهبوا أموالهم ، وخاصة أيام عبيد الله بن زياد ومن بعده الحجاج بن يوسف الثقفى ، ويفسر هذا سبب محاربة الشيعة أيضا للأمويين بمثل ما جوربوا به وخاصة على الصعيد الفكرى ، فكلما وضع الأمويون الحديث فى فضائل الصحابة عدا عليا والهاشميين وخاصة عثمان ، فان الشيعة بدورهم يضعون أحاديث كثيرة فى فضائل على وفى المهدي المنتظر .

وسواء تعلق الأمر بالدولة الأموية أو الدولة العباسية فان تبلور الأفكار الشيعة وتطورها تقتضى وقفة للتفسير :

فقى عهد الدولة العباسية فان ظهور الحركة الشيعة الاسماعيلية قد جاء نتيجة للانهييار الذى لحق بهذه الدولة فى الفترة من ٢٣٢ - ٣٢٠ هـ بعد أن أصابها الضعف والانحلال على نحو ما سبقت الإشارة اليه تفصيلا ، وكانت من نتيجته أيضا ظهور العديد من الدويلات التى انفصلت عن الخلافة المركزية أو كادت ، بالإضافة - وهذا هو الأهم - الى « العقائد » المخالفة لمذهب الخلافة ، ومن أهمها الاسماعيلية التى كانت قد بدأت فى الظهور فى اوائل القرن الثانى للهجرة ، ثم تعاظمت فى القرنين الثالث والرابع للهجرة

لم يعط العباسيون الفرصة - لآل على - للوصول الى حقوقهم بشأن الخلافة بعد أن انهارت الدولة الأموية ، وفشلت العناصر غير العربية فى عهد

الدولة العباسية فى اعادة نفوذها التاريخى بالرغم من مؤازرتها للدولة الجديدة التى خيبت ظنونها بشأن استعادة تقاليدھا ، وأعرافھا منذ قبيل الاسلام ، وقد أدى هذا الشعور من جانب العناصر غير العربية الى نتيجة عكسية تماما ، فبدلا من استعادھا لنفوذھا بوسائل القوة والعنف ، فانھا قويت أكثر فى مجالات الترجمة ، والتدوين ، وأحياء الحضارات والعقائد القديمة ، وبذلك فقد اشبعت من غرورها القومى لاسيما تلك الحركة الفكرية التى سادت - مخالفة بذلك روح الاسلام الحقيقية - بانتشار مناقشات الفلسفتين اليونانية ، والسريانية ، والأعراف الفارسية وغيره مما كان له تأثيره السلبى على العمدة من الشعوب الاسلامية ، الأمر الذى جعل الخلافة تحاسبهم ، وتتدخل عمليا لتمد من الانحرافات ، والزندقة من مذهب أهل السنة والجماعة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية والاجتماعية هى الأخرى تأثيراتها فى ظهور حركة الاسماعيلية حيث تحول المجتمع الاسلامى من البدائية فى اسلوب الزراعة وعلاقات الانتاج ، الى مرحلة متقدمة ومعقدة فى الزراعة والتجارة ، ووجود طبقة ارسقراطية غنية من العرب أو الموالى ، الأمر الذى خلق شعورا بالمرارة بين الطبقات الفقيرة ، وعرفت لأول مرة فى التاريخ الاسلامى ما اصطلح على تسميته بجماعات المصالح التى كونها الأغنياء لحماية مصالحهم ، وفى مواجهتهم تكونت جماعات الضغط من طبقات الفقراء والمتدمرين من البؤس المحيط بهم تجاه تكتلات الأغنياء ، وكان هذا سببا فى تعقد الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، بل وظهور المغالاة بمظاهرها التى فاقت كل القيم الاسلامية ، وانعكست بشدة على البيئة

الاسلامية . فبرزت فئة تذرعت بقيام حركة سترتها بمقولة « الانتصار لحق على » ، واتخذت من الكوفة مقر لها ، باعتبارها مركز فكري وسياسي للثقافات القديمة فضلا عن كونها مقر أئمة علويين برزين التصقت بأسمائهم هذه الحركات منذ فترة والذين انقسموا في الاعم الى فريق الحنفية وفريق الحسن والحسين .

تنسب « الحنفية » الى الامام محمد بن الامام على رضى الله عنه . وقد عرف الامام محمد بابن الحنفية ، وتذكر بعض المصادر أن المختار الثقفي حين قام بحركته الثورية في الكوفة سنة ٦٦ هـ (٦٨٥ م) ادعى أن ابن الحنفية هو « المهدي المنتظر » ، وبالرغم من القضاء على المختار الثقفي ، وموت ابن الحنفية ، فقد انتشرت لحركة الشيعة المهديّة الحنفية ، وانقسم أنصارها الى فرقتين ، ورأت الفرقة الأولى أن الامام محمد لم يمت ، بل اختفى ، وأنه سيعود ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا . في حين قالت الفرقة الثانية انه قد عهد الى ابنه أبي هاشم للأمر من بعده ، وانقسم هؤلاء بدورهم الى فريقين ، الأول يقول أن أبا هاشم أوصى الى أخيه على ابن محمد ، وأن عليا هذا أوصى بالامامة الى بنى العباس ، في حين رأى الفريق الثاني أن أبا هاشم أوصى الى عبد الله بن معاوية من آل على . وفي تقويم الحركة الحنفية عموما ، فيمكن القول أنها اختفت وكذا أنصارها بعد سيطرة العباسيين على مقاليد الأمور وقيدوا تماما على الحركة وأنصارها على نحو ما سبقت الإشارة اليه .

أما فريق الامامين الحسن ، والحسين ابنا الامام على بن أبي طالب فقد لقبا بالحسنية - الحسينية ، وقد ثار من ذريتهما جماعات على الخلافة منهم زيد بن علي المعروف بزين العابدين ، وولده يحيى وعيسى من أئمة

الفرقة الزيدية فى اليمن ، ومنهم محمد بن على بن زين العابدين ، الذى نادى بنفسه اماما ، وتبعته جماعات منهم أبو منصور العجلى زعيم الفرقة المنصورية الذى قتله يوسف ابن عمر الثقفى سنة ١٢٥ هـ ولما مات الباقر انتشر أتباعه ، وذاع صيتهم ، ومنهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على المعروف بذى النفس الذكية وقد سبقت الاشارة أنه أعلن عن نفسه أنه المهدي ، ولما مات ادعى أنصاره أنه قد غاب وسيعود ، وقد كذب الامام جعفر الصادق هذه الادعاءات وأن الامامة له وحده ، وكان من أبرز أتباعه محمد بن أبى الخطاب ، مؤسس الفرقة الخطائية ، والتى تعتبر أبرز الحركات الباطنية ، حيث كانت المغالاة فى الدعوة سمة قوية فى هذه الفرقة التى وصل الأمر بها أن اعتبرت جعفر الصادق اله ، ونبى ، فأحل المحارم ، وقال بالتقية ، وأن الجنة والنار ، والصوم والصلاة ماهى الا اسماء رجال بأعينهم ، وهو صاحب نظرية « النور » و « التناسخ » ولما قتل محمد ابن أبى الخطاب سنة ١٣٨ هـ ، تحول أصحابه الى محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ، ويذكر الشهرستانى ^(٢٨) أن جعفر الصادق تبرأ من أبى الخطاب ومن ابنه ، وبموت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ انقسم أصحابه الى ثلاث فرق : الأولى فرقة النادوسية التى زعمت أنه لم يمت وسوف يرجع ، أما الفرقة الثانية فهى الاثنا عشرية وهم أتباع ابنه موسى الكاظم ، وهم المعتدلون من هذه الفرقة ، فى حين شكلت فرقة الاسماعيلية الفرقة الثالثة وأصحابها هم القائلون بامامة اسماعيل بن موسى

(٢٨) الشهرستانى ، مصدر سابق ص ١٣٦ ، وراجع أيضا : ابن حزم ، أبو محمد على بن سعيد بن حزم الأندلسى ، المتوفى سنة ٤٥٦ ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٩١ هـ / ١٩٧١ ، الجزء الثانى ص ١١٢ .

الكاظم ثم ابنه محمد من بعده .

غير أن المصادر السنية والاثنا عشرية قد نظرت باستخفاف الى اسماعيل لأنه لم يكن من وجهة نظرهم على جانب من الاستقامة^(٢٩) ، في حين رفعت الباطنية الى مرتبة الألوهية وقالت ان خليفته من بعده هو ميمون القداح ، ثم اختلفت المصادر السنية ، والشيوعية ، والباطنية أيضا في أمر خليفته ميمون وابنه عبد الله^(٣٠) .

فقد قالت المصادر السنية ان ميمون القداح من أصحاب العقائد التي تكيد للإسلام ، وانه استخلف ابنه عبد الله ، وكان واسع الاطلاع على الأديان ، برعا في الدسائس ، وقد أدعى النبوة ، واستعمل كافة الذرائع والمبررات لتحقيق غاياته الهدامة ، والبعيدة عن جوهر الاسلام بهدف هدمه وان كان ظاهريا يدعو الى مذهب محمد بن اسماعيل . أما المصادر الشيوعية فنفت عن ميمون هذه الصفات وذكرت أنه سواء تعلق به ، أو بأبنه فقد كانا سويا من المحدثين الثقات ، والمجتهدين ، في حين لم تفصح المصادر الشيوعية عن حقيقة أوضاع ميمون أو رواية جعفر ، وان كان الباحث^(٣١) قد يمكنه الحصول من ثنايا الكتب السنية ، والدرزية أن محمد بن

(٢٩) اعتمدنا في هذا الجزء على دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ص ٤٤ - ٥٥ والذي اعتمد بدوره على : الطبري ، الجزء الثالث ص ١٥٤ والجزء التاسع ص ٢٥٠ .

(٣٠) ابن النديم ، الفهرست ص ١٨٥ - ١٨٧ .

العبدادى ، الفرق بين الفرق ، مصدر سابق .

(٣١) دكتور محمد أسعد طلس ، م . س . ذ . ص ٤٩ .

اسماعيل هو الناطق السابع ، وأن ميمون القداح هو أساسه ، وأن الروايات - مع ذلك - قد اختلفت فى أمر هذا الأخير .

وربما يفسر ذلك قلة العارفين عن العقيدة الاسماعيلية المستورة ، والخفية ، ومع ذلك يمكن القول بقدر معقول من الثقة أنها مذهب شمولى فى العقيدة ، يتسم بالتسامح ، لا يعادى ولا يحارب العقائد الأخرى المناهضة للإسلام من مزدكية ، ومانوية ، وصابئية ، ونصرانية ، ويهودية ، كذلك فإن مذهب الاسماعيلية يعتبر مذهباً اشتراكياً فى الأموال ، لكنه مذهب باطنى بمعنى أن لكل ظاهر عند أصحابه باطناً مستوراً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، وأنه توجد معانى باطنية مستورة فى الكتاب والسنة قياساً على جميع ما استعبد الله به عباده ، غير أن هذا الباطن لا يعرفه إلا الأئمة المعصومون ، وهم يقسمون تاريخ البشرية إلى حلقات بنوة سبعة ، وتفسير ذلك أن العقل الكلى يتجسد بين حين وآخر فى شخص معين يعرف بالنبي الناطق ويخلفه سبعة أئمة يعرف كل منهم بالصامت ، وأن نظام التطور الكونى بهذا المعنى يستلزم أن كل نبي هو الذى يعلم الناس الحقائق الروحية ، وأن آخر حلقة نبوة هى حلقة محمد بن اسماعيل وهو خاتم الأنبياء .

والأئمة عند الاسماعيلية لا يكونون ظاهرين ، فهم مستترون غير أن منهم من يظهر ، وتقع سلسلة الأئمة المستترين بين « محمد بن اسماعيل » وبين « الأئمة الفاطميين » . ولكن لا بد من وجود دعاة ظاهرين يدعون ويشيرون بظهور الامام المستور ، والأئمة المستورون صنفان ، الأول يتتمون جسمانياً إلى أبناء على ، فى حين أن الصنف الثانى هم الروحانيون ،

وقد قسم المستشرق البريطاني برنارد لويس^(٣٢) شجرة الاسماعيلية بين العلويين (المستقرين) ، والقداحين (المستودعين) ، ويبدأ العلويون بمحمد بن اسماعيل ، فأحمد ، فالحسين ، فعلى (المعل) ، فمحمد (القائم) ، فى حين يبدأ القداحون (المستودعون) بميمون ، فعبد الله ، فمحمد ، فالحسين ، فأحمد ، فسهيد . غير أن مستشرقاً آخر يفند هذه الأفكار، فى حين يناقشها باستفاضة أحد المؤرخين^(٣٣) المسلمين المحدثين .

أما المؤرخ الاسلامى الذائع^(٣٤) الصيت عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى البغدادى ، فانه يذكر فى مؤلفه القيم الفرق بين الفرق أن زعماء الباطنية يرون أن الآله قد خلق النفس ، فالاله هو الأول ، والنفس هى الثانى ، والاله والنفس هما مدبراً هذا العالم ، وربما يمكن تسميتهما بالعقل والنفس ، ويضيف البغدادى قائلاً : ان هذا القول بعينه هو قول المجوس ، وأن الباطنية قد عبرت عن الصانعين بالأول ، والثانى ، وغير المجوس عنهما بيزوان واهرمين .

ويرى اخوان الصفا - وهم شيعيون باطنيون - طبقاً لما رواه البغدادى أن

(٣٢) المرجع نفسه نقلاً عن برنارد لويس - Lewis Bernard, The Origine of Ismail-

ism, Cambridge, 1940. الترجمة العربية ص ١٦٢ .

(٣٣) راجع فى تفصيل ذلك :

Ivanov : A Gide to Ismaili Culterative, London 1933.

Ivanov : The Rise of the Fatimide, Calecutta, 1942.

(٣٤) المرجع نفسه نقلاً عن الدكتور عبد العزيز الدورى ، دراسات عن العصور العباسية

التأخرة ، بغداد ، بدون تاريخ اصدار ص ص ١٤١ - ١٤٤ .

الفلاسفة هو ما يقولون عليه . فى حين يقول الشهرستاني أن الباطنية القديمة خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، ويقول دوزى : « ان ميمون مؤسس التعاليم الباطنية والاسماعيلية ، كان يبحث فى أنصاره بين الثنوية والوثنيين ، وتلاميذ الفلسفة اليونانية وأن الأئمة ، والأديان ، والأخلاق ليست سوى ضللا ، وأن العامة ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ، الا أنه كان يستعين بهم ، ولا يصدمهم ، وكان دعائه يظهرهم فى أثواب مختلفة ، ويحدثون كل طبقة باللغة التى يفهمونها .

ومن الثابت أن أخوان الصفا قد ظهوروا فى القرن الرابع للهجرة ، وكان منهم - كما حدث أبو حيان التوحيدى - زيد بن رفاعة وأبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الرنجاني ، والعوفى ، وغيرهم ، وكانت هذه الجماعة قد تصافت بالصدقة ووضعوا مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضللال ولا سبيل الى غسلها الا بالفلسفة ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال - وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها ، وأفردوا لها فهرستا ، وسموها رسائل أخوان الصفا ، وكتبوا فيها أسماءهم ، وبشوا فى الوراقين ، وهبوا للناس .

والواقع أن المصادر تختلف عند التعرض لفكر أخوان الصفا ، فبعض هذه

المصادر ترى أنهم شيعة اسماعيلية ، وبعضها الآخر ترى أنهم ليسوا شيعة اسماعيلية .

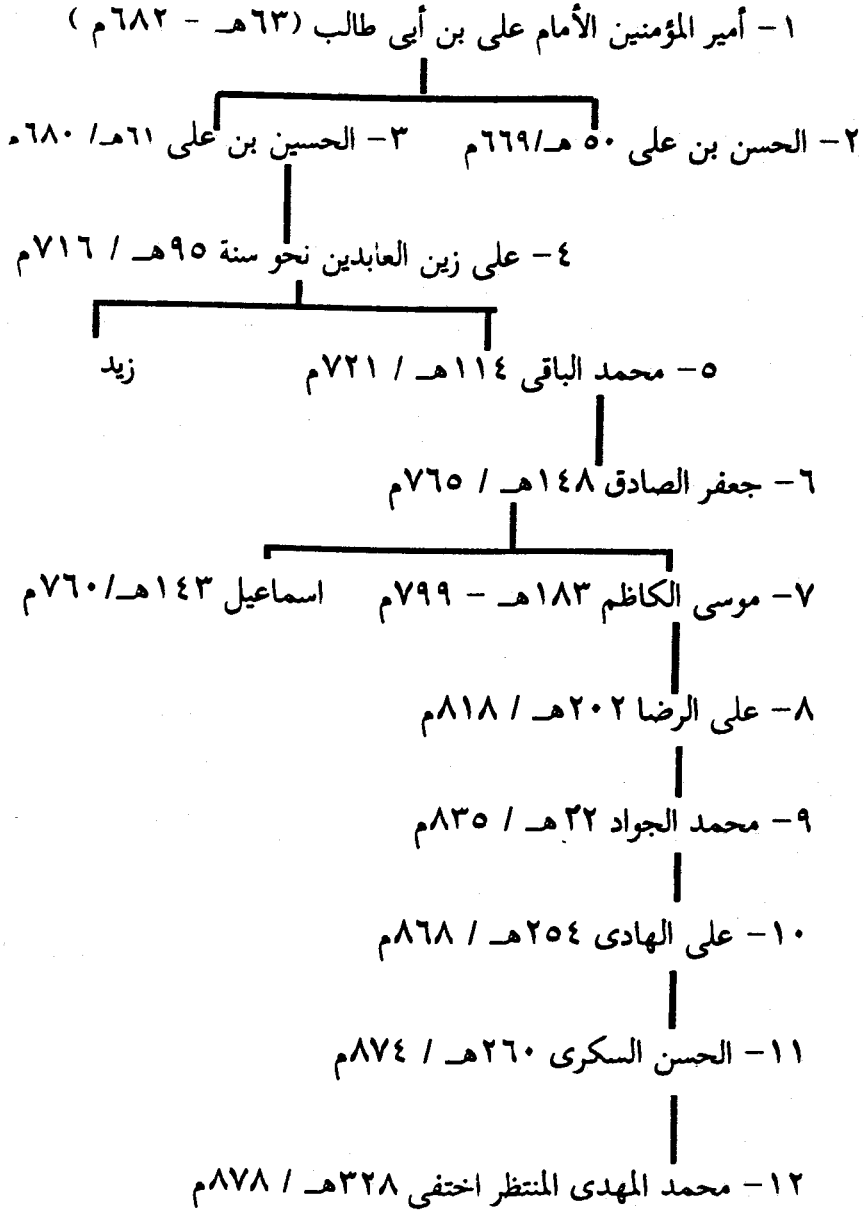
وعموما فإن المتتبع لحركة الاسماعيلية ، وتطورها ، ليلمس حسن تنظيمها ، وقوة الدعاية لها ، وقد تظاهر دعائها بانتمائهم الى إحدى المهن ، فاذا ما شعروا بالطمأنينة والطاعة والزهد فى الدنيا والتقوى فيمن أمامهم ، فانهم يحدثونهم عن آل الرسول وما تعرضوا اليه من مظالم مستغلين عواطفهم الجياشة حتى يعتنقوا عقيدتهم ، ويشمل ذلك أيضا النصارى والصابئين واليهود ، ويذكر ابن النديم^(٣٥) فى الفهرست أن دعاة الاسماعيلية قد قسموا كتبهم درجات ، فكتاب البلاغ الأول للعمامة ، وكتاب البلاغ الثانى لنفر أفضل من العمامة قليلا ، والبلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة ، والرابع لمن دخل المذهب سنتين ، والخامس لمن دخله ثلاث سنوات ، والسادس لمن دخله أربع سنوات ، أما الكتاب السابع فيحتوى على نتيجة مذهب الاسماعيلية والكشف الأكبر ، ويضيف البغدادى^(٣٦) فى الفرق بين الفرق قائلا : انهم - أى الاسماعيلية - قد اضطروا بمرور الزمن الى جعل درجاتهم تسعا بدلا من سبعة ، تسهيلا للدعوة ، وتقريبا للأذهان .

(٣٥) ابن النديم ، الفهرست ص ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .

(٣٦) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٨٤٨٤ وراجع بتفصيل آراء هؤلاء الدعاة فى دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ص ص ٥٣ - ٥٥ .

الشجرة العلوية

الأئمة الاثني عشر



تختلف المصادر حول نشأة حركة القرامطة وتطورها ، فهناك رواية تذكر أنه بعد وفاة عبد الله بن ميمون ، فقد قام ابنه أحمد بالأمر من بعده ، وبعث بالحسين الأهوازي الى الكوفة ، وفي طريقه شخصا اسمه حمدان « قرمط » لمذهبه ، فاستجاب ، وأنزل الحسين في داره ، وأخذ الحسين يدعو الناس ، فاستجاب له أهل المنطقة ، ولما حضرته الوفاة عهد بالأمر من بعده الى حمدان ، أما الرواية الأخرى فتذكر أن رجلا متعبدا من أهل الأهواز قدم الكوفة ، وأخذ يدعو لآل علي ، فأجابه كثيرون ، ورتب للدعوة اثني عشر نقيبا ، وفرض على اتباعه خمسين صلاة بدل خمس ثم رحل الى الشام ، ونزل في سلمية ، واستخلف حمدان قرمط ، وفي الروايتين السابقتين يمكن الوصول الى نتيجة مفادها أن الأهوازي قد تمكن من نشر دعوته في الكوفة ، وعند وفاته ، عهد بالأمر الى حمدان الملقب بقرمط .

وكلمة قرمط واليهما ترجع كلمة القرامطة ، هي كلمة اختلفت الأقوال^(٣٧) فيها ، فالباحثون العرب يرون أن هذه الكلمة عربية في حين يراها المستشرقون غير عربية بل ويختلفون في مصدرها ، ولعل في اختلاف

(٣٧) يفسر البغدادي في الفرق بين الفرق قول العرب قرمط الرجل في مشيته اذا قارب الخطوات ، ويتفق معه النديم في الفهرست ص ١١٧ في حين يرى المستشرق ايفانوف أن كلمة القرامطة كلمة عراقية جنوبية ، وأنها مأخوذة من « كرامته » أو « كرموته » ، وإنها عبرت ، فقيل قرمط ومعناها الفلاح أو القروي ، أما بروكلمان فيرى أنها كلمة آرامية ، ومعناها « يعلم » « سرى » ، في حين يذكر دى ساس في مقدمة كتابه عن الدروز وعلتهم ان لفظ « قرامطة » هي لفظة نبطية وان « كرميته » معناها الأحمر الأعين لأن حمران قرمط كان نبطيا من أهل السواد ، راجع =

أراء الباحثين حول حقيقة هذه الكلمة ونسب القرامطة ما يوضح غموض نشأة هذه الفرقة ، وهو ما يكاد يجمع عليه الشهرستاني ، والبغدادى ، وابن حزم ، أما المؤرخ المسلم أبو عبد الله بن رزام (أو زرام) ، وهو مؤلف سنى عاش فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، فقد نقل عنه فى مؤلفاته عن العقائد الاسلامية أن حركة القرامطة وحركة الاسماعيلية هما من معدن واحد وأم ميمونا القداح ، وابنه عبد الله اللذين سبقت الاشارة اليهما عند استعراض حركة الاسماعيلية ، هما اللذان أديا دورا هاما فى خلق مذهب القرامطة ، فعندما سار عبد الله بن ميمون القداح الى البصرة قادما من الأهواز أخذ يدعو لمحمد بن اسماعيل ، وكان معه رجل يدعى حسين الأهوازي ، ولما طارده العباسيون ، فر الى « سلمية » ، واتخذها مقرا له ، وبعث بدعائه الى العراق ، فأجابه رجل من سكان « الطالقان » فى سنة ٢٦١هـ يدعى حمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، حيث قوى أمر قرمط ، وذاع صيته ، واستقطب الكثيرين حوله ، ومنهم سعيد الحسن ابن بهرام الخبائى بالبحرين والذى قام مذهب القرامطة على يديه وصارت البحرين مقر الدعوة ومركزها .

أما الطبرى وابن النديم فيصفان اسلوب حمدان قرمط بالمهارة والذكاء والفتنة فى دعوته لحركته ، كما وفق الى معاونين يتسمون بالنشاط ساعدوا كثيرا فى نشر هذه « الدعوة » بل أن منهم من ألف كتباً فقهية

== راجع : دكتور محمد أسعد طلس ، م . س . ذ .

Ivanov : A Gide to Ismaili culterative, op. cit. pp. 68 - 70 .

- كارل بروكلمان ، ترجمة تتيه فارس ومنير البعلبكي ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، الجزء الثانى ص

. ٧٣٠

مثل الفقيه عبدان^(٣٨) ، وأبو سعيد الخبائي الذي أشرف على الحركة في إيران ، ونجح في استقطاب سكان إيران وعبدان الى جانبه حينما طالب بحقوق الحسين ثم وضع الأسس المنظمة للدعوة وخاصة من ناحية التمويل ، ففرض ضريبة أطلق عليها ضريبة « الفطرة » ، ثم ضريبة « الهجرة » وضريبة « البلغة » ، ومن الغريب أن أتباعه قد زاد عددهم وخاصة من الأنباط ، والفلاحين ، والصناع ، والبدو ، ولما قوى سلطانهم أخذ يث فيهم روح الثورة على جميع من يخالفهم في العقيدة ، وأباح الحرمات ، وأسقط عنهم الفروض الشرعية ، واستطاع بدعوته الى الاشتراكية في المال أن يستميل أتباعا أكثر من الفقراء الذين خدعوا وحملوا السلاح في وجه الدولة العباسية سنة ٢٨٤هـ حيث فشلت جهود الخليفة العباسي في قمعها لأنها كانت قد استقطبت الكثيرين في بغداد ذاتها وأصبحوا من أنصار الحركة ومؤيديها كما يقول^(٣٩) ابن الأثير ، وفي سنة ٢٨٧هـ قام القرامطة بتمرد مسلح في المنطقة الواقعة بين واسط والكوفة ، ويذكر الطبري^(٤٠) أن القرامطة قتلوا الكثيرين من المسلمين ، وأحرقوا منازلهم ، وجاء رد فعل الخليفة العباسي المعتضد عنيقا ، حيث بعث اليهم سنة ٢٨٨هـ بجيش تغلب على القرامطة وأسرقادتهم ، وقد شرح كل من ابن الأثير والمسعودي هذه الوقعات وصولا الى سنة ٣١٦هـ حيث سار جيشي القرامطة بقيادة أبو طاهر سلمان بن أبي سعيد الخبائي الى البصرة وقتل بأهلها ، ونهب المدينة ، وسار في طرق الحج فأسر عددا كبيرا من الحجاج ،

(٣٨) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦٤ - ٢٦٩ .

(٣٩) إبي الأثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤٠) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الحادي عشر ص ٢٣٥ - ٢٦٨ .

ثم توجه الى البصرة ، والكوفة وفتك بأهلها ، وقهر جيش الخليفة ، وبلغت أخباره بغداد حيث خشى أهلها قسوة القرامطة وفضاعة جرائمهم لكن أبا طاهر سيطر على الأنبار والجزيرة ودخل قسم كبير من سكانها في نحلته^(٤١) .

وفي سنة ٣١٧هـ سار أبو طاهر بجيشه الى مكة فنهب الحجاج واقتلع الحجر الأسود وملأ المسجد الحرام بالقتلى . وغضب العالم الاسلامي غير أن أبا طاهر لم يعبأ بهذه الاحتجاجات وصيحات الاستنكار ، وظل على فسادهِ حتى مات ودفن بالكوفة ، وبقي الحجر الاسود بعيدا عن مكة قرابة ثلاثين سنة في عاصمة القرامطة بالاحساء .

وفي الشام ، يذكر المؤرخون اسم القرامطة لأول مرة سنة ٢٩١هـ حيث تمكن زكريا بن المهدي الكوفي - وهو أحد دعاة قرمط - من أغواء بني كله ، فأجابه بعض بطونها الى اعتناق المذهب ، وبايعوا يحيى بن زكريا ابن المهدي الكوفي الذي زعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وسار بأصحابه الى الرصافة فأحرقوا مسجدها وفتكوا بمعظم أهلها ، ثم دخلوا الشام وهزموا جيش أحمد بن طولون ، وحاصروا دمشق ، ويذكر الطبري^(٤٢) أن أمرهم قد اشتد في الشام في حين أخذ نفوذهم ينحسر عن العراق ، حيث أعلن حمدان قرمط انفصاله عن حركة القداحي في سلمية لأن ابن القداحي وهو حسين لا يدعو لمحمد بن اسماعيل ابن جعفر صاحب الزمان ، وإنما يدعو لأبيه عبد الله القداح ،

(٤١) دكتور محمد سعيد طلس ، ص ٥٩ - ٦١ .

(٤٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، لجزء الحادي عشر ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

وأدرك حمدان قرمط أن القداحين قد خدعوه ، فقطع صلته بهم ، وانفصل عنهم وتلى ذلك اختفاء حمدان ذاته كما تذكر المصادر ^(٤٣) .

ترتب على الخلاف الذى وقع بين قيادات حركة القرامطة ، أن فقدت الحركة كثيرا من حيويتها ونشاطها ، وانتقلت زعامتها الى الشام بقيادة زكريا بن المهدي ، الذى تلقبه المصادر بـ زكرويه ، وبموته خلفه أبناؤه يحيى ، وأبو القاسم محمد ، وأبو العباس الحسين ، وأبو الفضل محمد الأصفر ، وكانت الزعامة ليحيى الذى ادعى أنه من نسل الامام محمد ابن اسماعيل ، وأنه صاحب المعجزات ، ويذكر الطبرى ^(٤٤) أنه استغوى الأعراب بحيله وأن أمر القرامطة قد قوى فى عهده ، ولما مات خلفه أخوه الحسين الذى ادعى هو الآخر أنه المهدي المنتظر ، واشتدت سيطرته على الشام فبعث اليه الخليفة العباسى المكتفى سنة ٢٩٠ هـ بجيش ودارت وقعات قرب حلب ، توجه بعدها الحسين الى دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه له ، ثم دخل حمص ، وحماة ، والمعة ، وسلمية التى كانت مقر القداحين وفتك بأهلها ، ولما ضاق أهل الشام به استنجدوا بالخليفة العباسى فى بغداد ، فبعث اليهم بجيش كبير التقى بجيش القرامطة فى المنطقة الواقعة بين حماة وسلمية ، فتنفرق القرامطة وقتل قائد جيشهم ، غير أن الجيش تجمع ثانية وأغار على مدن الشام ، وعاث فى فلسطين فسادا ثم دخل الصحراء ^(٤٥) بعد اضمحلال نفوذه فى الشام ، وأخذت الحركة

(٤٣) دكتور محمد أسعد طلس ، ص ٦٢ نقلا عن:

De Goge, Memoire sur les carmathes de Bahrain, London 1882
pp. 66 - 68.

(٤٤) النصرى . الجزء الحادى عشر ، ص ٣٨٠ .

(٤٥) دكتور محمد أسعد طلس ص ٦٢ .

تضعف شيئا فشيئا . ويجمل طلس^(٤٦) أفكار هذه الحركة وتطبيقاتها في تنظيمها لأحوال الفلاحين ، وأرباب الصناعات الصغيرة ، وتأمرها على الدين الاسلامى وتقاليده ، والانعقاد من فكرة النبوات ، ونشر الفلسفة المانوية ، واليونانية وما إليها ، والاكتفاء بفكرة الامام المستتر وهو ما يمكن استخلاصه مما سبقت دراسته فى رسائل اخوان الصفا ، وبايجاز فان حركة القرامطة قد قامت فى بيئة معينة ، لها ظروفها الخاصة ، كذلك كان للدوافع الاقتصادية ، والاجتماعية أثرها فى قيام هذه الحركة وانتشارها ويمكن تلمس ذلك من خلال المبادئ « الاشتراكية » التى طبقتها على الفقراء مما جعل الكثيرين منهم ينضون تحتها بتأثير دعاياتها .

– الفرق الاسلامية فى بلاد السند والبنجاب :

سبقت الاشارة لتطور نشأة الفرق الاسلامية حيث كان الخلاف بين المسلمين حول الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وانقسامهم الى رأيين : الأنصار يرون أن يكون الخليفة منهم فى حين رأى المهاجرون أنهم أولى بالخلافة وتمت البيعة أخيرا لأبى بكر الصديق فى عدم حضور على ابن أبى طالب الذى تأثر فى عدم اشتراكه فى المناقشة ، وتكون رأى ثالث هو أن تكون الخلافة فى بيت النبى ﷺ . وظلت هذه النظريات تتعارض فيما بينها فى العصور المختلفة ، ولكن عدل أبى بكر وعمر جعلها تخمد ولم تثر العصبية القبلية فى عهدهما وصلا الى عهد عثمان بن عفان وهو أمرى استعان بالأمويين وكان أكثر معاونيه منهم ، وبعد قتله بايع كثير من المسلمين عليا غير أن بعض الصحابة الكبار خرج عن هذه المبايعة مثل طلحة والزبير

(٤٦) المرجع نفسه ص ٦٣

ومعاوية بن أبي سفيان والصقوا تهمة أن لعلى بن أبي طالب ضلعا فى قتل عثمان ، وشهدت العصور التالية تأسيس فرق اسلامية كبرى هى الشيعة والخوارج والمرجئة على نحو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا .

انقسم الخوارج الى فرعين : فرع بالعراق بالقرب من البصرة وقد استولوا على كرمان وبلاد فارس ، والفرع الثانى بجزيرة العرب وقد استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن ، وقد حاربت الدولة الأموية الفريقين معا مما جعلهم - أى الخوارج يخرجون فى مجموعات كبيرة الى البلاد المفتوحة كبلاد السند ، وقد ضعفت قوة الخوارج فى عهد الدولة العباسية التى قضت عليهم تدريجيا .

وفى بلاد السند والبنجاب فان المصادر التاريخية تضطرب حين تتعرض لتاريخ الخوارج هناك ، وتذكر احدى الروايات أن جماعة من العرب هم «العلافون» قد فروا هاربين من الحجاج بن يوسف الثقفى ولجأوا الى الملك^(١٧) داهر ملك بلاد السند الذى رحب بهم حيث كانوا خمسمائة فارس مقاتل ورأى أن يتخذ منهم قوة لمحاربة العرب فى اقليم مكران ببلاد السند حيث حارب حكام السند الولاة العرب نحو نصف قرن منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، ولم يمض وقت قصير حتى قام العلافون بالفتن السياسية ضد الولاة الأمويين للقضاء على الولاية العربية الأموية بتأييد عسكري من الملك داهر السندى حتى استولوا على الحكم فى مكران وظلوا يحكمونها بضع سنوات هربوا بعدها - خوفا من جيوش الحجاج بن

(١٧) سلازى ، فوح البلدان ، الجزء الثالث من ص ٥٣٠ - ٥٣٥ .

ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع .

يوسف الثقفى - الى داخل بلاد السند ثم ساعدوا الملك داهر سنة ٨٧هـ - ٧٠٦م فى إحدى معاركه الهامة لمهارتهم القتالية ، وكونوا فرقة مستقلة فى جيش السند وكان محمد بن الحارث العلافى أكبر قادتهم أحد كبار المستشارين العسكريين للملك داهر حتى مقتل الملك داهر سنة ٩٢هـ أثر استيلاء محمد بن القاسم الثقفى على بلاد السند .

وتذكر المصادر أن كثيرا من زعماء الخوارج كانوا يلجأون الى بلاد السند هروبا من الأمويين ، وقد عمل الخوارج فى السند على أضعاف الحكم الأموى باستمرار للقضاء عليه ، وصولا الى العصر العباسى حيث كانت الخوارج معروفة عند العباسيين لأنهم عملوا معهم ضد الدولة الأموية ، وكان بعض الخوارج من عمان يحضرون الى بلاد السند لكونها بعيدة عن نفوذ العباسيين ومنهم - على سبيل المثال - حسان بن مجاهد الهمداني الذى حضر الى بلاد السند عن طريق البحر سنة ١٤٢هـ ، لكنه اضطر للعودة الى الموصل لأن والى العباسى عمر بن حفص لم يعط له الفرصة لتحقيق مهمته فى وجود مؤيدين لدعوته فى بلاد السند .

بعث عمر بن حفص والى العباسى فى السند بعبد الله الأشتر ابن محمد الأموى^(٤٨) الى البصرة لشراء خيول والتوجه بها الى بلاد السند بحرا على أنهم تجار خيل ، غير أن الغرض الحقيقى كان القيام بالدعوة للشيعه فى بلاد السند^(٤٩) ، ولما وصلوا للمنصورة أكرمهم واليها عمر ابن حفص ،

(٤٨) حول نشأة الشيعة عموما راجع :

- السيوطى ، التفسير والمفسرون ، الجزء الثانى ص ص ٢ - ٧ .

(٤٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ص ص ٢٨ - ٣٢ .

ولما أخبره أحدهم بالحقيقة ، فقد خاف عبد الله الأشتر عنه سماعه به يقتل أبيه محمد العلوي وقال لعمر بن حفص : « ان أمرى قد ظهر ودمى فى عنقك » ، فبعث به عمر بن حفص الى أحد ملوك السند واجتمع حوله ما يقرب من خمسمئة شخص من علماء الزيدية ، ولما علم الخليفة المنصور بذلك عزل عمر بن حفص عن ولاية بلاد السند .

ومن الأرجح أن عبد الله بن الأشتر قد قدم الى بلاد السند فى سنة ١٤٥ هـ وهو ما يعتبر بداية الحركة الشيعية فى هذه البلاد وبعد مقتله انتشر أصحابه وأتباعه البالغ عددهم أربعمئة من علماء الزيدية فى مختلف المناطق ببلاد السند ، ثم ظهر عبد الله المهدي يدعو للخلافة فى بلاد الشام بعد ذلك بحوالى قرن ، وقد قويت سلطته الروحية والسياسية والمادية فبعث بأحد دعائه الى بلاد السند حيث مركز الشيعة بالشام الذى يصدر تعليماته الى الدعاة وبعد استيلاء عبد الله المهدي على افريقيا صارت مدينة القيروان مركزا لدعوته حتى بنى مدينة المهديّة التى صارت عاصمة للدولة الفاطمية ، وكان دعاة الشيعة يأتون الى بلاد السند والمثلتان ويعودون بعد أداء مهمتهم فى الدعوة الى المذهب الشيعى .

نجح الشيعة فى تكوين دولتهم فى شمال افريقيا ، وامتدت دعوتهم لمذهبهم فى الولايات التابعة للخلافة العباسية مثل ايران وتركستان والسند وغيرها ، ويرى الطرازى ^(٥٠) أن الشيعة يبدو أنهم لم ينجحوا فى الدعوة لمذهبهم فى المنصورة ببلاد السند لسنوات طويلة بسبب وجود العلماء والقواد من أهل السنة المخالفين لآراء الشيعة ، ومن ثم وجه الشيعة اهتمامهم الى مناطق أخرى أهمها اقليم المثلتان حيث تكونت قوة

(٥٠) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ٩٨٣ .

كبيرة هناك فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتجدد الاشارة أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قد أرسل داعيا باسم حلم بن شيبان متقللا بين مصر والمثلتان لمدة ثمانية عشر عاما لنشر دعوة الشيعة ، وهو قائد حملة الخليفة الفاطمى الى المثلتان للاستيلاء عليها واسقاط الدولة العربية السنية بأقليم البنجاب سنة ٣٧٥هـ حيث كان حلم بن شيبان أول حاكم شيعى فى المثلتان.

وفى سنة ٣٩٦هـ قام السلطان محمود الغزنوى بالحملة على المثلتان وقضى على دولة الشيعة فيها بعد أن خالف الحاكم الشيعى هناك عهده معه سنة ٣٩٦هـ حيث زالت الدولة الشيعية فى المثلتان سنة ٤٠٢ هـ لتحل محلها الدولة السنية التابعة للدولة الغزنوية . أما المنصورة فقد سبقت الاشارة أنها كانت فى أيدي الحكام السنيين من العرب وهم من الأسرة الهبارية حتى سنة ٤٠٢هـ غير أن الشيعة الذين طردوا من المثلتان سنة ٤٠٢هـ قد جمعوا شتاتهم ونجحوا فى الاستيلاء على المنصورة حتى قام السلطان محمود الغزنوى بحملته على بلاد السند سنة ٤١٦هـ وقضى على الحكومة الشيعية فى المنصورة وقامت محلها دولة سنية تابعة هى الأخرى للدولة الغزنوية ، وعموما فقد قامت للشيعة دولتان فى اقليم البنجاب الأولى فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى المثلتان واستمرت نحو سبعة وعشرين عاما ، والثانية فى المنصورة ببلاد السند ودامت نحو أربعة عشر عاما ، وبالرغم من زوال هاتين الدولتين فان دعوة الشيعة استمرت فى بلاد السند والبنجاب وزاد نفوذهم هناك .

الفصل الخامس

سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة

* ما قبل السقوط .

* شتون الخلافة والحركات الباطنية .

* ظهور دويلات جديدة

١ - السلاجقة .

٢ - الأتابكية .

٣ - الخوارزم .

الفصل الخامس

سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة

- ما قبل السقوط :

انصرف الخلفاء العباسيون عن تصريف أمور الحكم ، وانشغلوا بتوافه الأمور، في حين قوى شأن سلاطين السلاجقة ، كما سبقت الإشارة ، فلما ضعف هؤلاء ، فقد انعكس ذلك على كافة شئون الدولة ، داخليا وخارجيا ، فذلت (بضم الذال) الخلافة ذلا واضحا ، وتسلبت الممالك على خلفائهم ، فانزوى الخلفاء فى قصورهم يعيشون فى ترف ، ولم يستطع الخلفاء مواجهة رغبات السلاجقة أو وزرائهم ، وجاء انحلال الدولة السلجوقية ذاتها ايذانا بسقوط الخلافة العباسية .

وكان من نتائج ضعف الخلافة ، أن قوى الحركات الباطنية عموما وأهمها الاسماعيلية - على نحو ما سبقت الإشارة اليه - وفرضت هذه الحركات أفكارها التى لا تتواءم والقيم الاسلامية الحقيقية ، ونجحت فى تقويض أركان الدولة العباسية ذاتها ، وتذكر المصادر أن الخلفاء الفاطميين فى مصر قد أدوا دورا كبيرا فى نشر الاسماعيلية ، وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة ال بالقدر الذى أدى الى سقوط الدولة ، وسوف نرى فى موضع لاحق كيف أثر ضعف الخلافة على تقوية الصليبيين وسيطرتهم على بلاد الشام ، حتى تمكن صلاح الدين الايوبي - بشكل أو بآخر - من القضاء على الفاطميين واستعادة الخلافة الاسلامية لبعض هيبتها .

وشهدت الفترة السابقة على سقوط الدولة العباسية سيطرة العناصر غير العربية وخاصة الأعاجم على زمام الأمور ، ويصف المؤرخ الذائع الصيت ابن خلدون هذه الفترة قائلا ^(١) : « وهذا ما وقع لبنى العباس ، فان عصبية العرب ، كانت قد فسدت بعد دولة المعتصم وابنه الواثق ، واستظهاهم بعد ذلك ، انما كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن أعمال بغداد ، حتى زحف اليها الديلم وملكوها ، ثم صار حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وزحف أخيرا التتار ، فقتلوا الخليفة ومحووا اسم الدولة » .

ويقارن طلس ^(٢) الأوضاع المخزية التى انتهت اليها الدولة العباسية يوم سقوط بغداد ، بالأوضاع الكريمة التى كانت عليها الدولة الاسلامية حينما سار الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدون والأمويون لغزو العالم وفتحته ، حيث يتضح مدى الذل الذى حاق بهؤلاء الخلفاء العباسيين والسقوط الاجتماعى والخلقى الذى انحدروا اليه . أما صاحب الفخرى فيصف أحوال بغداد ، وتحذير ابن العلقمى للمستعصم من الاستمرار فى غيه قائلا : « كان المستعصم رجلا متدينا ، لين الجانب ، عفيف اللسان ، الا أنه كان مستضعف الرأى ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمر المملكة ، غير مهيب فى النفوس ، غير مطلع على حقائق الأمور ... وكان أصحابه جهالا ومن أرذال القوم الا ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى ، فانه كان

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار من ١٨٢ - ١٨٤ .

(٢) دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق من ١٥٦ - ١٥٧ .

من أعيان الناس ، وعقلاء الرجال ، ... وفى أواخر إيامه ،
قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة هولاكو ،
فلم يحرك منه ، ... وكان كلما سمع عن السلطان من
الاحتياط والاستعداد شىء ، ظهر من الخليفة نقيصه من التفریط
والاهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك ، ولا يعرف هذه
الدولة .

أما أحوال الأمة الاسلامية وخاصة فى آسيا ، فقد سادها الانقسام
والتجزئة ، واختلاف وجهات النظر بين العرب ، والترك ، والديلم ، والروم ،
والفرس ، واليهود ، والنصارى . وساءت معاملة الخلفاء لأهل الذمة ،
وفقدوا القيم الاسلامية والاخلاقية ، فاذا أضفنا الى ذلك دور الفرق
العقائدية الهدامة من قرامطة وباطنية فان ذلك يفسر تردى الأوضاع لهذه
الدولة الى المدرك الأسفل خاصة بعد اضطراب الأحوال الاقتصادية وانتشار
الفقر وفساد الخلفاء وعائلاتهم مما كان له تأثير سيىء على المقومات
الخلقية .

- شئون الخلافة والحركات الباطنية :

لما مات الخليفة القادر سنة ٤٢٢ هـ ، بويع ابنه عبد الله أبو
جعفر الذى لقب بالقائم بأمر الله ، واستمرت فترة خلافته
ثلاث وأربعين عاما ، وكان والى العراق فى عهده من بنى
بويه - جلال الدولة - غير حازم فاضطربت أحوال الخلافة ،
وساد الفساد ، ويموت جلال الدولة ، تولى ابن أخيه سلطان

الدولة ولاية العراق ولقبه الخليفة بمحيى الدولة واستمر الفساد في عهده حتى موته ، فخلفه ابن خسرو فيروز الى أن طرد بواسطه طغرك بك السجوقي ، وقضى على دولة آل بويه^(٣) كما سبقت الاشارة - وابتدأت الدولة السلجوقية التى اتخذت مرد عاصمة لها ، ثم توسعت حدودها فشملت معظم شرق الدولة العباسية .

وكانت بغداد هى الأخرى من الدولة الفاطمية الشيعية ، فأسرع الخليفة القائم ، واستجد بالسلاجقة السنيين لحمايته من أعدائه الفاطميين وأمر الخطباء فى المساجد بالدعاء لطغرك بك سنة ٤٤٧هـ ، وأصبحت بغداد بذلك ممهدة لدخول طغرك بك ، فسار اليها ، واستقبله الخليفة فى نفس العام حيث توثقت العلاقة بين العباسيين والسلاجقة ، حيث ترتبط هذه الفترة بالفريقين معا ، وبموت طغرك بك خلفه عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن سلجوق ، وكان حازما ، فتحسنت أحوال الدولة فى عهده ، ولما مات ألب أرسلان خلفه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه وفى فترة حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧هـ وخلفه حفيده أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن الخليفة القائم ، وفى عهده توسعت رقعة البلاد وامتدت من الصين الى اليمن ، وشملت سمرقند والمشرق وخلفه ابنه أحمد المستظهر بالله ، وكانت أيامه

(٣) راجع فى تفصيل ذلك : الماردينى ، عبد السلام بن عمر بن محمد ، المنوفى سنة ١٢٥٩هـ ، تاريخ ماردىن ، (مخطوط) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة

أيام هدوء وسكينة لولا أن ابن ألب أرسلان صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة ، وتوالت الوقعات والفتنة داخل آل البيت السلجوقي ذاته في الفترة من سنة ٤٩٢هـ الى سنة ٤٩٧هـ ، وشهدت هذه الفترة أحداثا هامة على صعيد العلاقات السياسية والاسلامية حيث أغار الفرنج على المملكة الاسلامية ، وجاءت فترتا خلافة المستظهر بالله ، فالمسترشد بالله لتشهدا أحداث خطيرة في آسيا الاسلامية برمتها ، وتمثلت هذه الاحداث - داخليا - في تصاعد نفوذ الباطنية ، وخارجيا في تحدى العالم المسيحي الغربي الذى ظهرت بواذره في الحروب الصليبية .

شهدت الفترة من سنة ٥١٢هـ الى ٦٤٠هـ تعاقب حكم العباسيين السلاجقة معا ، بدءا بالمسترشد بالله ومرورا بالراشد بالله منذ سنة ٥٢٩هـ والمقتفى لأمر الله سنة ٥٣٠هـ . يورد الفخرى تفصيل أحداث هذه الفترة التى انتهت بأقول نجم السلاجقة ، وتولى أمراء الخليفة العباسى أقاليم املاكهم فى حصن كيفا ، وماردين ، ودمشق ، والموصل ، وحلب ، وسنجار ، والجزيرة ، واربل ، وأذربيجان ، وفارس ، ولورستان حيث قامت فى هذه المدن دويلات متعددة من أسلاب الدولة السلجوقية التى كان قد أسسها طغرل بك والى أرسلان ، ويلاحظ أن المقتفى بالله استمر مستقلا بالعراق حتى وفاته وعلى صعيد الخلفاء العباسيين فقد خلفه ابنه المستنجد ، ولم يكن له نفوذ فى العراق ، وخلفه ابنه المستضىء بالله أبو محمد الحسن ، ثم الأمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ابن المستضىء بالله الذى يعتبر أطول الخلفاء العباسيين عهدا فقد حكم ما يقرب من سبعة وأربعين سنة ، وخلفه ولده أبو نصر ، ثم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله

سنة ٦٢٣ هـ وفي عهده تم للمغول السيطرة على بلاد ايران الى حدود العراق ، ثم خلفه ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله آخر الخلفاء العباسيين على يد هولاكو المغولي في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ هـ ، حيث حل الخراب والدمار ، وجرائم القتل الفظيعة والتي قدرها السيوطي بما يقرب من مليون نسمة ^(٤) ، ولم يترك هولاكو أحدا من العلماء أو الأمراء أو كبار الموظفين أو التجار أو الأشراف على قيد الحياة وأرسلت نفائس بغداد الى أذربيجان كما كان لسقوط بغداد تأثير كبير في خضوع أمراء آسيا الغربية مثل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والأتابك أبو بكر شن سعد صاحب فارس وسلاجقة الروم .

وكان رد فعل العالم الاسلامي على سقوط بغداد هو الوجود التام والاحساس بالمرارة ، حتى اعتقد فريق بدنو يوم القيامة ، وأن هذه الأحداث الرهيبة سخط من الله سبحانه وتعالى نظرا لخلو العالم الاسلامي من خليفة يحمي الاسلام حتى تولى الملك الظاهر بيبرس سلطة مصر سنة ٦٥٨ هـ ، فاستقدم الامام أحمد بن الامام الظاهر بالله العباسي أحد القلائل الذين نجوا من مذابح المغول ، وبايعه هو والعلماء والأمراء بالخلافة ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واستمرت الخلافة العباسية في مصر الى أن قضى عليها السلطان سليم العثماني .

وعلى الصعيد الداخلي شهدت الفترة السابقة على سقوط بغداد تعاظم

(٤) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدو تاريخ اصدار ص ٣٦٢ - ٣٦٤ .

دور الحركات الباطنية وخاصة الاسماعيلية التي نشطت في أرجاء العالم الاسلامي معتمدة على كثير من الأسرار والأمور المحجوبة ، وتفسير القرآن الكريم تفسيرات لاتعتمد على ظواهر النصوص ، بل على الباطن ، والمجازات ، والاستعارات ، والكفائيات ، وبأفكار مغايرة تماما لما أجمع عليه أهل السنة والجماعة مثل حلول الألوهية في « اسماعيل » ، وانتظار رجعته مهديا ، وفكرة تناسخ الأرواح ، وفكرة نشوء الكون متجليا عن ذات الله سبحانه ، وفكرة المراتب السبعة أو التسعة التي يتدرج فيها المريد حتى يصل الى درجة الكمال المطلق ، وغير ذلك من الأفكار التي لايطلع أسرارها الا من يؤمن جانبهم . وقد سبقت الاشارة الى اتخاذ مدينتي سلمية والكوفة مقرين لهذه الحركة . وقد وجدت الفاطمية هي الأخرى - كحركة باطنية مشابهة للاسماعيلية - وجدت من يث افكارها في العراق وايران لأن أهلها يميلون الى آل علي ، وكان هدف الفاطميين نشر « عقيدتهم » ثم القضاء على الدولة العباسية وهو ما يقضى التعرض في تفصيل غير قليل « للدعوة » الفاطمية في نشأتها وتطورها باعتبارها هي الأخرى من الحركات الباطنية التي أثرت بشدة على حركة التاريخ الاسلامي من حيث ارتباطها ردحا من الزمن بالحكم .

والواقع أن الفاطميين (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ) كانوا قد ظهوروا في شمال افريقيا سنة ٢٩٧ هـ ورغم أن ما يتعلق بافريقيا لايرتبط بمجال هذه الدراسة - الا أنه يجب التنويه - كما سبقت الاشارة - أن الفاطميين هم من الشيعة الاسماعيلية ، وكان عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب ابن

(٥) : دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، ص ١٧٦ .

جعفر الصادق قد قضى على دولة الأغالبة ، والادارسة وسيطر على المغرب العربى . ومن أشهر حكام الفاطميين المعز لدين الله بن المنصور بن القائم ابن عبيد الله المهدي الذى أرسل قائده جوهر الصقللى لفتح مصر ، وأسس مدينة القاهرة ، وشرع فى عمارة الجامع الأزهر ، وقد استولى جوهر الصقللى على دمشق سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٨م وأصبحت الدولة الفاطمية تشمل أيضا الجزء الجنوبي من بلاد الشام ، وفى عهد العزيز والحاكم بأمر الله تمت السيطرة على الحجاز وبلاد الشام ، واستمر حكم الفاطميين حتى سنة ٥٦٧هـ حينما قضى على دولتهم صلاح الدين الايوبى فى عهد الخليفة العباسى المستضىء .

وفيما يتعلق بالدعوة الفاطمية فقد انقسم أصحابها فى فترة خلافة المستنصر بالله خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) الى قسمين : رأى القسم الأول أن المستنصر أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار ، فى حين قال القسم الثانى أنه أوصى بها لابنه المستعلى ، واتخذت الفرقة الأولى بلاد المشرق مركزا لها برعاية الحسن بن الصباح ، وبقيت الثانية فى مصر والمغرب ، وكان الحسن بن الصباح قد نشأ ، وذاع صيته كشيعة متحمس خلل فترة ألف أرسلان ، وتذكر المصادر أنه كتم أفكاره لتعصب السلاجقة السنيين ، غير أنهم اكتشفوا أمره ، وطردوه من خدمتهم فأعلن اعتناقه المذهب الاسماعيلى ، وبعثه عبد الملك بن عطاش رئيس الدعوة الاسماعيلية فى العراق الى أصفهان ، ثم

سافر^(٦) الى مصر لدراسة « العقيدة » الفاطمية من خلال فلاسفتها بالقاهرة ، ولما ارتفع شأنه في مصر فقد انشق على المذهب الفاطمي المصري وأسس حركته الباطنية الجديدة ، التي أصبحت - بعد قوتها^(٧) - تهدد السلاجقة ، غير أن الحسن استطاع أن يستولى على بعض الحصون سنة ٤٨٣ هـ المحيطة بقزوين والتي كان يتم الانطلاق منها في الماضي للاستيلاء على بلاد خورستان وقوهستان .

استطاع الحسن بن الصباح إعادة تنظيم المذهب الفاطمي ، فسمى نفسه « داعي الدعاة » أو رئيس الدعوة وهو أكبر منصب في الهيكل التنظيمي ويليه كبار الدعاة حيث يختص كل منهم باقليم من أقاليم « الدعوة » الثلاثة وهي : العراق ، وقوهستان ، والشام ، ويليهم طبقة الدعاة الذين تم تدريبهم وتلقينهم مبادئ « الدعوة » وأصولها والتفقه في المذهب الاسماعيلي ، ويليهم طبقة الرفاق وهم الذين يطلعون على الأسرار ، ولا يطلب اليهم نشرها ، ثم طبقة اللاصقين ، وهم الذين لم يتعمقوا في معرفة أسرار الدعوة وأصولها ، ولكنهم ممن يتعهدون تنفيذ كل ما يطلب منهم ، أما الطبقة السادسة فهم طبقة الفدائيين وهم الشبان المتحمسون الذين استعان بهم الحسن لتنفيذ خطته السرية في القضاء على

(٦) المرجع نفسه ، وتجدر الإشارة الى ارتباط العالم الاسلامي في آسيا بمصر ارتباط وثيقا في هذه الفترة ، وكانت « العقيدة » الفاطمية قد استقرت من خلال الخلافة الفاطمية في مصر التي سافر اليها الحسن بن الصباح عن طريق افرييجان ، ومياقارقين وعكا .

(٧) راجع تفصيلا : - ابن الأثير ، الجزء العاشر ص ٩٧ - ٩٩ .

- القلقشندي : صبح الأعشى في صياغة « الانشاء » ، الجزء الثالث عشر ، ص ٢٣٦ -

خصومه ولهم وسائلهم فى الاحتىال ، والتخفى ، واستعمال الاسلحة المتعددة ، ومعرفة اللغات ، وكان هؤلاء يقتلون خصوم الحسن أيام الجمع والآحاد^(٨) .

وبموت الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ - ١١٢٤ م ضعف أنصاره ، وفشلوا فى الاستيلاء على البلاد الاسلامية ، غير أنهم مروا أيضا بفترات قوة تمكنوا خلالها من محاربة الصليبيين عدة مرات ، واستمالة أمير حلب السلجوقى لمذهبهم ، والاستيلاء على عدة حصون وقلاع . وعندما تولى جلال الدين حسن زعامة الاسماعيلية فى الفترة ٦٠٧ - ٦١٨ هـ ، ١٢١٠ - ١٢٢١ م ، فقد طلب منهم اظهار شعائر الاسلام واعلامهم الرجوع الى الحق بل أن جلال الدين حسن طلب من بعض فقهاء المسلمين أن يفقهوا جماعة الاسماعيلية بتعاليم الحنيفية وأحرق كتب الاسماعيلية ، وقد سبقت الاشارة الى أوجه الشبه بين المذهبين الاسماعيلى والفاطمى ، وشهدت الفترة اللاحقة الفتك بالاسماعيلية من كل من منكوبرتى سنة ٦٢٤ هـ ، ثم هولاء سنة ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م ، ومنذ ذلك الحين تشتت الباقون ما بين شمالى سوريا ، وفارس ، وعمان ، والهند^(٩) بصفة خاصة .

(٨) وكان من دعاة طبقة الغدائيين عند اغتيال أحد خصوم الحسن ، أن يكونوا ثلاثة ، حتى اذا ما قتل أحدهم فى الخطة أو قتل ، فإن الآخرين يقرمان باتمام العمل ، وهكذا تمكن للحسن قتل الكثير من خصومه ، وكان منهم على قمة السلطة مثل الخليدتين المسترشد والراشد والوزير نظام الملك وغيرهم .

(٩) حيث يقيم منهم ما يقرب من المائتى الف فى شبه القارة الهندية وباكستان ، ويلقب الشخص منهم بالمولى أو الخاجة ، ولا يزال قسم منهم فى سوريا فى مدن سلمية والقدموس ومصيف ، =

- ظهور دويلات جديدة :

١ - السلاجقة :

ينتسب السلاجقة الى سلجوق بن تقاق (دقاق) أو اديقاق ، أحد رؤساء التركمان ، وموطنه الأصلي سهول تركستان فيما وراء النهر ، وأخذ نجمه يلمع حتى هابه الاتراك ، وقرية السامانيون ، أما طغرك بك فهو أحد أحفاده الذى برز هو الآخر بانقراض الدولة السامانية ، وطمع فى الاستيلاء على أراضيها ، وتمكن بالفعل من الاستيلاء على خراسان ، وفى سنة ٤٢٩هـ استولى على مرو ، ونيسابور ، وبلخ ، وجرجان ، وطبرستان ، وخوارزم ، وهمذان ، والرى ، وأصفهان . وازداد السلاجقة تألقا فى العالم الاسلامى بدخولهم بغداد حيث خطب طغرك بك الجمعة ، وقبض على الملك الرحيم البويهى ، وانقضت دولة بنى بويه كما سبقت الإشارة تفصيلا .

ويموت طغرك بك ، فقد خلفه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن طغرك بك ، واستطاع ألب أرسلان توسيع حدود الدولة الاسلامية على

= وهناك فئة أخرى فى سوريا تعرف باسم « النصيرية » أو « العلوية » وهم اسماعيليون فى الأصل ، ويرجع اسمهم الى محمد بن نصير الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ، ويبلغ عددهم نحو ثلاثمائة ألف ويقعون فى محافظة اللاذقية .
راجع تفصيلا :

- فيليب حى ، تاريخ العرب (مطول) ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٦١ .
- فيليب حى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال البازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ م

حساب الدولة الرومانية الشرقية ، من أقصى الشرق الى جزيرة العرب والى بحر مرمرة بعد هزم الامبراطور البيزنطى رمانوس وأسره فى موقعة ملازكرد سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧١هـ وذلك بالرغم من التفوق العددى للجيش البيزنطى على جيش السلاجقة الاسلامى ، وقد تجلت الروح الاسلامية الحققة فى معاملة ألب أرسلان لأسيره الامبراطور البيزنطى ، حيث أرسله الى بلاده فى حراسة الجنود المسلمين ومعه راية مكتوب عليها : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، ومن الدروس المستفادة فى هذه المعركة ، أو بالأحرى نتائجها ، أن تأسست دولة الروم السلجوقية فى آسيا الصغرى ، وأصبحت دولة اسلامية يتزعمها سليمان بن قتلش ابن عم ألب أرسلان وبقيت هذه الدولة أكثر من قرنين حتى قضى عليها المغول سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م .

وبعد وفاة ألب أرسلان خلف ابنه أبو الفتح ملك شاه واستمر حكمه عشرين عاما (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) ، وكان وزيره نظام الملك يدير الدولة ، وفى عهده تمت فتوحات اسلامية للعديد من الأقاليم ، وبلغت الدولة أقصى حدود الصين فى الشرق ، وبلاد الشام والجزيرة العربية وبلاد الروم الى بلاد جورجيا ، ولما مات ملك شاه اضطربت الأمور بعض الشيء ، وتعاضمت فتن الباطنية وأدى ذلك الى انقسام دولة السلاجقة الى دويلات عديدة عرفت بدول الأتابكة والشاهات .

ودول الأتابكة هى عدة دول أو بالأحرى دويلات زاحمت الدولة السلجوقية . وكلمة « أتابك » هى لفظ تركى يطلق على الوصى ، أو المربى الذى يتولى ادارة البلاد ، والاشراف على ولى العهد ، وسميت دول الأتابكة بهذا الاسم ليس لنسبتها الى بيت واحد ، أو الى أتابك واحد ،

ولكنها كلمة متصلة بالبيت السلجوقي فكلما برز شخص عظيم من مربي
رجالات البيت السلجوقي سموه «أتابكا» ، وتمكن هؤلاء الأتابكة أن
يصدوا الى الولايات والامارات ، ثم استقلوا بها ، وأورثوها أبناءهم من
بعدهم .

وإذا ما عدنا للسلاجقة ، نجد أنه بعد موت ملك شاه فقد تجزأت الدولة
السلجوقية الى فروع أربعة تضمنت سلاجقة العراق وفارس ، وسلاجقة
سوريا في حلب ودمشق ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة الروم في آسيا
الصغرى ، وظل السلجوقيون يحكمون معظم املاك الخلافة الاسلامية في
آسيا أكثر من قرنين ، ثم امتد نفوذهم الى جبال الأناضول من خلال
عهود ثلاثة : الأول عقب موت ملك شاه حيث دامت الفتنة بين أبنائه فترة
طويلة ضعف فيها الشرق الاسلامي أما الصليبيون في الخارج
والاسماعيليين في الداخل ، أما العهد الثاني فقد تمكر الصليبيون فيه من
انتزاع بلاد الشام من أيدي السلاجقة ، وكونوا فيها امرات صليبية أربع في
بيت المقدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها ، ولم يبق تحت سلطة
المسلمين سوى دمشق ومصر ، في حين انفصلت آسيا الصغرى تماما ،
وتكونت فيها أسرة مستقلة ، وكذلك حال الجزيرة ، وفارس ، وأذربيجان ،
وديار بكر ، وانقسم السلاجقة في العهد الثالث الى ثلاثة أقسام وقعت فيها
عدة معارك واستمر هذا العهد في الفترة من ٥٢٥ - ٥٤٧ هـ ، ١١٣٠ -
١١٥٢ م ، انهارت بعدها هذه الدولة

٢ - الأتابكية

أما الدولة الأتابكية ، فقد سبقت الإشارة الى التسمية التي أطلقها
السلاجقة على المربين من رجالات البيت السلجوقي ، الذين أطلق عليهم

أيضا « الشاهات » وقد حكم هؤلاء الأتابكية والشاهات مناطق مختلفة وأسسوا دويلات متعددة انفصلت عن الدولة السلجوقية ، وكان الأمير السلجوقي اذ تولى الامارة استصحب معه مربيه ، وكان ذلك المربي هو صاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، بل أنه عمل لحسابه الخاص وانفصل عن سياسة سلاجقة بغداد ، ولما مات ملك شاه ، استقل كل أمير بما تحت يده سواء كان أقليما أو مدينة ، وتسابقوا فى الأغارة على جيرانهم ، الأمر الذى انتهزته القبائل التركية فأخذت تغير هى الأخرى على سهول آسيا العربية . وعموما فقد شملت هذه الدويلات الأتابكية دويلة الشاهات الأرتقية التى ضمت مدينة ماردين وحصن كيف ، وكان وجود هذه الدولة فى حيز جغرافى اتسم بالحساسية وهو ما كان عامل ضعف فى وحدة المسلمين حيث وقوع الكثير من المنازعات ، وانتهت دولة ماردين سنة ٨١١هـ بعد ظهور الدولة العثمانية ، وهناك دويلة أتابكية دمشق فى الفترة من ٤٩٧ - ٥٤٩هـ ، ١١٠٣ - ١١٥٤ م . ويذكر ابن الأثير أنه عندما توفى ملك شاه فقد أسسها طغتكين مملوك تتش بن ألب أرسلان الذى امتد نفوذه الى حلب ، والجزيرة ، وديار بكر ، وأذربيجان ، وهمذان ، واستمرت هذه الدويلة الى أن قضى عليها نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٤٩هـ ، ثم انتقلت الى الأيوبيين فوليها الملك الأفضل فى حياة صلاح الدين ثم الملك العادل .

أما أعظم دول الأتابكية فكانت دولة أتابكية الموصل التى امتد سلطانها فى المنطقة الواقعة من بين النهرين الى بلاد الشام ، وأسسها عماد الدين زنكى بن قسنقر ، وكان أبوه أحد ممالك ملك شاه ، وقد سيطر عماد الدين

زنكى على واسط البصرة بالاضافة الى مملكته فى الموصل ، والجزيرة ،
ونصيبين ، ولما اشتد خطر الصليبيين فى سوريا ، ولم يبق بأيدي المسلمين
فيها سوى حمص ، وحماه ، ودمشق ، فقد تطلع المسلمون الى عماد
الدين لانقاذهم من براثن الصليبيين ، فتمكن من استرداد حلب فى سنة
٥٢٢هـ ، وظلت الحروب بينه وبين الصليبيين الى أن قتل سنة ٥٤١هـ -
١١٤٦م بعد أن استولى على الرها وأنقذها من الصليبيين ، وهو ما يعتبره
المؤرخون ^(١٠) فوزا كبيرا للمسلمين لأن سقوطها كان بداية نهاية النفوذ
الصليبي ، وتجدر الاشارة أيضا الى محاولات عماد الدين للاستيلاء على
دمشق ، ويذكر ابن الأثير ^(١١) أنه تمكن فعلا من الاستيلاء عليها ، ويموته
خلفه ابنه سيف الدين غازى على القسم الشرقى من المملكة ، واتخذ
الموصل مقرا له ، فى حين تولى نور الدين محمود القسم الغربى ، واتخذ
مدينة حلب مقرا له ، واشترك الأخوان فى محاربة الصليبيين الى أن تمكن
صلاح الدين الأيوبي من الاستيلاء على الدولة الأتابكية ، وضمها الى
دولته .

أما دولة أتابكية سنجار ، فقد شمل حكمها الفترة من ٥٦٦
- ٦١٧هـ ، ١١٧٠ - ١٢٢١م وكان قد أسسها عماد الدين
زنكى الثانى ، وتوالى عليها ولداه من بعده حتى استولى عليها
الأيوبيون .

وشملت دول الأتابكية أو بالأحرى دويلاتها التالية دولة أتابكية الجزيرة

(١٠) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثامن ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(١١) المرجع نفسه .

(٥٧٦ - ٦٤٨ هـ ، ١١٨٠ - ١٢٥٠ م) ودولة أتابكية الأربل (٥٣٩ - ٦٣٠ هـ ، ١١٤٤ - ١٢٣٢ م) ، ودولة أتابكية أرمنية (٤٩٣ - ٦٠٤ هـ ، ١١٠٠ - ١٢٠٧ م) ودولة أتابكية أذربيجان (٥٣١ - ٦٦٢ هـ ، ودولة أتابكية فارس (٥٤٣ - ٦٨٦ هـ ، ١١٤٨ - ١٢٨٧ م) ويلاحظ أن هذه الدويلات والتي أطلقنا عليها مجازاً لفظ دول ، أنها قد أخضعت للأيوبيين^(١٢) أو

(١٢) ينسب الأيوبيون إلى أيوب شادى بن مروان الكردى ، وقد فاجر شادى جد هذه الأسرة إلى بغداد التي كانت تحت سيطرة السلاجقة ، واستطاع استقطاب الأكراد لجانبه تحت حكم السلاجقة ، وشارك أيوب فى حسم الخلافات بين آل زنكى وبعضهم البعض فى بلاد الشام ، فساعد عماد الدين فى هجومه على بغداد ضد الخليفة المسترشد سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٢ م فكافة عماد الدين بتعيينه حاكماً على بعلبك سنة ٥٤٣ هـ / ١١٣٩ م ، وبعد مقتل عماد الدين سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، أصبح أيوب أحد قواد معين الدين يسيطر على دمشق ، وتعاون أيوب مع أخيه شيركوه لمساعدة نور الدين صاحب حلب للسيطرة على دمشق وتوطيد حكمه فى بلاد الشام ، ثم تعيين أيوب حاكماً على دمشق وصلاح الدين رئيساً للشرطة ، وهذا الأخير بدأ تجمعه يمزج على مسرح الأحداث ، حيث تولى الوزارة فيما بعد وتلقب بالملك الناصر ، ثم السلطان فى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، والواقع أن صلاح الدين قد نجح على حد قول المؤرخين فى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد الأمة الإسلامية ، ودفع خطر الصليبيين ، وكانت انجازاته الأولى القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وإعادة مصر إلى المذهب السنى وقد شجعه كل من نور الدين والخليفة العباسى المستنجد بالله على تحقيق ذلك ، واستغل صلاح الدين فرصة وفاة نور الدين وتولى ابنه القاهرة ، فأسرع صلاح الدين بجيش إلى دمشق ودخلها سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م وحاصر حلب ثم تم الصلح مع والى حلب فرفع عنها الحصار ، غير أنه قام بضمها فيما بعد ، وأصبحت دولته تحيط بالامارات الصليبية ، ومن ناحية أخرى فإن تنامي قوته قد مكنته من اسقاط الدولة الأتابكية .

- راجع : المقرئى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
- القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى ، أخبار الدول وأثر الأول ، القاهرة .
- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ص ٤٥ - ٤٨ ، ١٠٩ - ١١٢ .

المغول .

أما الخريطة السياسية للأحداث فى هذه الفترة فقد شهدت قيام الدولة الخوارزمية بجوار أراضى الخلافة الاسلامية ، ثم صراع أمراء البيت الأيوبى بالاضافة الى بقايا الصليبيين ثم مصر - رغم أن موضوع الدراسة لا يرتبط بها - والتي انتهت دولة الأيوبيين فيها وصولا الى الخوارزم .

٣- الخوارزم (٥٢٣ - ٦٢٨ هـ) :

تنسب هذه الدولة الى القائد التركى توشتكين أحد رجال ملك شاه السلجوقى ، وكان له ولد اسمه قطب الدين محمود ، وعهد اليه باقليم خوارزم ولقب بخوارزم شاه ، ولما انهارت الدولة السلجوقية ، فقد طمع خوارزم شاه فى الاستقلال بولايته ، وتوسيع رقعتها ، ويذكر ابن الأثير عدة أحداث وقعت فى الفترة من ٥٣٣ الى ٥٩٣ هـ تدور حول العديد من الغزوات بين السلاجقة والخوارزميين كان النصر حليف هذه الفئة أو تلك ، غير أن التقويم النهائى لهذه الفترة كان من جانب الخوارزميين حيث سيطروا على همذان ، وأصفهان ، والرى ، وبخارى ، وحاربوا الاسماعيلية واستولوا على قلعتهم ، وفتحوا بلاد ما وراء النهر وسيطروا أيضا على كرمان ، ومكران ، وسواحل المحيط الهندى ، والبلاد الواقعة غربى بلاد

= ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، الجزء الخامس ص ص ١٥٨ - ١٦١ .

- دكتور عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدول العربية ، لانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

- دكتور أحمد قاعور ، دكتور شهادة الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص ص ١٩٦ - ١٩٩ .

- دكتور حسن حبشى ، نور الدين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

السند ، وكان جلال منكوبرتى آخر من تولى أمور هذه الدولة حتى حاربه التتار وقبضوا على الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨ هـ . وهو ما يقتضى وقفة للتفسير .

فقد حكم جلال الدين منكوبرتى اقليم غزنة عن أبيه ، فلما تعرضت الدولة الخوارزمية لهجوم المغول الشامل استطاع منكوبرتى تكوين جيش قوى هزم به المغول . وقد أسرد ابن الأثير^(١٣) أحداث هذه الفترة وصولا الى اغتيال منكوبرتى على يد أحد الأكراد ، وزا بذلك خصم عنيد للمغول .

وعموما فان هذه القوى الاسلامية الجديدة كان لها دورها فى تغيير ميزان القوى ونقل الثقل السياسى الى المشرق حيث أعلن الجهاد العام فى مواجهة كل من المغول الوثنيين - فى هذه الفترة - والصليبيين وكان على العالم الاسلامى مواجهتهم والصمود أمامهم وهو ما يستلزم العودة لأحداث القرن السادس الهجرى - الثانى عشرة الميلادى - والفترة السابقة على الغزو الصليبي للعالم الاسلامى فى محاولة لعرض الأوضاع والعلاقات السياسية والاسلامية فى أسيا بصفة خاصة.

(١٣) راجع تفصيلا : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء ١٢ ص ٤٣٤ -

الفصل السادس الغزو الصليبي

- جذور الحقد الصليبي تجاه المسلمين .
- الحملة الصليبية الأولى .
- الحملة الصليبية الثانية .
- الحملة الصليبية الثالثة .
- من الحملة الرابعة الى الحملة السابعة .
- نتائج الحملات الصليبية

الفصل السادس

الغزو الصليبي

- جذور الحقد الصليبي تجاه المسلمين :

سبقت الاشارة الى الأوضاع السيئة التي تردى لها العالم الاسلامى - وخاصة فى آسيا - ابان الفترة الأخيرة من حكم الدويلات الاسلامية حيث السلاجقة وحكام الولايات الأتابكية فقد استفحلت الحروب الدامية داخل كل فريق ودويلات الأتابكة هي الأخرى متناثرة ومفككة ، فضلا عن تصاعد الأخطار من جانب الحركات الباطنية وأهمها فئة الحشاشين الذين نشروا الاضطراب والفوضى فى الدولة السلجوقية . أما الفاطميون فكانوا يشكلون الفئة الأخرى لتنازعة على حكم العالم العربى الاسلامى ، وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يحكمون مصر ، الا أنهم تركوا دفة الحكم للوزراء المتنافسين على السلطة ، فى حين كان الخلفاء الفاطميون فى حالة تنافس ونزاع مستمر مع الأتابكة بسبب بلاد الشام التى سيطر الفاطميون على الجزء الجنوبي منها عشية الغزو الصليبي حيث كانوا قد احتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٨ م . وقد شمل الضعف ، فى حكم العالم الاسلامى ، أيضا الغزنويين فى ايران وما وراء النهر الذين انشغلوا فى محاربة الأتراك ومحاولات توسيع رقعة دولتهم .

أما التهديد الصليبي تجاه العالم الاسلامى فانه يرجع الى فترة تاريخية سابقة على نهاية القرن الخامس الهجرى ، حيث سيطر المسلمون على أجزاء من دولة الروم ، فضلا عن حسرة الصليبيين تجاه ما فقدوه فى شبه جزيرة ايريا حتى استعادوه من المسلمين وأنهوا بذلك صفحة اسلامية مضيئة

فى حركة التاريخ الاسلامى والتى ترجع الى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب حيث سلسلة الحروب والغزوات بين المسلمين والروم قد استمرت فى آسيا الصغرى خلال حكم الدولتين الأموية والعباسية الى عهد سيف الدولة ، ثم تصاعد حملات الكراهية الصليبية تجاه المسلمين والتى اتخذت فيما بعد شكل هجوم حربى استعمارى على البلاد الاسلامية والعربية وخاصة فى الشرق الأدنى من أجل احتلالها وامتلاكها ، ويذكر بعض المؤرخين أن الامبراطور كومنين Alexes Comnene قد استنجد بروبرت كونت الفلاندر (١٠٧١ - ١٠٩٣ م) حينما مر به فى سنة ١٠٨٧م وهو عائد من الأراضى المقدسة ، ثم كتب اليه رسالة ، والى البابا اربان الثانى يستند به لتجهيز حملة ضد المسلمين ، وشهدت الفترة اللاحقة أعنف حروب ابادة ضد المسلمين فى العصور الوسطى استمرت حوالى مائتى عام (١٠٩٦ - ١٢٩١م) وقضت تماما على ملايين البشر ، ودمرت رموز الحضارة الاسلامية^(١) .

- الحملة الصليبية الأولى :

تذكر المصادر أن البابا جريجورى كان يرأس مجمعا دينيا فى إحدى المدن الايطالية عام ٤٨٩هـ - ١٠٩٥م ووجه نداء الى العالم المسيحى الغربى دعاه الى نصرة أخوانهم فى الدين بالأماكن المقدسة فى فلسطين^(٢) ، ويفسر هذا طابع الحملة الصليبية الأولى فى سنة ٤٨٨ - ١٠٩٥م لأنارة

(١) لعل من أفضل المراجع الحديثة ، دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٢) راجع : رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ١٩٤٥ ص ص ٢٥ - ٢٩ .

عواطف مسيحي أوروبا على ما يلقاه مسيحيو الشرق في بيت المقدس من اضطهاد ، وذلك حين دعا البابا الى مؤتمر « كليرمونت » ، واتخذ المؤتمر من مسيحي أوروبا الكاثوليك قرارا بانفاذ الحملة الصليبية الأولى للأراضي المقدسة وأخذ المسيحيون « المتدينون » ينخرطون في هذه الحملة ، ولم يكتف البابا بذلك ، بل راح يطوف في أرجاء فرنسا ، وإيطاليا داعيا الى الجهاد في سبيل انقاذ مهد المسيح من « المشركين »^(٣) .

والغريب أن هذه الادعاءات المضللة قد وجدت رد فعل حماسي ، فخرج بطرس الناسك ومعه خمسة عشر ألف صليبي متوجها الى القسطنطينية سنة ١٠٩٦ م ، ثم تابعت الحملات الأخرى الى انطاكية وبيت المقدس حتى سقطت القدس في أيديهم سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م وحدثت مجزرة رهيبة ذبح فيها الرجال ، والنساء ، والأطفال من سكان المدينة ، ووصل عدد القتلى الى ستين ألف ، واحتل الصليبيون المدن الساحلية ، فاحتلوا يافا سنة ١١٠٠ م ، ثم أرسوف وقيسارية وعكا سنة ١١٠٤ م ، وقاموا ببناء قلعة الشوليك سنة ١١١٥ م ، وتمكنت هذه الحملة من تحقيق هدفها باحتلال جزء كبير من بلاد الشام ، وكان من نتائج هذه الحملة أن ظهرت بوضوح حالة الضعف والتفكك والانقسام في الشرق الاسلامي ، وتكونت المملكة

(٣) ليس موضوع هذه الدراسة الدخول في تفاصيل دقيقة عن الحملات الصليبية وتكتيكاتها أو أساليبها الهجومية وقواتها ، ولكن ما يتعلق هو دلالتها ومعناها ونتائجها في العلاقات السياسية الاسلامية وما أدى اليه تداعى الأحداث من ردود فعل ، وقد حوت المكتبة الاسلامية والعربية العديد من أمهات المصادر والمراجع والمؤلفات عن الحروب الصليبية من المؤرخين المسلمين والأجانب

اللاتينية الصليبية فى الشرق العربى ، وامارات ثلاث أخرى هى الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، واستعادت الدولة البيزنطية معظم آسيا الصغرى .

غير أن أحد النتائج الايجابية لهذه الحملة - على صعيد العلاقات الاسلامية - هو الدور الذى قام به عماد الدين زنكى والى الموصل الذى أخذ فى اعادة ترتيب مدينة حلب بعد أن استقبله أهلها بالود ، وبالفعل أثمرت جهوده فى عدم تمكن الصليبيين من اختلالها سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٧م ثم اتجه الى حماه ، ومنها أخذ يغير على أنطاكية سنة ٥٣٠هـ - ١١٣٥م ، ثم أخذ يعد العدة لكسر شوكة الصليبيين من خلال تعبئة جهود جيرانه المسلمين ، والاهتمام بتدريب الجنود وتسليحهم . وعلى صعيد الروح المعنوية والقتالية ، فقد تحول العرب من حالة الاحباط واليأس الى ارتفاع معنوياتهم باستعادة عماد الدين زنكى لامارة الرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م حيث اقنع مسيحي الشرق أنه جاء لتحريرهم من ظلم الصليبيين وطفغانهم وقد أحدث سقوط الرها ردود فعل حسنة لدى نفوس المسلمين ، وكان بمثابة ضربة كبيرة للامارات الصليبية ، غير أن عماد الدين زنكى قد قتل ، وخلفه ابنه نور الدين الذى اتخذ حلب عاصمة له ، ووقف هو الآخر أمام الصليبيين وقفة قوية خيبت أمالهم ، فاستنجدوا بأوروبا والبابا فى سنة ٥٤٢هـ لتبدأ الحملة الصليبية الثانية .

وفى تقويم الحملة الصليبية الأولى ، يمكن القول أن الخيانة من جانب وزراء الدولة الفاطمية كان لها دور كبير فى هزيمة المسلمين ، ومن ناحية أخرى فان هذه الخيانة كانت نتيجة لانقسام العالم الاسلامى وقتئذ ، وتفسير ذلك فيما يتعلق بهذا الصدد أن الأفضل شاهنشاه بن بدر المجالى قد

بعث رسولا الى الصليبيين لابرام اتفاقية بينه وبينهم ضد السلاجقة ،
والمعروف أن السلاجقة سنيون فى حين كان الفاطميون من الشيعة ، وهكذا
أثمرت الأحقاد الناتجة من الاختلاف المذهبى نتائجها الضارة على العلاقات
السياسية الاسلامية ، وقضت شروط هذه الاتفاقية أمرين : أن يستقل
الصليبيون بأنطاكية على أن يسمح للفاطميين باقامة شعائهم الدينية فى
القدس ، وقد رحب الصليبيون بهذه الاتفاقية ، ولما بلغ ذلك الملك
السلجوقى فى حلب ، فقد قدم معاونة كبيرة لمواجهة جيش الصليبيين ،
غير أن هؤلاء تمكنوا من التقدم لحلب والمرة والبارة .

ومن الغرب أن الدولة الفاطمية قد فرحت بهذا الانتصار ، ويرى أسعد
طلس أن سبب هذا السرور هو شماته الفاطميين بالخلافة العباسية المؤيدة
للسلاجقة ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتقادهم خطأ بأن الحملة
الصليبية هدفها القدس فقط .

كذلك كانت هذه الحملة بمثابة عار فى تاريخ الصليبيين لفضاعة ما
ارتكبوه فيه من جرائم ، فضلا عن أنه - ونحن بصدد تقويم هذه الحملة -
قد نشبت الخلافات الداخلية بين الصليبيين أنفسهم استمرت لمدة قرنين
حتى تهيأ للمسلمين استردادها ، وقد نجح الصليبيون فى تقسيم ساحل
الشام - فى هذه الفترة - الى مستعمرات أوروبية .

- الحملة الصليبية الثانية :

بدأ زحف الحملة الثانية بقيادة لويس السابع عشر ملك فرنسا وكونراد
الثالث ملك المانيا لانقاذ الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وهب بارونات
فرنسا والمانيا يتبعون ملوكهم وبدأ الزحف فى سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٧م

حيث وصلوا ساحل صور وعكا ، والتقوا في بيت المقدس ، وعزموا على السير الى دمشق ، وقد واجههم الجيش الاسلامي وهزمهم ، وكان الجيش الاسلامي مكونا من فريقين ، فريق الموصل ، وفريق حلب وسدد الفريقان ضربات قاصمة على الجيش الصليبي ، فتفرق جنوده وقادته ورحلوا عن دمشق ، واستطاع نور الدين أن يسيطر على الشام ومصر ويوجد اماراتها ، وكان الصليبيون يخشونه وخاصة بعد أن هاجم انطاكية سنة ١١٤٩م وهزم أميرها^(٤) ، واستطاع تحرير عدة مدن ، أما فيما يتعلق بدمشق فتجدر الإشارة أن نور الدين رأى أن ضمها الى حكمه سيساعد في تحرير الشام وفلسطين ، وهو ما حدث بالفعل حيث صارت دمشق إحدى قواعد التحرير .

وفي سنة ١١٦٩م أرسل نور الدين قائده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين لمساعدة الخليفة العباسي المعتضد ، وتمكن شيركوه من أخماد الفتنة ، وتسلم الوزارة ، وبوفاته تسلم صلاح الدين الوزارة وأنهى الخلافة الفاطمية وأخذ نجمه في الصعود بعد أن ضم بلاد الشام ومصر معا في دولة واحدة امتدت من النيل الى الفرات وأحاط بالصليبيين لتبدأ مرحلة جديدة في مقاومة الغزو الصليبي ، حيث أتم صلاح الدين فتح طبرية وجنين والغور وحاصر بيروت وعكا وفتحها ، ثم سار نحو غرب الفرات حتى وصل آمد ثم رجع ففتح حلب ، وبلغه أن الفرنجة المقيمين في القدس قصدوا دمشق ، كما أن الفرنجة المقيمين بالكرك والشوبك يريدون المسير الى المدينة المنورة لنش قبر الرسول ﷺ ، فرجع سريعا وطردهم من

(٤) عماد الدين الأصفهاني ، تاريخ دولة سلجوق ، القاهرة ١٢٢٨هـ ص ٢٠٦ .

دمشق ثم حاصر الكرك سنة ٥٨٠هـ ، وفتح نابلس ، ولما هاجم الصليبيون قوافل الحجاج وسلبوا أمتعتهم وأسروهم ، فقد صمم صلاح الدين على مواجهتهم بالرغم من حشد القوات الصليبية في صفوريا بقيادة « غاي » ملك القدس فالتجّه صلاح الدين بجيشه نحو طبرية وكانت المواجهة الحاسمة في سهل حطين سنة ٥٨٢هـ - ١١٨٧م واستطاع صلاح الدين تحطيم الطلبيين في هذه المعركة وأسر ملك الفرنجة الكبير ، وصاحب الكرك ، وصاحب جبيل ، ثم سار الى عكا ففتحها ، ثم فتح الناصرة ، وقيصرية ، وحيفا ، وصفورية ، ودبورية وأكثر مدن فلسطين^(٥) ، وحاصر عسقلان ، والرملة ، وغزة ، والجليل ، واللد فاستسلمت جميعا .

تقدم صلاح الدين من هذه الانتصارات نحو بيت المقدس ليتوج انجازاته بفتحها ، وحاول أن يدخلها سلما لمكانتها المقدسة في نفوس جميع الأديان السماوية ، غير أن محاولاته باءت بالفشل ، فحاصرها المسلمون حتى طلب الصليبيون الصلح وخرجوا سالمين ، وكان فتح القدس بمثابة نقطة مضيئة في التاريخ الاسلامي في هذه الفترة ، وهذا هو العامل الرئيسي في تقويم هذه المعركة حيث يعتبر حدثا هاما في أحداث الحروب الصليبية هز العالم

(٥) راجع :- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، الجزء الثاني تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٤ - ٧٦ .

- ابن شداد ، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي الحلبي ، المتوفى سنة ٦٨٤هـ ، الأعلام الخطيرة ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي ١٩٦٢م .

الاسلامى الوسيط وذهبت الرسائل الى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير ، ويورد ابن خلكان ^(٦) فى احدى هذه الرسائل كيف حث صلاح الدين المسلمين على متابعة الجهاد حتى تتطهر جميع البقاع المقدسة فى الاحتلال والرجس الافرنجى ، وتناول الخطباء فى المساجد رد فعل هذا الحدث العظيم ^(٧) .

- الحملة الصليبية الثالثة :

انطلقت الصيحات من أوروبا تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس ، ولبى ملوك أوروبا هذا بهدف نجدة الصليبيين فى الشام ومعهم مائة ألف صليبي بقيادة كل من ملك ألمانيا - الذى غرق فى الطريق - وقلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغست ملك فرنسا الى جانب عدد كبير من الأمراء والدوقات ، وقد وصلت الحملة الى عكا ، غير أن جيش المسلمين تمكن من مواجهتها ، ومع ذلك فإن البحرية الصليبية قد رجحت كفة الصليبيين ، فاستسلمت المدينة على أن لا يتعرض أحد للمدافعين بسواء ، غير أن الصليبيين فتكوا بالمسلمين ، ثم سار الصليبيون الى يافا فأخلوها المسلمون ، ورأى صلاح الدين تخريب عسقلان والرملة

(٦) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، الجزء الثانى ص ٣٦٤ - ٣٧٢ .

(٧) حول سقوط طبريا وعكا والناصره وقيسارية وحيفا وصيدا فى يد صلاح الدين .
- راجع : ابن شداد ، بهاء الدين ، كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية المحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة .

واللد حتى لاتقع فى أيدي الصليبيين ، سار بقواته الى القدس ، وبالتالى فلم يتمكن الصليبيون من التوسع ، وتخوف ريتشارد قلب الأسد على ملكه ، فحدثت مشاورات بين الطرفين انتهت بعقد صلح الرملة فى ٢٥ أكتوبر ١١٩٢ م ، وهو ما تطلق عليه بعض المصادر أنه كان هدنة بين الجانبين فى البر والبحر لثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، على أن تستند بيد الفرنج موانئ يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وحيفا ، وتظل عسقلان خرابا واشترط صلاح الدين دخول الاسماعيلية فى الهدنة ، فى حين اشترط الفرنج دخول أنطاكية وطرابلس فى الهدنة ، وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما فتم ذلك .

وفى تقويم الحملة الصليبية الثالثة بظروفها الحرجة ، فان فى رسائل صلاح الدين وأصحابه الدليل المدعم بالوثائق على أوضاع المسلمين الحرجة فى تلك الفترة ، حيث تابعت امدادات أوروبا وتدققها على الشام بشكل ليس له مثيل فى حين كانت الامدادات الاسلامية متواضعة فضلا عن الحقد الذى حمله الفرنج معهم ضد الاسلام - كل هذه العوامل وردود فعلها يمكن تلمسها فى رسائل صلاح الدين عن ثقل وطأة هذه الحرب ، وأنه لامساعد ولا معين الا الله سبحانه وتعالى . ويصف صلاح الدين هذه المعاناة قائلا : « ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه ... فاذا قتل المسلمون واحدا فى البحر بعث البحر عوضه ألفا .. فالزرع أكثر من الجداد ... وهذا العدو المقاتل قد زرع عليه من الخنادق أذراعا

وقد حاول صلاح الدين في هذه الفترة الحرجة الاستنجاد بسيف الاسلام ملك اليمن ، وشرح له الوضع الخطير حول عكا ، وما يعانیه من قلة العدد وتفوق الصليبيين العددي ، غير أن ملك اليمن لم يرد عليه ^(٩) ، كما حاول الصليبيون في الفترة ذاتها غزو الحجاز والوصول الى المدينة المنورة ، فلما وصل الخبر الى الملك العادل نائب صلاح الدين في مصر ، ارسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الأسطول الصليبي ، ويستدل على ذلك من رسائل صلاح الدين الى الملك العادل ^(١٠) .

وقد بذل المسلمون حول عكا أقصى جهود ممكنة ، وظهر أبطال قاموا بخوارق الأعمال مثل الفتى الدمشقي الذي اخترع محلولا كيماويا كان سببا في تدمير الأبراج الثلاثة التي أقامها الصليبيون لأحكام الحصار حول عكا ، ومثل عيسى العوام الذي يحمل الرسائل والنقود الى أهل عكا سابحا في الماء حتى غرق واكتشفت جثته بعد ذلك . وعندما سقطت عكا ، بعث صلاح الدين بالرسائل الى عدد من الملوك والأمراء يصف سقوط عكا بأنه « الفاجعة » ^(١١) . وعند حلول كارثة سقوط عكا عقد صلاح الدين

(٨) راجع في تفصيل هذه الوثائق : القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، الجزء السابع ، ص ١٢٦ - ١٣١ .

(٩) المصدر نفسه ص ٢٢ - ٢٨ .

(١٠) محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ٤١ - ٥٣ .

(١١) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق أسد رستم وقسطنطين زريق ومجلاء عز الدين ، المطبعة الامريكية ، بيروت ١٩٤٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

مؤتمرا مع فواده ومستشاريه قائلا : « اعلموا أنكم جند الاسلام ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم فى ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم ... والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم .. » ، وكانت اجابة هؤلاء العادة التى وردت على لسان ابن الشطوب هو افصاحه عن الحب والولاء والثقة المطلقة والطاعة التى يكنها أفراد الجيش لقائدهم قائلا : « .. أنت الذى أعطينا عظمتنا ، وليس لنا الا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت ^(١٢) .. » .

وشكلت أساليب العلاقات السياسية الاسلامية ومهارة ادارتها أحد أهم العوامل هى تقويم جهود صلاح الدين حيث دارت بينه وبين قيادات الصليبيين ، أظهر فيها كياسة ، وأدبا ، وحكمة ، ودارية حيث كانت المحصلة النهائية هى فرض الارادة الاسلامية على الصليبيين بتحطيم أحلامهم فى استرجاع القدس واحتلال كامل الساحل السورى ، وحين حاول ريتشارد ملك الانجليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد المواجهة الحربية حول عكا ، غير أن صلاح الدين لقنه درسا فيما عرف فيما بعد بالدبلوماسية ، أو فن الحوار والتفاوض ، وما يجب أن تكون عليه علاقات الملوك ، فقد رفض صلاح الدين الاجتماع به الا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان قائلا ^(١٣) : « الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، واذا أرد الملك ذلك فلا بد من تقرير

(١٢) ابن كثير ، أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ،

البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ من ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

(١٣) ابن شداد ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

قاعدة مثل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه فى الوسط .. فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى .

ويضاف الى العوامل السابقة ، استغلال صلاح الدين رغبة ملك الانجلىز لعقد الصلح وتلهفه على ذلك ، فمأطله حتى جعله يقبل التنازل عن جزء كبير من مطالبه ، وفى الحرب امتاز صلاح الدين بسرعة حركته وفرديتها ، مثال ذلك هجومه المباغت والمفاجىء ليافا أثناء المفاوضات مع الانجلىز وهو مالم يتوقعه ريتشارد ملك الانجلىز ، ولعل أهم العوامل على الاطلاق هى التقوى والتفانى فى الدفاع عن الاسلام ، ومقدساته ، وأرضه ، وأهله ، ومع ذلك فان البعض ^(١٤) يرون أنه تسامح أكثر من اللازم مع الصليبيين رغم جرمهم الوحشية تجاه المسلمين ، وحرصه الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين فى بغداد بالرغم من أنه لم يقدم عوناً يذكر فى الصراع ضد الصليبيين سوى العواطف الكلامية .

وجاءت وفاة صلاح الدين بمثابة صفحة طويت لقائد فى التاريخ الاسلامى ضرب مثالا رائعا للغرب المسيحى فى المثل والأخلاق الاسلامية .

- من الحملة الرابعة الى الحملة السابعة (١٢٠٢ - ١٢٤٩ م) :

اضطربت الأحوال بموت صلاح الدين ، ذلك أن الصراع على السلطة قد احتدم بين أولاده وابن أخيه العادل ، الأمر الذى استغله الصليبيون وأخذوا يجمعون قواتهم لغزو المسلمين ، وقد تمكن الملك العادل من توحيد الشام ومصر ، وعندما تجمعت جيوش الصليبيين وأغاروا على حماه

(١٤) محمد ماهر حمادة ص ٥٣

ثم حرجوا الى بيت المقدس ، فقد هرع اليهم الملك العادل حيث اضطر
الفرنجية لمهادنته ، وتم الصلح على أن يسلم اليهم مدن يافا والناصره واللد
والرملة .

ومن ناحية أخرى كان البابا أنوسنت الثالث ١١٩٨ - ١٢١٦م قد دعا
الى الحملة الرابعة التى كان من أهم زعمائها بلدوين دوق فلندره ، وقد
اتفق مع رئيس جمهورية البندقية « وندولو » على نقلهم الى القسطنطينية ،
فأعادوا الامبراطور المخلوع سنة ١٢٠٣م ، ولما لم يستطع أن يدفع لهم ،
قاموا باحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤م وأقاموا المملكة اللاتينية التى
استمرت الى سنة ١٢٦١م .

وفيما يتعلق بالحملة الخامسة ، فقد اتجهت الى مصر وانهزم
الصليبيون ^(١٥) فيها - وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة - وفى الشام
قدم على سواحل عكا فى سنة ٦٠٢هـ - ١٢٠٤م جمع كبير من الفرنج
الألمان والنمساويين والجر فدخلوها ، وكان الأيوبيون مشغولين بمشكلاتهم
الداخلية وقد غنم الفرنج من المسلمين مغنم كثيرة ، ونظرا لوجود كثير من
الشباب المتحمس فى عنصرته ضد المسلمين ، فقد سميت هذه الحملة
بحملة « الشباب » ، ولما مات الملك العادل فى سنة ٦١٥هـ ازداد البلاء
على المسلمين وطمع فيهم الصليبيون ، واستولوا على أقاليم عديدة فى
الشام ، ولما استولى الصليبيون على دمياط فى مصر ، واتجهوا نحو
المنصورة ، فقد عظم الأمر على الأيوبيين ، وطلبوا الصلح من الفرنجية على
أن يتنازلوا لهم عن القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجميع مافتح صلاح

(١٥) لمزيد من التفصيل راجع : دكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ص ٢٢ .

الدين من ساحل الشام^(١٦) ، باستثناء الكرك والشوبك ، فلم يرض الفرنج وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار لقاء تخريب سور القدس مصرين على تسليم الكرك والشوبك ، وواجه جيش المسلمين الأيوبي جيش الصليبيين وتم النصر للمسلمين وأسدوا ثلاثين ألفا من الصليبيين . ويقول صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : « وبلغنى أن النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور فى كنيسةهم حزنا على ما جرى على الفرنج » ، ويعلق محمد أسعد طلس على ذلك قائلا : ان سبب تسليم القدس للصليبيين لم يكن آتيا من ضعف القوى الاسلامية ، بل نتيجة للخلاف بين الملكيين الكامل والمعظم ، فقد كان الكامل يخشى أنه فى حالة توجهه لمقاتلة الامبراطور فردريك أن يفاجئه الملك المعظم ، ففضل تسليم القدس الى فردريك .

وتتداخل أحداث الحملة الخامسة مع أحداث الحملة السادسة والتي قادها الامبراطور فردريك (٦٢٤هـ - ١٢٢٨م) ، ولم يدخل أى معركة ، ولكنه أرسل يطلب التفاوض مع الملك الكامل الأيوبي لتسلم القدس وبيت لحم والناصرة ، وهى الأماكن المقدسة عند المسيحيين ، وتمت اتفاقية بإفا سنة ١٢٣٩م ومدتها عشر سنوات ، واشترط الملك الكامل عدم تعرضهم لقبة الصخرة أو المسجد الأقصى ، وعاد فردريك الى أوروبا ، وأصبحت مملكة بيت المقدس تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة^(١٧) . أما رد فعل

(١٦) راجع : العماد الأصفهانى ، محمد بن محمد ، الفتح النسي فى الفتح القدسى ، تحقيق

محمد صبيح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

(١٧) دكتور أحمد قاعور ، شحادة الناطور ص ٢٢ نقلا عن الصفدى ، صلاح الدين خليل

أبيك ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ ، الوافى بالوفيات ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .

الحملة السادسة على رأى العام الاسلامى فكانت سيئة للغاية حيث شعر المسلمون بالاحباط لتصرف الملك الكامل ، وساءت أمور الأيوبيين ، بل أن بعضهم قد استعانوا بالفرنجية ، وظلت البلاد لاتتسم بالاستقرار السياسى والداخلى حتى الزحف المغولى ، وظلت القدس بأيدي الصليبيين لى أن استردها الملك الصالح أيوب فى سنة ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ بمساعدة الخوارزميين .

أما الحملة السابعة والأخيرة فقد قادها لويس التاسع ملك فرنسا بهدف استرجاع بيت المقدس والانتقام من المسلمين الذين أسروه فى المنصورة ، غير أنه فشل ، وأسر من الجيش الفرنسى ما يقرب من ثلاثين ألفاً^(١٨) ، وبذلك انتهت فترة الحروب الصليبية التى دامت قرابة قرنين (٤٩١ - ٦٩٠ هـ) ، وأكدت معركة حطين وما تلاها أن وجود الصليبيين فى الأراضى المقدسة أصبح أمر وقت ، وقام قلاوون أحد سلاطين المماليك باحتلال طرابلس سنة ١٢٨٩ م ، وأنهى ابنه خليل آخر معاقلهم فى عكا سنة ١٢٩١ م ، وبذلك فقد تطهرت بلاد الشام من اعتداءات الصليبيين وظلمهم وعسفهم واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين ، ومن الثابت أنه

(١٨) وتمهد ملك فرنسا بالآ يعود ثانية الى شواطئ الإسلام ، وتتضارب المصادر حول ذكر أحداث الحملة السابقة ، حيث تذكر احداها أنه مات بالطاعون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٧٠ م . قارن : المقرئى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، الخطط المقرئية ، مكتبة أحياء العلوم ، الشياح ، لبنان ، الذهبى ، محمد بن أحمد ، كتاب العبر فى خبر من غير ، تحقيق صلاح الدين لينجد وفؤاد السيد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠ ، الجزء الخامس .
- ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، الجزء السادس ، القاهرة .

مهما قيل فى وصف حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام ، فان أوائلهم كالظاهر بيبرس والمملك المنصور قلاوون كانا محاربين من نوع نادر ، وأعادا وحدة العالم الاسلامى فى الشام ومصر ، كما حاربوا الصليبيين وانتزعا معاقلمهم واحدا بعد الآخر حتى تم اجلاؤهم عن سوريا سنة ١٢٩١م - كما سبقت الإشارة - الى جانب هزيمتهم للروم والبيزنطيين أكثر من مرة ويعنى ذلك أن انتهاء الحكم الصليبي كان من خلال الملك الظاهر بيبرس والذى كان ضبطا وقائدا للفرسان فى أواخر الأيوبيين ، وحين بلغ العجز أشده بحكام سوريا الفرنج ، فقد ألحوا فى طلب الهدنات مع الظاهر بيبرس ، بل وقد أصبح هو نفسه حكما بينهم كما حدث عندما تأمر كل من ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبه بيروت واحتالا عليها لتترك مملكتهما وتذهب الى قبرص ، فبقيت بيروت بدون حاكم ، فأرسل الظاهر بيبرس الى صاحب عكا يقول : « هذه الملكة بينى وبينها هدنة ، وما سافر زوجها ... ، وعاد معها اذا سافرت تستودعنى بلادها ، ومن هذه المرة ما سيرت لى رسولا ، ولا بد من حضورها ، وأن تتوجه رسلنى وتشاهدها ، والا فأنا أحق ببلادها ^(١٩) » .

سبقت الإشارة أن موضوع هذه الدراسة هو ما يتعلق بالعلاقات السياسية الاسلامية وانتشار الاسلام فى آسيا ، وهو المتغير المستقل فى منهج الدراسة واذا كان هناك متغيرات تابعة ، ومنها دور السلاطين المماليك وخاصة فى مصر ، فان هذا المتغير التابع يعتبر رافدا من المتغير المستقل ، وقد عرضناه بما يخدم تحقيق أهداف الدراسة ، وفى هذا الصدد فقد قام المماليك فى

(١٩) ابن الفرات ، الجزء السابع ص ص ٣٤ - ٣٦

أوائل عهدهم بدور كبير فى تمسك المسلمين فى الشام ، عسكريا وسياسيا أيضا حيث تجلت المهارة السياسية للظاهر بيبرس فى تنفيذ خطته فى تطهير بلاد الشام من الصليبيين ليس بالاستعداد الحربى فحسب ، وإنما بالجهود السياسية أو ما اصطلاح على تسميته فيما بعد بالدبلوماسية^(٢٠) أى من التفاوض ، وفى هذا المقام حالف الظاهر بيبرس بعض الصليبيين لفترة ، ليأمن جانبهم ، ويتفرغ للآخرين ، كما فعل عندما عقد عدة هدنات مع بيروت ، وفى نفس الوقت هاجم بقية معاقلهم فى صفد والشقيف واللاذقية ويافا وأنطاكية وفتحها كلها ، وتم هذا من خلال حنكة حربية وسياسية ، فبعد استيلائه على أنطاكية أرسل الى صاحبها بوهيموند السادس ، وكان يحكم أنطاكية وطرابلس معا ، وكان يلقب بالبرنس يخبره بفتحه أنطاكية ويخاطبه بالقومص ، ذلك أن سقوط أنطاكية بيد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تهبط من الامارة الى الكونتية ، كما وأن فتحها دليل على مهارة الملك الظاهر ، فقد هاجم طرابلس أولا ، وعندما دافع بوهيموند عنها ، انسحب السلطان من ضواحيها ، فظن بوهيموند أن دفاعه كان السبب فى رحيل السلطان واحباط الهجوم على طرابلس ، ولذلك ركن الى الراحة ، غير أن ذلك لم يكن سوى جزءا من تخطيط الهجوم ، فقد أوهم الملك الظاهر خصمه أن الهجوم الرئيسى هو على طرابلس ، فى حين أن هدف الهجوم كان أنطاكية التى حاصرها ولم يلبث أن استولى عليها وفى رسالته

(٢٠) راجع فى تفصيل ذلك : المقرئى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، المتوفى سنة

٨٤٥هـ ، تحقيق محمد مصطفى زادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ ، الجزء الأول

ص ٩٦٥ - ٩٧٠ .

السابقة يقول له : « فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيل ،
وديارك والنهاية فيها تصول والكآبة فيها تجول ... لكنت قلت : ياليتنى
كنت ترابا .. ولتعلم أنا قد أخذنا على أسلوب الملك الظاهر الذى يتسم
بالروح المرحية التهكمية قائلا : « ... دأب السلطان على نفس الأسلوب مع
بوهيموند من ارسال الرسائل له بعد أن يقتطع من أملاكه بلدا من البلدان ،
كما فعل لما احتل حصن عكار من أملاك طرابلس ، فقد أرسل له رسالة
ثانية تفيض سخرية ، وهى بمثابة انذار بالتسليم أو الرحيل ^(٢١) .

توفى الملك الظاهر بيبرس وهو فى قمة مجده بعد أن حطم القسم الأكبر
من الاحتلال الصليبي لبلاد الشام ، وترك للملك المنصور ^(٢٢) أعباء انجاز
ما بدأه . وقد تمكن قلاوون من تحرير ما بقى من معاقل الصليبيين فى بلاد
الشام باستثناء صور التى جرى تحريرها فى فترة حكم ابنه الملك الأشرف ،
وسار قلاوون على سياسة الملك الظاهر فعقد الهدنات مع مملكة عكا ،
ليتفرغ لفتح طرابلس ، وبعد تحريره طرابلس رجع الى عكا ، وقد
سبقت الإشارة الى خاتمة العدوان الصليبي على يد الملك الأشرف
خليل الذى ظهر صور سنة ١٢٩١ م ، وانتهت الحروب الصليبية فى
أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ولكنها خلفت فى العالم الاسلامى
- رغم الانتصارات الاسلامية وفرض القادة المسلمين ارادتهم على
المغتصبين الصليبيين - خلفت آثارا رهيبة ونتائج بعيدة المدى

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) على الرغم من أن السلطان بركة هو الذى خلف والده الملك الظاهر فى العرش إلا أن
نخصيته كانت ضعيفة مما مكن قلاوون من خلمه والحلول محله .

وخطيرة في الوقت ذاته يمكن اجمالها - فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة فيما يأتي :

- نتائج الحملات الصليبية :

أولا :

ساهمت الحروب الصليبية في تغيير عقلية الصليبيين ، وجعلتهم يطلعون على حضارة أرقى من حضاراتهم ، وصححت كثيرا من مفاهيمهم عن الاسلام والمسلمين ، ووضعت نواة الاستشراق حيث اتجه الرهبان لدراسة الفكر الاسلامي ، واللغة العربية ، ويركزون على الوسائل السلمية للتسرب الى العالم الاسلامي بعد اخفاق الوسائل العسكرية ، كما لفتت هذه الحروب أنظار الأوروبيين للاستعمار فيما بعد ، باعتبارها - أى الحروب الصليبية - أول تجربة من الاستعمار الأوروبي لتحقيق مكاسب اقتصادية .

ثانيا :

إذا كانت هذه الحروب قد أدت الى نتائج ايجابية بالنسبة الى أوروبا ، فقد تركت آثارا سيئة على المشرق الاسلامي حيث اقترن طرد الصليبيين بتدمير عدد من المدن مثل عكا ، وأنطاكية ، وطرابلس ، بالإضافة الى امتصاص جهود وطاقه العالم الاسلامي من أجل الدفاع عن كيانه ، لكن ذلك كان نتيجة ايقاد روح التعصب المقيت بين المسلمين أنفسهم وفي بلادهم تجاه أهل الذمة ، وقد لاقى منها المسلمون شرا مستطيرا .

ثالثا :

صحيح أن البلاد الاسلامية قد كرسَتْ نشاطها ومواردها للقضاء على

الغزاة ، وبذلك تدهورت الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، لكن الصحيح أيضا أن المسلمين قد تأثروا بعبادات الصليبيين فى كثير من مهاراتهم فى البيوع والتجارة ، وبالمقابل نقل الصليبيون كثيرا من أصول الهندسة البنائية فى الفن الاسلامى المعمارى ، وانعكس ذلك على كثير من الأبنية من قصور وكنائس ، كما أفاد الأوروبيون فى الفترة اللاحقة - وخاصة الايطاليون - فى مجال التبادل التجارى مع الشرق الاسلامى الذى أدرك أهمية التعاون الاقتصادى المشترك .

رابعا :

على الصعيد الثقافى ، فإن الحياة الثقافية الاسلامية أبدعت بعد أن كان الجمود قد أصابها ، وكان هذا التجديد والابداع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الأوروبية وقد سبقت الإشارة الى الخطوات البطيئة فى تحقيق الحضارة التى سارت اليها فى العصر العباسى الثانى والثالث ، لكن تزامن الغزو الصليبي مع الغزو المغولى كان له نتيجة السلبية على رموز الحضارة الاسلامية حيث فقدت الى حد ما بعض أصالتها فجعلها تلجأ الى التقليد ، وكان لذلك تأثيره فى الجمود الفكرى والحضارى الذى حل بالبلاد لفترة طويلة .

خامسا :

ساهمت الحروب الصليبية فى اضعاف نفوذ البابوية فى الغرب ، وبالتالى الكنيسة ، وفى اضعاف نظام الاقطاع بمفاهيمه ومكوناته السائدة وقتئذ فى أوروبا ، وكان لذلك تأثيره فى تأسيس الملكيات المطلقة ثم فى فترة لاحقة فى انتهاء ملامح مجتمعات العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوروبية .

سادسا :

لعل أهم النتائج على صعيد المشرق الاسلامى ، هو أهمية عنصر القيادة الاسلامية الحقيقية التى استقطبت جهود المسلمين الى جانبها ، فكان ظهور عماد الدين زنكى وقيامه بدور بارز فى مقاومة الصليبيين ثم بعده ابنه نور الدين الذى قام بانجازات عظيمة من خلال تكوين جبهة متحدة متضامنة من مصر والشام ، ثم صلاح الدين الذى أكمل الحلقة الأخيرة فأنزل ضربته القاصمة فى حطين لتقضى على آمال الصليبيين فى احتلال القدس .

والخلاصة ان محصلة الحروب الصليبية كانت فادحة الثمن بالنسبة للعالم الاسلامى الذى خسر فيها الكثير واذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد حققت هدفها فى الوصول الى بيت المقدس ، واقامة عدة امارات ، فان انتصارها لا يرجع لقوة الصليبيين ولكن يعود لضعف تجمعات القوى الاسلامية وعدم تعبئة جهودها وامكانياتها بالقدر المناسب فى ذلك الوقت فى الشام والعراق ومصر رغم الايجابيات التى أسهمت وأهمها القيادات السياسية والعسكرية الاسلامية ودورها فى انحسار هذه الحملات ، حيث كانت هذه القيادات قوة فاعلة مشجعة قادرة على الاستجابة للتحديات .

فصل ختامي

في

الفتوحات الإسلامية وتأثيرها على العلاقات السياسية

في آسيا

فصل ختامى

الفتوحات الاسلامية وتأثيرها على العلاقات السياسية فى آسيا

حاولت جهدى فى هذه الدراسة الموجزة أن أعالج موضوع الفتوحات الاسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا منذ عصر النبوة والخلافة الراشدة ومرورا بالدولتين الأموية والعباسية وانتهاء بالغزو الصليبي للعالم الاسلامى والذى تزامن مع الغزو المغولى بشكل أو بآخر .

ان أهم النتائج التى تم التوصل اليها إن المسلمين الأوائل هم الذين صنعوا التاريخ الاسلامى ولايمكن أن يكون هنام شعب تاريخية أكثر ارتباطا بالأشخاص أكثر من التاريخ الاسلامى فى عداد القوى العالمية فى فترة فتوحاتها حيث كان يحسب لها حسابها منذ أن استقر رأى الرسول الكريم ﷺ على توسيع دعوته فى الأقطار المجاورة وأرسل رسلا حملوا رسائله الى ملوك زمانه المجاورين لبلاد العرب يدعونهم الى الدخول فى الاسلام واتباع شريعته الغراء ، قد سبقت الاشارة الى اثنين من هؤلاء الرسل وهما : عمرو بن العاص السهمى الذى ذهب الى عمان وصحار ، وأبلى العلاء الخضرى الذى أرسل الى البحرين (هجر) واجتمع الى عبد الله بن الجلندى أمير عمان ، والى شقيقه جعفر أمير صحار فرحبا به ، وأعلنا وقومهما الدخول فى الاسلام ونطقوا جميعا بالشهادة .

وفى البحرين نجح أبو العلاء الخضرى حيث استجاب المتذر بن سارو العبدى . أمير المنطقة للدعوة ، ودخل الدين الاسلامى الحنيف مع قومه ، وفيهم ممثل الدولة الكسروية وبعض أعضاء الجالية الفارسية وهكذا دانت الضفة الغربية للخليج بالاسلام ، أما الضفة الشرقية للخليج فقد كانت

ماهولة بأكثرية غير عربية ، فكانت معركة القادسية فى السنة السادسة عشرة للهجرة بين العرب والفرس الخطوة الأولى التى خطاها الفاتحون العرب للسيطرة على هذه الضفة حيث انتهت بنصر كبير حققه سعد بن أبى وقاص الذى طارد المنهزمين من جيوش الأكاسرة حتى بلغ عاصمتهم « المدائن » وفيها ايوان كسرى الشهير فدخلها ورفع علم الاسلام على أسوارها .

قام الفاتحون العرب بتحرير العراق الذى أدمج فى الدولة الاسلامية الفتية وواصلت الجيوش الاسلامية زحفها شرقا موغلة فى أواسط آسيا ، وفى سنة ٩٢هـ / ٧١١م تحررت منطقة شرق شبه الجزيرة العربية وصولا الى قلب آسيا وتم ضمها الى الدولة العربية على يد محمد بن القاسم الثقفى ، حيث عقد له عمه الحجاج بن يوسف الثقفى عامل العراق لعبد الملك بن مروان وأرسل على رأس حملة عسكرية واصلت الزحف من « واسط » عاصمة العراق وقتئذ ، حتى بلوچستان مكتسحة الضفة الشرقية للخليج العربى وانطلقت الأساطيل العربية من مفرورها الى موانئ الهند وسيلان وبورما وبلغ المد الاقتصادى العربى مرحلة كبيرة تم خلالها احتكار التجار المسلمين للتجارة بين الهند والشرق الاقصى وكان للبحارة العرب والتجار العرب دور أعظم بكثير وهو التبشير بالاسلام ونشره فى جميع الثغور والأماكن فى آسيا التى يقفون عليها ، أو يمرون بها ، ويتفق المؤرخون أن نشر الاسلام فى سواحل الهند وسيلان وبورما كان من خلال الجهود الرائدة لعرب شبه الجزيرة العربية فضلا عن اندفاع البحارة والتجار العرب نحو الصين وانشائهم المراكز التجارية فى بعض سواحلها وموانئها واعتناق كثير من الصينيين

للدين الاسلامى .

ان الفتوحات الاسلامية فى آسيا وما ارتبط بها من علاقات سياسية ترتبط بدون شك بالدولة الأموية وهو ما يستحق وقفة لتقويم دور هذه الدولة ، فقد سبقت الاشارة أن الدولة الأموية شقت طريقها بين الكثير من المتاعب فكانت تتقى باحدى يديها ما يواجهها من ضربات فى الداخل ، وتضرب باليد الأخرى هؤلاء الأعداء الاجانب الذين يحيطون بالدولة الاسلامية الفتية فتردهم الى الوراء وترغمهم على الخضوع حتى استطاعت أن تمد سلطانها ذات اليمين وذات الشمال فوصلت الفتوحات الاسلامية الى بلاد الصين شرقا . والى المحيط الهندى والصحراء الافريقية الكبرى جنوبا .

وهذه الفتوحات الخالدة التى تمت فى العهد الأموى وفقا لرؤى الدكتور محمد الطيب النجار هى التى رتفع عليها صرح الدولة وسط العواصف الهوجاء التى كانت تتناوشها « لو كان الجو صيفا لبنى أمية ونعموا بالهدوء والسلام فى الداخل ، ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات ؟ وأغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض . وان موجة الفتح الاسلامى كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الاسلام خفاقا فى اغلب الانحاء من أرض الله الواسعة » .

كما سبقت الاشارة أن الفتوحات تضمنت فى ثناياها العلاقة بين الأمويين ودولة الروم ، لأن المسلمين حينما فتحوا بلاد الشام ومصر انما كانوا يمزقون دولة الروم ويقتطعون منها جزءا بعد جزء ولأن الأمويين حينما كانوا يقفون على أسوار القسطنطينية ، ويدقون بمطارقهم القوية ابواب العاصمة البيزنطية انما كانوا يتمون شوط الفتوحات الذى بدأه الخلفاء

الراشدون من قبلهم ... ولأن دولة الروم حينما كانت تغير - أحيانا - على أطراف الدولة الاسلامية فى العهد الأموى فهمى انما تريد أن تضعف قوة هذا الفتح العظيم ، وتحاول استرجاع مجدها القديم الذى نال منه العرب وأصابه المسلمون فى الصميم .

وفى تقويم الفتوحات الاسلامية فى العصر الأموى يستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلا : ان معاوية قد ورث عن اسلافه من الخلفاء الراشدين ملكا واسعا عرضا يحتاج الى جهود مضنية حتى يتوطد الأمن والسلام فى ربوعه لم يكن ليصرف معاوية عن التطلع الى المزيد من المجد والسلطان فرتب الشوائب والصوائف - مما سبقت الاشارة اليه تفصيلا - حتى يتتايح لغزو والجهاد ، وحتى لايركن المسلمون الى الكسل والخمول ويحافظوا على ما ورثوه من أمجاد حيث فتحت بلاد الفرس فى عهد الراشدين حتى بلاد ما وراء النهر . كما فتحت الشام وأجزاء من افريقيا وهو مالا يتعلق بمجال هذه الدراسة وعموما فقد حاولت أطراف بلاد فارس أن تتخلص من الجزية المفروضة عليها فقامت بثورة ضد الحكم العربى فأخضعت جيوش معاوية هذه الثورة ثم تابعت الزحف شرقا للتوسع فى الفتح فعبرت نهر جيحون وفتحت بخارى ثم سمرقند وترمد .

وكان الرومان قد أكثروا من الغارات على حدود الدولة الاسلامية فى الناحية الشمالية الغربية ، فأخذ معاوية العدة وجيش الجيوش وانتصر عليهم فى مواقع كثيرة .

وأرسل جيشا كبيرا فتح القسطنطينية . وهذه المحاولة تدل وفقا لهذه الآراء على اعتداده بقوة جيشه وثقته الكاملة . وكان ذلك فى سنة ٤٨هـ وقد

خرج الى هذه المعركة عدد من الصحابة وجاهدوا حق الجهاد ولكنهم لم ينالوا من أسوار القسطنطينية وحصونها المنيعة شيئا ، واستعصت عليهم فلم يستطيعوا فتحها .

وعلى الرغم من فصل تلك المحاولة فقد استولى العرب على جزيرة كبيرة بالقرب من القسطنطينية وبقيت في أيديهم سبع سنوات ثم تركها يزيد بن معاوية في مدة خلافته .

وفي عهد عبد الملك بن مروان انقسمت الدولة الاسلامية وأدى ذلك الى طمع الدولة الرومانية في استرداد شيء من نفوذها القديم وارجاع بعض البلاد التي فتحها المسلمون من قبل .

وكان عقبة بن نافع قد وصل الى شاطئ المحيط الأطلسي فتحالف الرومان مع البربر وتعاونوا على اضعاف النفوذ العربى وتمكنوا من قتل عقبة بن نافع وهزيمة جيشه ، كما أن الرومان قد أغاروا على بلاد الشام ومنها « المصيصة » وتقع على حدود الشام وأصبحت الدولة الاسلامية تشعر بمزيد من الخوف والقلق بسبب هذا العدو المتربص .

وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى هذه الظروف العصيبة ، فعقد فى أول الأمر هدنة مع الدولة الرومانية وكان الغرض منها كسب الوقت حتى يتهيأ له الجو المناسب ويتخلص من أعدائه فى الداخل ، ثم زادت رضى القتال فى آسيا الصغرى وقد اشترك الامبراطور البيزنطى بنفسه فى القتال ولكنه ارتد مهزوما امام جيوش عبد الملك ، ويرجع ذلك الى عدم الانسجام والتعاون فى جيوش الامبراطور البيزنطى حتى لقد انضمت بعض عناصره الى المسلمين وكانوا - فيما بعد - خير عون لهم فى معرفة الطرق

والمسالك والمعازل الهامة فى آسيا الصغرى .

وأما فى المشرق فقد اتجه عبد الملك الى التوسع فى بلاد ما وراء النهر ففتح قائده المهلب بن أبى صفرة كرش ، وفتح ابنه يزيد بعض القلاع الأخرى .. وكان يرجى على يد المهلب خير كثير لو امتد به العمر لما كان يمتاز به من شجاعة وطموح وسماحة نفس حبيته الى الناس ومكنت له فى قلوبهم . ولكنه مات فى ذى الحجة سنة ٧٢هـ .

وجاء الوليد بن عبد الملك فعادت أيام الفتوحات الإسلامية الأولى على عهد أبى بكر وعمر ، وانصرف الناس الى الجهاد فى سبيل الله وجعلوه هدفهم وغايتهم فكتب الله لهم النجاح والتوفيق .

وقد اشتهر فى عهد الوليد أربعة من القواد كان لهم أثر عظيم فى هذه الفتوحات ، وهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم الثقفى ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك .

فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاء الحجاج الثقفى على خراسان سنة ٨٦هـ فخرج قتيبة الى بلخ غزيا . وتلقاه عظمائها وساروا معه مؤيدين له . وفى سنة ٨٧هـ أغار قتيبة على الصفد ، وفى سنة ٨٨هـ أستخلف قتيبة على مر أخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته فكان النصر حليفه فى بلاد كرملية ثم سار الى بخارى وتمكن من فتحها بعد كفاح طويل .

وفى سنة ٩٣ غزا قتيبة مدينة سمرقند ففتحها بعد قتال شديد ، وفى سنة ٩٤هـ اتجه الى مدينة خجندة وتمكن من فتحها بعد نضال عنيف . ثم فتح مدينة كاسان وهى عاصمة بلاد فرغانة .

وهذا العرض السريع لفتوحات قتيبة بن مسلم يوضح لنا أنه منذ تولى خراسان لم يتم لحظة واحدة عن الكفاح حتى لفت بكفاحه الرائع نظير الخليفة الوليد بن عبد الملك فأرسل كتابا يدل على مدى تقديره له .

وكان من الطبيعي أن يزداد شجاعة ، واقداما بعد وصول كتاب الخليفة له فنراه يسير الى حدود الصين على رأس جيش عظيم .. وبالرغم من علمه وهو في الطريق بوفاة الوليد الا أنه مضى في سبيله حتى قرب من الصين ، وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين موجهها كلامه الى العرب : « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف فاني عرفت حرصه وقلة أصحابه والا أبعث اليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادكم وآخرها في منابت الزيتون ؟ كيف يكون حريصا من خابر الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ ، وأما تخويفك بالقتل فان لنا أجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ، ولانخافه . فأجابه ملك الصين : فما الذي يرضى صاحبك ؟ فقال له هبيرة : « انه قد حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختتم ملوككم ويعطى الجزية » فقال الملك : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطوؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختتمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاهها » ، ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، ثم عاد بعد ذلك الى خراسان

ويستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلاً : « ويتضح لنا من ذلك مدى ما كان يتمتع به قتيبة بن مسلم من هيبة ونفوذ عظيم . فان مثل هذا الأذلال الذى أصاب ملك الصين يقوم مقام الفتح لهذه البلاد أو يزيد . وهو يعطينا فكرة واضحة عن الروح الاسلامية التى كانت تعمّر القلوب وتملى ارادتها فى عزة وإباء ، وكيف كان الأعداء يذعنون أمام تلك الروح التى يتمتع بها مثل هؤلاء القادة الأمناء » .

أما محمد بن القاسم الثقفى فقد سبقت الإشارة تفصيلاً له فهو فاتح بلاد السند وهى البلاد الممتدة من ايران غرباً الى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى ، وتكون جزءاً كبيراً من دولة الباكستان حالياً .

وكانت هذه البلاد فى عهد الوليد ملجأ للخارجين على الدولة الأموية وكان يخرج منها أحياناً بعض القراصنة فيغيرون على التجار المسلمين فاذا طلب الى ملكهم أن يرد للمسلمين كرامتهم واعتبارهم لم يستجب ، فكان ذلك مما دعا الحجاج الى أن يلح على الخليفة فى فتح هذه البلاد ، ليرد هذا العدوان ويؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الاسلامية .

وقد بدأ سير حملة محمد بن القاسم الثقفى الى بلاد السند سنة ٨٩هـ فاتجه الى مدينة الديبل وظل يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها عنوة . ثم اتجه الى البيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسناً ، وأخذ يواصل الفتح والتوسع حتى التقى بملكهم « داهر » على نهر السند ودارت معركة رهية بين الفريقين ، وانتهت بقتل « داهر » وهزيمة اتباعه .

واستمر محمد بن القاسم الثقفى فى غزوه وتوسعه حتى وصل الى الملتان فى جنوب بلاد البنجاب فقاتله أهلها فانتصر عليهم ، وظل ينتقل من

نصر الى نصر حتى دانت له جميع بلاد السند .

ولما مات الوليد سنة ٩٦هـ وتولى سليمان بن عبد الملك استدعى محمد بن القاسم وولى على هذه البلاد يزيد بن أبى كبشة السكسكى ثم جوزى محمد بن القاسم بعد هذا الفتح العظيم جزاء سنمار ، فحمل من بلاد السند مقيدا مغلولا ، وبكاه أهلها أحر بكاء .

وقد مات تحت تأثير العذاب الذى صب عليه من صالح بن عبد الرحمن وما كان ينبغى أن تكون تلك نهاية القائد الشجاع الذى رفع لواء الاسلام والعروبة ولكنها الأحقاد والمؤامرات والأنانية التى تمتلىء بها النفوس ، فتفيض بالشر والبلاء .

وأما مسلمة بن عبد الملك بن مروان فقد كان له جهاد متواصل مع الروم فى آسيا الصغرى ، فافتتح كثيرا من معاقلها الهامة ، وكان يسير اليه الجنود فى كل عام فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانه وحصن عموريه وهرقلة وسبسطية وقمونية وطرسوس ، الى غير ذلك من الحصون حتى ألقوا الرعب والفرع فى نفوس الروم ، ولما اطمأن الخليفة الوليد الى أن أخاه مسلمة قد عهد الطريق الى القسطنطينية ، بدأ فى اعداد حملة لمهاجمتها ، وكانت الاستعدادات لهذه الحملة واسعة النطاق حتى ترامت أخبارها الى الروم فأوفد الامبراطور الرومانى انسطاس الثانى سفارة الى دمشق للتباحث مع السلطات الاسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن كان الغرض منها فى الواقع هو التأكد من صدق عزيمة المسلمين فى غزو القسطنطينية ولما وصل هذا الوفد الرومانى الى دمشق ووضح له أن المسلمين

ينصحونه باتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ، ويلغونه صدق عزيمة المسلمين على الجهاد فى هذا السبيل .

على أن هذا الاعداد الضخم لغزو القسطنطينية لم يقدر له أن ينتهى فى عهد الوليد ، فقام بهذا المشروع العظيم من بعده أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك وبذل فى ذلك قصارى جهده حتى تم اعداد الجيش وخرج الى القسطنطينية سنة ٩٨هـ بقيادة مسلمة بن عبد الملك وزوده بتعليحات قوية تؤكد تصميمه على الكفاح من أجل هذه الغاية المجيدة .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصارا قسريا شديدا على الرغم من برد شتاء قارص رهيب ، ولكن طال الحصار حتى مات سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ . وجاء بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز فأثر أن يدعم ما فتحه المسلمون من بلاد بدل أن يوزع قوتهم فى فتوحات جديدة فعاد المسلمون دون أن يتحقق هذا الأمل .

وفى تقويم ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية فى عهد الوليد يقول فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار : « وهكذا يتبين لنا مدى ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وهذا العهد وان لم تطل مدته فهو - بلا ريب - أزهى عهود الدولة الأموية . وكان الفضل فى ذلك الى اعوانه المخلصين وقادته الأتقاء ، وإلى صفاء الجو الداخلى الى حد كبير جعل الدولة تركز قوتها فى كفاح الأعداء من الاجانب وتدعيم النفوذ الاسلامى العربى » .

- الفتوحات بعد عهد الوليد :

أحدث ذلك التوسع فى الفتوحات على عهد الوليد هزة قوية فى أرجاء الدولة الاسلامية اشعرت الأعداء فى كل مكان بمزيد من الخوف والرغبة ، واذا كانت سياسة الدولة بعد عهد الوليد قد اقتضت الوقوف عند هذا الحد من الفتوح فان نيار الزحف القوى قد انعكس الى الداخل قوة ايجابية تقمع الفتن والقلاقل التى كانت تنشب بين الحين والحين .

ويستطرد قائلا : « ... وبعد ، فهذه نظرة سريعة الى الفتوحات الاسلامية فى عهد الدولة الأموية . وفى اعتقادنا أن هذه الدولة لو اكتفت بمجرد المحافظة على ما ورثته من اسلافها الخلفاء الراشدين ولم تتقدم شبرا واحدا لكفها ذلك شرفا وفخرا .. ولكنها قد ضربت فى ميدان الكفاح والنضال أروع الأمثال وبسطت نفوذها ذات اليمين وذات الشمال حتى فتحت بلاد السند وبلاد الاندلس غربا وأضافت الى الرقعة الفسيحة التى ورثتها عن اسلافها فتوحات جديدة كان لها فى تاريخ العرب والمسلمين أثر خالد على اقامة الأمويين بصبرهم وايمانهم قد نفذت اليه العلل والأدواء وتسلطت عليه عوامل الهدم يوما بعد يوم فنالت منه وعجلت بنهايته . »

وفيما يتعلق بسقوط الدولة الأموية وانتهاء فتوحاتها بالتالى ، فان المؤرخين يعزون ذلك الى دور الأحزاب المعارضة التى قامت فى وجه هذه الدولة . وظلت تناصبها العداء حتى لفظت أنفاسها الأخيرة .

فكانت العصبية العربية هى السمة البارزة التى كان يتميز بها حكم بنى أمية وقد تجلّى ذلك فى معاملتهم للمسلمين من غير العرب وهى معاملة كانت تختلف الاختلاف كله عن معاملتهم للعرب المسلمين ، فكانوا

يسمونهم « الموالي » وهى تسمية تشعر بسيادة العنصر العربى ، وكانوا لايسون بين العربى وغير العربى فى العطاء ولا فى وظائف الدولة وينظرون الى غير العرب نظرة احتقار وازدراء ممزوجة بالبغض والكراهية .

فكانت العصبية العربية فى حياة الدولة الأموية عاملا من عوامل الضعف ، وسوسا ظل ينخر فى بنائها ويهد كيانها .

أما العصبية القبلية فهى عصبية أضيق نطاقا من العصبية العربية ولكنها كانت أكثر ضررا وأشد خطرا ، فهى تجعل من كل قبيلة أمة مستقلة ، وهى تقتضى من أفراد القبيلة أن يتعاونوا على الباطل ، ومعنى ذلك أنها تجعل بأس العرب بينهم شديدا . وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها المدمرة أنه ترتب عليها قتل خليفة من الخلفاء الأمويين وهو الوليد بن يزيد .

كما أحيا الأمويون عصبية أخرى أضيق من العصبية القبلية وهى عصبية الأسرة ، ويوضح لنا ذلك ما فعله معاوية بن أبى سفيان من حملة الناس على الاعتراف بولده يزيد خليفة من بعده وولى عهد له ، ولقد سلك معاوية لتحقيق ذلك سبيل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب حتى تمت البيعة ليزيد بينما يوجد غيره ممن يتميزون عنه كالحسين بن على وعبد الله ابن الزبير وغيرهما من أفذاذ العرب ، فأوغر هذا النظام نفوس الجماهرة الغالبة من المسلمين .

ولئن كانت ولاية العهد للأخوة والأبناء من عوامل الشر وأسباب البلاء فان جعل ولاية العهد لاثنيين كان أكثر شرا وأشد بلاء ، اذ كان عاملا من عوامل الهدم يتسلط على الأمويين أنفسهم .

وفضلا عن العوامل السابقة التى عجلت بهدم الدولة الأموية فقد اتجه بعض الخلفاء الأمويين الى حياة البذخ والترف وهاموا بها فشغلهم ذلك عن تدبير الأمور الداخلية والخارجية بما فيها الفتوحات ، وصرفهم الى حد كبير عن ميادين الجد والعمر فكان يزيد بن معاوية كما يقول المسعودى : « صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب .. وغلب على اصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب . وكان يزيد ابن عبد الملك بن مروان رجل لهو ولعب » .

والأسباب السابقة كانت الوقود الذى سحر الفتنة وأشعلها فى أرجاء الدولة الاسلامية ، وكانت الأحزاب المعارضة هى الريح التى زادت بها تسعرا واشتعالا ، فلما قامت الدعوة لآل البيت فى خراسان .. كانت الدولة الأموية قد أطيح بها من كل مكان فقاومت بعض الوقت ولكن لم تكن تلك المقاومة الا صخرة الموت .

وقد سبقت الاشارة الى توحيد صفوف الشيعة بعد مقتل الحسين بن على وزادت الدعوة لآل على قوة . ودعى لمحمد بن على بن أبى طالب وهو المعروف بابن الحنفية ، ثم دعى من بعده لابنه ابى هاشم . وأخذ أبو هاشم يرتب الدعوى مستعينا بحواريه من الشيعة فى حيلة وحذر . ولكن تسربت اسرار هذه الدعوة الى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فاستدعى اليه أبا هاشم وتظاهر باكرامه ، ويقول بعض المؤرخين أنه دس له السم وهو فى طريقه الى الحميمة حيث كان يقيم معه متفيا محمد بن على بن عبد الله ابن عباس فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله أفضى الى محمد

بن على هذا بأسرار الدعوة وأمه بأسماء الدعاة فى لكوفة . ويقال أنه تنزل له عن حقه فى الخلافة وبذلك انتقلت الدعوة الى بنى العباس .

ولقد ابتدأت هذه الدعوة فى أول القرن الثانى الهجرى ، ورى محمد ابن على بن عبد الله بن عباس أن نقل السلطان من بيت الى بيت لابد أن يسبق باعداد أفكار الأمة الى هذا النقل وان كل محاولة فجائية لابد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالروية والحزم فعهد الى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية أهل البيت دون أن يسموا أحدا . خوفا من بنى أمية أن يعملوا على القضاء عليه اذا عرفوه .

ومن حسن سياسة الدعاة العباسيين انهم حاولوا جلب الشيعة العلويين الى صفوفهم ، فأظهروا أن غايتهم هى قلب الحكومة القائمة والقضاء على دولة الأمويين . ولم يكن يظهر منهم ما يشعر بأنهم يطلبون الخلافة لأنفسهم ، فلم تكن تؤخذ البيعة باسم العباسيين ، بل كانت تؤخذ لشخص غير معين من آل البيت رمزوا اليه بالرضا من آل محمد كما سبقت الاشارة تفصيلا .

وبزغت هذه الدعوة فى الكوفة ثم انتقلت فى الكوفة ثم انتقلت الى اقليم خراسان وهو المركز الرئيسى للخلافة وكانت تتجلى فيها روح السخط والعداء للدولة الأموية وذلك لغلبة العنصر لأعجمى فيها على العنصر العربى .

ففيها من أسلم رغبة فى الاسلام وهؤلاء كانوا يحقدون على الأمويين لتجافيهن عن مبادئ الاسلام فى بعض الأحيان .

وفيهما من أسلم طمعا في الامتيازات التي نادى بها الاسلام وأهمها المساواة .

وفيهما من حافظ على دينه الأصلي وهؤلاء كانوا ينتهزون الفرصة لانقاذ دينهم .

ولعل مما يوضح لنا صلاحية خراسان لتلك الدعوة الجديدة تلك الكلمة المنسوبة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس والتي يروون أنه قالها لدعائه حينما وجههم الى خراسان قائلا :

« ولكن عليكم الخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل . وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب - يشير الى شجاعتهم - وأصوات هائلة ولغات تخرج فخمه من أجواف منكرة . وبعد فاني أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

وقد مرت الدعوة العباسية في طريقها بدورين متباينين :

الدور الأول : الذي استمر من مطلع القرن الثاني الهجري حتى سنة ١٢٧هـ . وقد كان الدعاة في هذا الدور يجوبون خراسان في صورة تجار ثم يقومون بنشر الدعوة من بيت الى بيت ومن بلدة الى أخرى في حيطة وحذر .

أما الدور الثاني : فقد بدأ منذ سنة ١٢٧هـ حينما اتخذت الدعوة طريقا ايجابيا ، انتقلت الى دور الكفاح ، المدجج بالسلاح ، وقد تولى القيادة في

هذا الدور العملى رجل من دعاة السياسة وعباقره الحروب وأفذاذ التاريخ وهو أبو مسلم الخراسانى .

وكان من يمن الطالع للدعوة العباسية أن يقود أهل خراسان رجل منهم عرف بكفايته وإخلاصه ، فأهاب بهم الى الكفاح والعمل وخاطبهم قائلا : « أشعروا قلوبكم الجرأة فأنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فأنها تبعث على الاقدام ، والزمو الطاعة فأنها حصن المحارب » ، ثم عقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » . وأخذ يشق طريقه وينتقل من نجاح الى نجاح وتسابق أهل خراسان من السكان الأصليين الى تأييد أبى مسلم ونصرته ولقد بلغ عددهم زهاء مائة ألف رجل .

وكانت الكثرة الساحقة من الخراسانيين تحارب فى جيش أبى مسلم وأن هؤلاء بعد انضمامهم الى العرب المناوئين لبنى أمية أصبحوا قوة لا قبل للأمويين بها وكان من الطبيعى حينئذ أن ينهزم نصر بن سيار عامل الأمويين أمام أبى مسلم ، وعلى الأخص بعد أن فرق أبو مسلم كلمة العرب وجعل بأسهم بينهم شديدا ، وقد تراجع نصر بن سيار أمام قوة أبى مسلم حتى مات فقد سقطت المدن الخراسانية فى أيديهم مدينة بعد أخرى . وكان انتفاض خراسان على الدولة الأموية مطلعا رائعا لانتصارات الهاشميين قوى بعده جانبهم وعزت كلمتهم ثم سارت الجيوش والفرق فى خراسان تغزو وتنتصر حتى أخضعت بلاد العراق حيث بويع أبو العباس « السفاح » بالخلافة فى ربيع الأول سنة ١٣٢هـ .

وحيثما تم الأمر للعباسيين فى الكوفة كانت الدولة الأموية الغاربة تحاول أن تتجمع لتلقى بأخر سهم فى وجه أعدائها الألداء من بنى العباس وقد جمع مروان بن محمد لذلك جيشا بلغت عدته أكثر من مائة ألف بينما كان جيش لعباسيين أربعين ألفا فحسب ، ودارت معركة عنيفة على نهر الزاب فى جمادى الآخر سنة ١٣٣هـ وعلى الرغم من ضخامة الجيش الاموى فانه منى بالهزيمة ، وذلك قد أنهكته الحروب وهدت قواه وضعفت الروح المعنوية فى نفوس أفرادِهِ بسبب الدعاية الضخمة التى قام بها العباسيون وما أحدثه قيام دولتهم من رجة عنيفة ودوى هائل .

وهكذا تم القضاء على القوة العسكرية للأمويين ولم يبق منهم الا أفراد وجماعات يئسوا من الكفاح فألقوا السلاح وأعلنوا الولاء والطاعة ، وكان من الواجب على العباسيين - وهم من آل البيت - أن يقتدوا برسول الله ﷺ فى العفو والصفح الجميل عمن أساءوا اليهم ولكنهم كانوا مثالا للقسوة التى لا ترحم ، وللعنف الذى لا يعقل ، فارتكبوا من الفظائع ما يندى له الجبين وتقشعر من هولهِ الأبدان ، وقد أجمعت المصادر وتضافرت الروايات على أن بنى العباس قد تعقبوا الأمنين من بنى أمية وهم مجردون من السلاح ، فاذاقوهم الويل والنكال ، وهو ما رواه تفصيلا أبو الفرج الأصفهاني فى كتابهِ الأغاني .

بدأت عربة العباسيين تزداد سرعة ولم يكن هناك من شىء يمنع الملايين من أهل فارس والعراق من أن يركبوا فوقها ، وقاد أبو مسلم الخراساني - والى خراسان - جيشه فى مواجهة الأمويين والخوارج وقتل منهم نحو خمسين ألفا قبل أن يفرض الهدوء على اقليمهِ ، ويموت أبى العباس بوبع

جعفر بالخلافة واتخذ لنفسه لقب « المنصور » ، وواجه أبو مسلم قدره المحتوم ، بالرغم من محاولاته استعادة مكانته لدى سيده الجديد فعندما ادعى عبد الله عم أبي جعفر انه الأحق بالخلافة ، اخبره أبو مسلم من خراسان وفي طريق عودته الى خراسان دعى الى زيادة بلاط أبي جعفر ، فقبل الدعوة في لهفة ظنا بأنها تبشر بمكافأة له على انجازاته غير أنه كان مخدوعا اذ عند وصوله شرع أبو جعفر في لومه ، وترك الطبرى يسرد تفصيل ذلك قائلا : ذكروا أن المنصور قال يعاتبه : أخبرنى عن كتابك الى أبى العباس تنهاه عن الموت ، أردت أن تعلمنا الدين ! ... قال فأخبرنى عن تقدمك اياى فى الطريق ... فقولك حين اتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف الى : فتقدم فترى من رأينا ، ومضيت فلا أنت آخرت حتى الحقك ولا أنت رجعت الى ،،، فجارية عبد الله بن على أردت أن تأخذه ؟ .. فمراغمتك وخروجك الى خراسان ؟ ... والمال الذى جمعته بحران ؟ ^(١) .

وعند اشارة معلومة انقض حرس الخليفة على أبى مسلم فقطعوه أربا والقوا بجثته المتناثرة فى نهر دجلة ، وكانت الظنون انه بالقضاء على الأمويين والخوارج وعلى أبى مسلم فى وقت واحد ، فان أبا جعفر سيقضى فترة حكمه الاحدى وعشرين دون خوف من منافس ، غير أنه يبدو أنه كان لا يزال لا يثق بأن العرب - وهم ذوى قرباه - يمكن أن يخدموه ، ومن ثم حرص هو وخلفاؤه المباشرون على احلال المؤثرات الفارسية فى داخل الخلافة محل العربية ، فنقل مقر الخلافة من الشام الى العراق وادخل الثقافة والتعليم والعادات الاجتماعية الفارسية ، ولم يعد حرس الخليفة

(١) الطبرى ، تاريخ الطبرى ، الجزء السابع ، ص ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

وجماعة الضباط فى الجيش من مصادر عربية ولكن من خراسان ثم من قبائل التركمان الواقفين الى الشرق .

ويذكر انتونى ناتنج : ان هذه التغييرات الثورية كان لها تأثير مرير على قطاعات معينة من السكان العرب أصبحوا من حيث الواقع - وأن لم يكونوا من الناحية القانونية - مواطنين من الدرجة الثانية فى امبراطوريتهم ، ولم تكن هناك مقاومة ، وقبل العرب الوضع الجديد لأنه اعطاهم مجتمعا اسلاميا برغم « أنغامه » الاجنبية .. » .

أما تأثير هذه التغييرات على العلاقات السياسية فى عصر الدولة العباسية فى عهدها الأول ، فقد كسب الموالى فى فارس والعراق نصرا جديدا ورائعا ووجدوا مكانا تحت الشمس فى القسم الشرقى من الدولة الاسلامية وكان أبو جعفر - على حد تعبير انتونى ناتنج - الرجل الصحيح بمعنى الكلمة ، ... فلم يكن طاغية .. وكان من أول افعاله أن بدأ العمل فى انشاء حاضرة جديدة حيث اختار موزعا على نهر دجلة يدعى بغداد ، بعيدا عن مواقع الشيعة ، وبنى العاصمة الفارسية القديمة - طيسفون - وأصبحت بغداد « مدينة السلام » فى سنوات قليلة ومركزا للتجارة ، وعاصمة سياسية لها مكانة دولية ، ويصفها المؤرخ فيليب حتى قائلا : « .. كما لو كانت ظهرت الى الوجود بفعل عصا ساحر ، فان مدينة المنصور هذه ورثت قوة ومكانة طيسفون وبابل وأور وغيرها من عواصم المشرق القديم ، وبلغت درجة من الشهرة والروعة ، ربما لم يكن ينافسها فى العصور الوسطى سوى القسطنطينية » ، ويستطرد فيليب حتى قائلا : « ... وفتح الموقع الجديد الطريق أمام أفكار من الشرق ... رضى الاسلام للشائر الفارسى ، وأصبحت

الخلافة بعثا للاستبداد الايرانى أكثر منها مشيخة عربية وبانتدريج انتصرت الألقاب الفارسية ، والزيجات الفارسية .. فضلا عن الآراء والأفكار الفارسية .. ومهدت الطريق الى عصر جديد يتميز بالاهتمام بالعلم والأعمال العلمية .. » .

كان أبو جعفر دبلوماسيا ورجل دولة نثار أعظم ما وهبه للخلافة سلام دام أكثر من ثلاثين عاما ، واستطاع قمع كل تهديد لسلامة الدولة الاسلامية وأن يوسع حدودها فى الشرق بضم طبرستان - وهى اقليم جبلى جنوبى بحر الحزر - وضم قندهار على حدود الهند ، واذا كان أبو جعفر المنصور قد أدى هذه الانجازات الضخمة فال حفيده هارون الرشيد قد حقق مجدا أسطوريا وعظيما فى تاريخ الدولة العباسية ابان عصرها الأول والذهيبى والذى لقب بعصر « الف ليلة وليلة » ، وفيما يتعلق بمجال هذه الدراسة - فان نجم هارون الرشيد كان قد لمع فى سن العشرين خلال حكم والده محمد ، عندما شن العباسيون أول هجوم لهم على جيранهم الروم أملا فى الاستفادة من السلام والانسجام داخل الدولة العباسية ليتخلصوا من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى ، وسار هارون مصحوبا بخالد بن يربك على رأس مقدمة جيش الخليفة الذى راح يتوغل حتى بلغ البوسفور ، وهناك أرغم الوصية على العرش وهى الملكة ايرين على توقيع معاهدة ، وأداء الجزية الى جيوش الخليفة ، وكانت هذه رابع وآخر سرة يقف فيها جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية .

تبددت أحلام امتداد عصر السلام بعد موت هارون الرشيد ، وواجهت الخلافة صراعا مريرا بين ولديه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وكان

المأمون قد عين قبل موت والده سنة ٨٠٩م واليا على خراسان ، وعندما طالبه لأمين - وهو الخليفة الجديد - بأن يعيد جيوشه الى العراق ، فقد رفض أن يترك بغير دفاع ، وكان يشك في أن الأمين سوف يسلبه نصيبه في وصية أبيهما ، فلجأ الى الخراسانيين يطلب نصرتهم له ، وكان أصل أمه الفارسي في صالحه عندما عزله الأمين من منصبه وأرسل له جيشا للقضاء عليه وعلى أنصاره ولكن الجيش أيد عند الري القرية من طهران على يد قوة خراسانية .

استمرت الفتنة بين المأمون والأمين وانعكست على جيش الأمين الذي ازدادت أوضاعه تدهورا كما يقول المؤرخ الذائع الصيت أبو الحسن المسعودي حيث حوصر الأمين في قصره ، وتم قتله أثناء عبوره نهر دجلة وأرسلت رأسه الى المأمون ، ويذكر الطبري ^(٢) أن الأمين قرر أن يرسل نفسه الى المأمون ، فهاجمه أنصار المأمون رغم عبوره النهر وقتل .

تولى المأمون الحكم غير أنه اختار خراسان بدلا من بغداد قاعدة له ، وثارت بغداد ضد مستشاري المأمون من الفرس وزيادة المؤثرات الفارسية ، وظل العراقيون في حالة من الفوضى شهورا عدة الى أن أرسل الخليفة أخذ أعمامه من خراسان ليعيد السلام هناك ، وجعلت الخلفية الفارسية للمأمون كيف يبدو في مظهر جديد وحافظ عليه حتى نهاية عهده وكان يحب الفنون والعلوم والثقافة والفلسفة ، وشجع حضور رجال العلم بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم ، فالنصارى والروم واليهود والمجوس - هؤلاء جميعا كانوا موضع رعايته .

(٢) الطبري ، تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ص ص ٤٨١ - ٤٨٣ .

ومى عهده جرى تعديل نظام التعليم وتحديثه وأنشئت أكاديميات التعليم
العالي ، وتم تأسيس مدرسة للتشريعة والفقه وجرى التنقيب عن مؤلفات
الفلاسفة والرياضيين الاغريق وأنشئت دار للترجمة أشرف عليها عربى
نصرانى هو حنين بن اسحق الذى ترجم بنفسه « جمهورية افلاطون »
ونتائى المقولات والطبيعة لأرسطو ، وكان هذا هو العصر الذهبى للدولة
لعباسية حيث تم أيضا تطوير مصر وفارس والهند ، ويعلق فيليب حتى
قائلا : « ان من المجد الخالد للاسلام فى العصور الوسطى أنه نجح فى
التنسيق والتوفيق بين الفكر الاسلامى والفلسفة اليونانية التى هى أعظم ما
أنجزه العالم الأوروبى القديم ، وبذلك قاد الاسلام أوروبا المسيحية تجاه وجهة
النظر الحديثة » .

وفيما يتعلق بتقويم خلافة المأمون على صعيد العلاقات السياسية ، فمن
الثابت أن المأمون حين مات فى سن الثامنة والأربعين كان قد سحق
الثورات فى كردستان وأمن حدود الدولة العباسية مع بيزنطة ويحدثنا
الثعالبي أن عصر التفوق العباسى استهله أبو جعفر ، ونضج وأثمر تماما فى
عهد المأمون الى هذا المزيج الرائع من الدم العربى والفارسى وتحولت بغداد
الى مركز للثقافة والعلم فى الوقت الذى لم يكن فيه فى استطاعة حكام
أوروبا حتى أن يكتبوا أسماءهم

ومن المؤسف أنه لم يمر على موت المأمون أقل من سبعين سنة حتى
كان تفوق العباسيين السياسى قد انتهى وراحت الخلافة مرة أخرى فى
طريق الانحلال والتفكك حيث كان الشيعة ما يزالون ينتظرون أن يحكموا
الدولة الاسلامية واعتقدوا أنهم خسروا الكثير من التأيد الشعبى لهم وخاصة

فى العراق بوصفه مركز الرخاء والازدهار الفكرى للدولة الاسلامية وتلى ذلك انقسام الشيعة الى مجموعات متباينة على نحو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا وذلك بالاضافة الى الطوائف والفرق الاخرى وانعكس ذلك سوءا على صعيد العلاقات السياسية من خلال سلسلة المعارك التى اشتبك فيها القرامطة لتأييد ثورة الزنج فيما بين عامى ٨٦٨ - ٨٨٣ م - على سبيل المثل - وما حققوه من نصر على الجيوش الاسلامية فى البصرة فى عام ٩٠٠ م ثم زحفهم على الشام واستيلائهم على جزئها الشمالى سنوات عدة قبل هزيمتهم من الأتراك وفرارهم الى العراق وسيطرتهم على جنوبه من البصرة الى الكوفة ولما مات قرمط أقام مبعوثه سعيد الحسن الجنائى دولة قرمطية مستقلة فى البحرين ، وخلال السنوات المائة التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة وأغرقوا الشام والعراق فى الدماء ، وانقضت حوالى مائة عام أخرى من الحركات الاستقلالية والانفصالية عن الخلافة وكان على العالم الاسلامى أن يواجه غزوتين شرستين تمثلتا فى الغزو المسيحى والغزو الوثنى ، وكتب كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي والسلطان المملوكى بيبرس فصولهما الباهرة فى تاريخ العلاقات السياسية فى الاسلام فى هذه الفترة ، وكانت مصر هذه المرة - وليست بغداد - هى القوة التى ألقت بالصليبيين خارجا ، وأوقفت غزو الوثنيين المغول الذين جاءوا فى اعقابهم - قبل اعتناقهم الاسلام - ولم تعد بغداد صانعة للأحداث بل مجرد متفرج عليها فيما تبقى من الامبراطورية الفارسية .

وفى تقويم دولة صلاح الدين على صعيد ما يتعلق بمجال هذه الدراسة يمكن القول أنه سواء تعلق الأمر بأخلاقه أو سلوكه فقد كان قائدا اسلاميا

بمعنى الكلمة ، ولم يكن يتسم بالقسوة الا اذا تعلق الأمر بالخيانة والغدر ، ومن المعروف أن هاتين الصفتين هما سمتا هذا العصر من خلال احتكاك المسلمين بالصلبيين ، وبخلاف ذلك كان من أشد المحاربين عزوفا دائما عن اللجوء للحرب اذا كان التفاوض يخدم غايته بنفس الدرجة ، وعلى خلاف الصليبيين فانه لم ينكث أبدا بعهد قطعه لأى أناس آخرين ، ومع ذلك لم تتح له الفرصة ليكسب تفوقا ثقافيا على نحو ما فعله المأمون ولكن الأهم من ذلك فان صلاح الدين قد جمع ، ووجد العالم الاسلامى والعربى من النيل الى الفرات فقيوت الشعوب الاسلامية التى كانت مهددة فى وجودها ودينها ، ووجه صلاح الدين الى الغزاة الأوربيين ضربة قاصمة وجعل من الاسلام قوة يعمل لها حساب فى الشرق والغرب على السواء ، وكان مثالا يحتذى به فى الشهامة والروح الانسانية ندر أن كان له مثيل ولم يتفوق عليه مثال آخر فى هذه الفترة .

المصادر والمراجع

أولا - المصادر والمراجع العربية :

- القرن الكريم .
- ابراهيم العدوى (دكتور) ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ إصدار .
- ابراهيم ييغون (دكتور) ، تكون الاتجاهات السياسية فى لاسلام الأول ، داراقرأ ، بيروت ١٩٨٥ .
- أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) ، الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦هـ
- أحمد أمين ، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ظهر الاسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- أحمد بن بيليك المحسنى (ت ٧٥٣هـ) ، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين ، معهد المخطوطات ، القاهرة ، بدون تاريخ إصدار .
- أحمد قاعور (دكتور) ، شحاده الناطور (دكتور) ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ، مطبعة الاتحاد ، عمان ، ١٩٨٢ .
- آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر النهضة فى الاسلام ، ترجمة دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة - جزآن - القاهرة ١٩٥٧ .

- ادوارد جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- ابن العماد الحنبلى أبو الفلاح عبد الحى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، تحقيق دار أحياء التراث العربى - ثمانية أجزاء فى أربعة مجلدات ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق أسد رسم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، المطبعة الامريكية ، بيروت ١٩٤٢ .

- ابن أبى الحديد ، نهج البلاغة ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- ابن حزم ، أبو محمد على بن سعيد الأندلسى ، (ت ٤٥٦ هـ) ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٩١ هـ / ١٩٧١ م .

- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن على بن حوقل البغدادى ، (ت ٣٦٧ هـ) ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٠٠ م .

- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن اسحق ، أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى (ت ١٥١ هـ) سيرة النبى ، هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - جزآن - دار الاتحاد

العربي للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من ذوى السلطان الأكبر ، - ٧ أجزاء - القاهرة ١٩٦٢ .

- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان الشافعى (ت ٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧هـ) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر باد ، الهند ١٣٥٨هـ .

- ابن شداد ، بهاء الدين ، كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد عبد ربه لأندلسى (ت ٣٢٨هـ) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، (ت ٢٧٦هـ) ، الامامة والسياسة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن التميم - محمد بن اسحق أبو الفرج (ت ٢٣٥هـ) ، الفهرست
دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨

- أبو اسحاق بن محمد الفارسي الاصطخرى ، كتاب الأقاليم ، بدون
مكان اصدار ١٨٣٩ م .

- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي ، كتاب
الروضتين في أخبار الدولتين الثورية والصلاحية ، تحقيق
محمد حلمي محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ .

- اسماعيل بن علي بن عماد الدين أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) ،
المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٤م .

- انتوني ناتنج ، العرب انتصاراتهم وأمجاد الاسلام ، ترجمة دكتور
راشد البراوي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ،
١٩٧٤ .

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسين علي بن أبي الكرم الشيباني ، (ت
٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ،
بيروت ١٣٨١هـ / ١٩٦٧م .

- أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ)
المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٥٦ .

- البغدادي ، عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمي (ت ٤٢٩هـ) ، الفرق
بين الفرق ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار

المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

- البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ) ،
فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، بدون مكان
وتاريخ اصدار .

- برنارد لويس ، أصول الاسماعيلية ، ترجمة خليل أحمد جاد ،
وجاسم محمد الرجبى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ،
بدون تاريخ اصدار .

- تيلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ،
١٩٦٦ .

- الجاحظ ، عمر بن بكر ، (ت ٢٥٥هـ) ، البيان والتبيان ، دار
الفكر للجميع ، بيروت ١٩٥٤ .

- الجهثيارى ، محمد بن عبيدوس الكوفى (ت ٣٣١هـ) ، الوزراء
والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الاييارى
وعبد الحفيظ السبكى ، مكتبة مصطفى البابى الحلبي ،
القاهرة ، ١٩٣٨ .

- حسن على ابراهيم (دكتور) ، الاسلام السياسى ، القاهرة ،
١٩٧٣ .

- حسن حبشى (دكتور) ، نور الدين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ،
١٩٥٩ .

- الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣هـ) ، تاريخ

- بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- الدنيورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود الدنيورى ، (ت ٣٨٢ هـ)
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة
والارشاد القومى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- راشد البراوى (دكتور) ، التفسير القرآنى للتاريخ ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- رفيق التميمى ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ١٩٤٥ .
- سعيد عاشور (دكتور) ، أوروبا فى العصور الوسطى ، النظم
والحضارة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .
- سعيد عاشور (دكتور) ، الحركة الصليبية ، الانجلو المصرية ،
القاهرة ، ١٩٦٣ .
- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر السيوطى ، (ت
٩١١ هـ) ، تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر
الطاعة ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
- شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، دار العلم
للملايين ، بيروت ١٩٥٢ .
- الشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٨٤ هـ) ،
الملل والنحل ، تحقيق محمد رشيد الكيلانى ، دار
المعرفة ، بيروت ١٩٧٥ .

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، دول الاسلام ،
القاهرة ١٣٦٨هـ .

- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى ، معجم البلدان ،
١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م .

- الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ، أخبار الراضى
بالله والمتقى بالله ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ .

- الصفدى ، صلاح الدين خليل إيبك (ت ٧٦٤هـ) ، الوافى
بالوفيات ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٤٩ .

- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٢٢٤ - ٣١٠هـ)
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،
دار المعارف بمصر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار

- عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة ، دار الكتاب اللبنانى ،
بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ .

- عبد العزيز الدورى (دكتور) . دراسات عن العصور العباسية
المتأخرة ، بغداد ، بدون تاريخ اصدار .

- عبد العزيز جاويز ، الاسلام دين الفطرة ، بدون مكان وتاريخ
اصدار .

- عبد الله بشر الطرازى (دكتور) ، موسوعة التاريخ الاسلامى
والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان
الحالية) ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، جدة

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، تاريخ ابن خلدون ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .
- عبد الفتاح السرنجاوى ، الخلافة العباسية ، اضمحلالها وسقوطها ، مكتبة عطايا بمصر ، القاهرة ١٩٥٥ .
- عبد المنعم ماجد (دكتور) ، التاريخ السياسى للدول العربية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .
- على حسنى الخربوطلى (دكتور) ، الدولة العربية الاسلامية ، البايى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- على سامى النشار (دكتور) . مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .
- عماد الدين الأصفهاني ، تاريخ دولة سلجوق ، القاهرة ١٢٢٨ هـ .
- العيني ، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى (ت ٨٥٥ هـ) ، عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان ، أو تاريخ العيني (مخطوطة) ، داو الكتب المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- فتحى عثمان ، أضواء على التاريخ الاسلامى ، دار العروبة ، القاهرة ،
بدون تاريخ اصدار .

- فتحية النبراوى (دكتورة) . دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ،
الادارة العامة لكليات البنات ، الرياض ١٣٩٧ هـ /
١٩٧٧ م .

- فتحية النبراوى (دكتورة) ، محمد نصر مهنا (دكتور) ، تطور
الفكر السياسى فى الاسلام ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٨٣ .

- فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، مطبعة الكشاف ، بيروت ،
١٩٦١ .

- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . ترجمة كمال
اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ .

- كارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير
البلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

- القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى (ت ٦٨٥ هـ) ،
أخبار الدول وآثار الأول ، مكتبة المثنى ، القاهرة ، بدون
تاريخ اصدار .

- القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم
الأيارى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ) ، صبح

الأعشى في صياغة الانشا ، بدون مكان وتاريخ
اصدار .

- الماردينى . عبد السلام بن عمر بن محمد ، (ت ١٢٥٩ هـ) ،
تاريخ ماردين (مخطوطة) ، دار الكتب المصرية ،
القاهرة .

- محمد أسعد طلس (دكتور) ، تاريخ العرب ، دار الأندلس للطباعة
والنشر والتوزيع ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

- محمد جمال الدين سرور (دكتور) ، الحياة السياسية فى الدولة
العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد
الهجرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٦ .

- محمد رشاد خليل (دكتور) ، المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ
وتفسيره ، بدون مكان اصدار ، الطبعة الأولى ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م .

- محمد ضياء الدين الرئيس (دكتور) ، عبد الملك بن مروان والدولة
الأموية ، القاهرة ١٩٦٩ .

- محمد الطيب النجار (دكتور) ، الدولة الأموية فى الشرق ،
القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- محمد ماهر حمادة (دكتور) ، وثائق الحروب الصليبية والغزو
المغولى للعالم الاسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت
١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

- محمود شاكر ، التاريخ الاسلامى ، الجزء الثالث ، (الخلفاء الراشدون) ، المكتب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٥ .

- الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- الشيخ محمد الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٧٠ .

- محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، جزآن - الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .

- المسعودى ، أبو الحسين على بن الحسين بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- المقرئى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، الخطط المقرئية ، مكتبة أحياء العلوم ، الشياح ، لبنان ، بدون تاريخ اصدار .

- محمد نصر مهنا (دكتور) ، علوم السياسة ، دراسة فى الأصول والنظريات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٨ .

- محمد بن أحمد ، كتاب العبر فى خبر من خبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠ .

هنرى لادوست : نظريات شيخ الاسلام ابن تيمية فى السياسة
والاجتماع ، ترجمة محمد عبد العظيم على ، تقديم
ومراجعة دكتور مصطفى حلمى ، دار الانصار ، القاهرة
بدون تاريخ اصدار.

- الصنيمى ، الامام احمد بن محمد المعروف بن حجر ، ١٠٨٠ هـ
٩٧٤ هـ ، كتاب اخوان الصفا بنيد اخبار الخلفاء ،
مخطوطة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

الأزدى ، محمد بن عبد الله الأزدى البصرى (ت ١٦٥ هـ) ، تاريخ
فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ، بدون
تاريخ اصدار .

- الاصطخرى ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ،
مسالك الممالك . ليدن ١٨٧٠ م .

- ناجى معروف (دكتور) ، عروة العلماء المنسوبين الى الشلطان
الأعجمية فى خراسان ، منشورات وزارة الاعلام ،
الجمهورية العراقية سلسلة كتب التراث (٤٦) ، بغداد
١٩٧٦ .

- اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت ١٩٢ هـ) ، تاريخ
اليعقوبى ، مطبوعات المكتبة الحيدرية ، التجف ،
١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

ثانيا - المراجع الأجنبية

- Abboit. J. : " Sind : A Reinterpretation of Un happy Valley.
Oxford University Press, 1924.
- De Goge, Memeire sur Les Carmathes de Bahrain, Leiden
1882.
- Eeonard Binder, Religion and Politiks in Pakistan, University
of California Press 1961.
- Ivanov, The Rise of the Fatimide, Calcutta, 1942.
- Ivanov, A Gide to Ismaili Cullerative, London 1933.
- Lambrick, H.T. : Sind : " A General Introduction" Hyder,
Abad, Sind, Sindhi Adabi Board, 1964.
- Lewis, Bernard, The Origine of Ismailism, Cambridge 1940.
- Toynbee, A Study of History. London, 1945.
- Raverty: " The Mahran of Sind," in : Journal of the Royal
Asiatic Society, Bengal 1892.
- Syikes, (Sir Percy), History of Persia, London 1951

فہرس

الفهرس

إهداء : ٥

تمهيد : ٧

الباب الأول

عصر النبوة والخلافة الراشدة

الفصل الأول : عصر النبوة :

- من العهد المكي الى العهد النبوى : ٢٣

- أسس الدولة الاسلامية ٢٨

- الردة وحروبها ٣٣

الفصل الثانى : عصر أبى بكر الصديق :

١٠ - ١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م

- فتح العراق وفارس ٤١

- الدروس المستفادة ٤٦

- فتوح الشام ٥١

- أبوبكر فى الشام ٥٣

الفصل الثالث : عصر عمر بن الخطاب

١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م

- رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية ٥٩

- من فتوح العراق الى فتوح ايران ٦٥

- فتوح السند والبنجاب : ٦٨

- السند والبنجاب ، بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية ٦٨

- تقويم : ٧٤

الفصل الرابع : عصر عثمان بن عفان

٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م

- توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك ٧٩

- أسماء لامعة فى الفتوحات الاسلامية ٨٢

- السند والبنجاب ٨٦

الفصل الخامس : عصر على بن أبى طالب

٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م

- خضوع الاقاليم المفتوحة فى آسيا ٨٩

الباب الثانى

الفتوحات الاسلامية فى عصر الدولة الأموية

الفصل الأول : من معاوية بن أبى سفيان

٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م الى يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م .

- توطيد أركان الدولة الاسلامية ١٠٣

- من السند والبنجاب الى قمم لبنان ١٠٨

- عهد يزيد ٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م والفترة اللاحقة ١١٠

من معاوية الثانى الى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير

والحجاج بن يوسف الثقفى ١١٤

الفصل الثانى من عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٦٦ هـ
الى الوليد ٨٦ - ٩٦ هـ وسليمان بن عبد الملك
٨٦ - ٩٦ م

- الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية ١٢١

الفصل الثالث : من عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١ هـ

٧٠٧ - ٧٣٠ م الى ما قبل سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

- دور البصرة فى فتح خراسان ١٢٧

- دخول اعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الاسلامى ١٣٠

- حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز ١٣٣

الفصل الرابع : محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند

- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفى ١٤١

- عودة الفتوحات الاسلامية النشيطة ١٤٤

- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفى

(٩٢ - ٩٦ هـ) ١٤٥

الفصل الخامس : بلاد السند بعد محمد بن القاسم

- اضطراب الأحوال السياسية ١٥٩

الباب الثالث

الدولة العباسية ومسلمو آسيا حتى الغزو الصليبي

الفصل الأول : أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها

- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الاسلامية ١٧١

الفتوحات الاسلامية ١٧٧

- ١٨٢..... - الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية
- ١٨٢..... ١- أبو العباس السفاح ١٣٢ - ١٣٦ هـ
- ١٨٤..... ٢- أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ
- ١٨٨..... - الجيش ودوره الاسلامي
- ٣- المهدي بن المنصور (١٥٨ - ١٦٨ هـ)
- ١٩٢..... (٧٧٥ - ٧٨٥ م)
- ٤- من الهادي بن الهدي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)
- ١٩٨..... (٧٧٥ - ٧٧٦ م)
- الى الرشيد بن الهدي (هارون الرشيد)
- ١٩٩..... (١٧٠ - ١٩٣ هـ) (٧٨٦ - ٨٠٨ م)
- ٢٠٣..... - شئون بلاد السند
- الفصل الثاني : الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية
- من الأمين بن الرشيد (١٩٣ - ١٩٨ هـ)
- (٨٠٨ - ٨١٣) الى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)
- ٢٠٩..... والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) (٨٣٣ - ٨٤٢ م)
- ٢١١..... - الفتن وأحداث التمرد والعصيان في عهد المأمون
- ٢١٥..... - العلاقات الخارجية في عهد المأمون
- المعتصم بن الرشيد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)
- ٢١٩..... (٨٣٣ - ٨٤٢ م)
- ٢٢١..... - العلاقات الخارجية في عهد المعتصم
- ٢٢٤..... - شئون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠ هـ

الفصل الثالث : من عصر الانحلال الأول الى بروز الولايات الاسلامية الانفصالية فى آسيا

- خلفاء عصر الانحلال الأول ٢٣٢
- شئون الخلافة ٢٣٦
- بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية ٢٣٨
- ١- الدولة الصفارية (٢٤٧ - ٢٨٩هـ) ٢٣٩
- ٢- الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ)(٨٢٠-٨٧٢هـ) ٢٤١
- ٣- الدولة السامانية ٢٤٣
- (٢١٨ - ٣٨٩هـ) (٨٧٤ - ٩٩٩ م)
- والدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ)(٨٦٢-١١٨٦م) ٢٤٣
- ٤- دولة آل بويه (٣٣٤-٤٤٧هـ)(٩٤٥-١٠٥٥م) ٢٤٩
- ٥- الحمدانيون (٢٩٣-٤٠٢هـ) ٢٥٣
- ٦- من الدولة الزيدية (٢٠٣-٢٥٣هـ) الى الدولة
الزيدية (٢٥٠ - ٣٥٥هـ) والدولة الساجية
- (٢٦٦ - ٣١٨هـ) ٢٥٥
- ٧- الدولة الهبارية (٢٤٠ - ٤١٦هـ) ٢٥٩
- ٨- الدولة الملتانية (١٥١ - ٤٠١هـ) ٢٦٣
- الفصل الرابع : عصر الانحلال الثانى ودور الفرق الاسلامية
- الخلفاء ٢٦٩
- الفرق الاسلامية وتأثيراتها ٢٧٣
- ١- الخوارج ٢٧٥

- ٢ - تجمع الفرق في حركات معقدة ٢٨١
- ٣ - الشيعة ٢٨٤
- ٤ - المرجئة ٢٩١
- ٥ - القدرية والجبرية ٢٩٤
- ٦ - المعتزلة ٢٩٨
- ٧ - الاسماعيلية ٣٠٢
- ٨ - القرامطة ٣١٣
- الفرق الاسلامية في بلاد السند والبنجاب ٣١٨
- الفصل الخامس : سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة**
- ماقبل السقوط ٣٢٥
- شئون الخلافة والحركات الباطنية ٣٢٧
- ظهور دويلات جديدة :
- ١ - السلاجقة ٣٣٥
- ٢ - الأتابكة ٣٣٨
- الخوارزم ٣٤٢

الفصل السادس : الغزو الصليبي

- جذور الحقد الصليبي تجاه المسلمين ٣٤٧
- الحملة الصليبية الأولى ٣٤٨
- الحملة الصليبية الثانية ٣٥٢
- الحملة الصليبية الثالثة ٣٥٥

الحملة الرابعة الى الحملة السابعة

٢٥٩..... (١٢٠٣ - ١٢٤٩ م)

٣٦٦..... - نتائج الحملات الصليبية

فصل ختامى :

٣٧١..... فى الفتوحات الاسلامية وتأثيرها على العلاقات السياسية فى آسيا...

٣٩٧..... المصادر والمراجع

